

الدولة والإمبراطورية
في
العصور الوسطى

تاليف

ل . م . هارتمان
ج . باراكلاف

ترجمة وتعليق

دكتور
جوزيف نسيم يوسف
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

١٩٦٦



دار المعارف

الدولة والإمبراطورية
في
العصور الوسطى

تأليف

ل. م. هارتمان　　　ج. باراكلاف

ترجمة وتعليق

دكتور
جوزيف نسيم يوسف
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

دار المعارف

الطبعة الأولى
١٩٦٦

طبع



تليفون ٣٢٤٩١ اسكندرية

الدولة والامبراطورية

فى

العصور الوسطى

الدولة والإمبراطورية

في

العصور الوسطى



كلمة المترجم

يحتوى هذا الكتاب على بحثين قمت بنقلها إلى العربيــة : الأول عنوانه « الدولة فى العصور الوسطى المبكرة : بيزنطة ـــ ايطاليا والغرب » تأليف ل. م. هارتمان ، والثانى باسم « الامبراطورية فى العصور الوسطى : فكرة وحقيقة » تأليف ج. باراكلاف.

والبحث الأول كان أصلا محاضرة حولهـا هارتمان إلى مقـالة بعد أن زودها بالمراجع والهوامش اللازمة ؛ وكان عنوانهــا فى طبعتها الأولى التى صدرت سنة ١٩١٣ « فصل عن الدولة فى أواخر العصر القديم وأوائل العصر الوسيط » . وقد قام هـ. ليبشيتز(١) بنقلها إلى الإنجليزية ، مقدما لهـا بكلمة سريعة عن المؤلف ، ومجال دراسته ، وإنتاجه العلمى ، مع اختصـار بعض الفقرات الواردة فى النص الأصلى ، وإضافة إيضاحات أخرى موجزة سواء فى المتن أو فى الهوامش السفلية . ونشرها فى السلسلة العامة لمطبوعات الجمعية التاريخية الانجليزية بلندن سنة ١٩٤٩ ؛ وهى الطبعــة التي اعتمدنا عليها فى ترجمتنا هذه .

والمؤلف لودو موريتز هارتمان غني عن التعريف : فهو من كبـار المؤرخين الغربيين المعنيين بالتاريخ الوسيط وحضارته . تتلمذ على تيودور

---

(١) له عـدة بحوث ومقـالات ، من أهمهـا H. Liebeschütz, "Kosmologische Motive in der Bildungswelt der Frühscholastike," Vorträge (1923—24) der Bibliothek Warburg, Leipzig, 1926 ; idem, Medieval Humanism in the Life and Writings of John of Salisbury, London, 1950.

ممسن (١) . وخلف لنا الكثير من الكتب والبحوث والمقالات ، من أهمها مؤلفه الضخم المعروف باسم « تاريخ ايطاليا فى العصور الوسطى » "Geschichte Italiens im Mittelalter" فى أربعة مجلدات ؛ ويتناول الفترة من عصر ثيودوريك إلى عصر هنرى الثانى. والكتاب فى مجموعه مصدر ثقة فى تاريخ إيطاليا الوسيط . ويستوعب البحث الذى بين أيدينا خلاصة المادة الغزيرة الواردة فى الأجزاء الثلاثة الأولى من الكتاب المذكور . ويعتبر الجزء الأول منه من أفضل ما كتب عن القوط الشرقيين . وقد ظهرت له طبعة مستقلة فى جوتا سنة ١٩٢٣ باسم « الملكية فى ايطاليا » "Das italienische königreich" . ومن انتاجه كذلك كتابه المعنون « دراسات فى تاريخ الادارة البيزنطية فى ايطاليا (٥٤٠ — ٧٥٠) » «Untersuchungen zur Geschichte der byzantinischen Verwaltung in Italien (540 — 750)» . وكذلك كتاب « سيادة آل اوتو » "Die ottonische Herrschaft" .

وتكشف كتابات هارتمان عن تخصصه فى التاريخ الايطالى الوسيط . كما يكشف البحث الذى قمنا بنقله إلى العربية فى هذا الكتاب، عن أوجه الخلاف بين الامبراطورية البيزنطية فى الشرق من ناحية وبين مملكتى الفرنجة واللمبارديين فى الغرب من ناحية أخرى . وكذلك شكل الدولة فى كل من الغرب الجرمانى والشرق البيزنطى فى القرون الوسطى المبكرة . ففيه دراسة

---

(١) من أهم مؤلفات ممسن البحوث والمراجع التالية : T.E. Mommsen, "Ostgotische Studien," Neues Archiv der Gesellschaft für ältere deutsche Geschichtskunde, XIV (1889), 223 - 49,451 — 544, XV (1890), 181 — 86 ; idem, "Apollinaris Sidonius und seine Zeit, Reden und Aufsätze, Berlin, 1905 ; idem, Medieval and Renaissance Studies, ed. by E. F. Rice, Ithaca, 1959.

ممتعــة مركزة فى الأسس الاجتماعية والاقتصادية لأوجــه النشاط السياسى خلال تلك الفترة من الزمن ، مع تمييز دقيق بين كل من الاقتصاد « النقدى » والاقتصاد « الطبيعى » أو « الاقطـاعى » ، وبين كل من البــيروقراطية بشقيها المدنى والعسكرى والاقطاعية المحلية ، وايضاح السبب فى أن كلا من الشرق والغرب قـد نهج نهجا يختلف عن الآخر . كل هذا يعـرضه المؤلف فى اسلوب علمى يحــوى زبدة بحوثه ودراساته ، والاستنتاجات التي توصل اليها ، والتي استغرقت السنين الطوال من العمل المتواصل المستمر . ولا شك أن معـرفته بالعصر الكلاسيكى والتراث اللاتيني القديم قـد أفادته كثيراً فى هذا الشأن .

يمهـد هارتمـان لحـديثه عن شكل الدولة فى كل من الشرق والغـرب فى العصـور الوسطى المتقـدمة ، بكلمة عن نظم الحكم كما عرفها التاريخ القديم . فيبدأ بأرسطو ونظريته السياسية التي تقوم أساسا على شكل واحـد من أشـكال الدولة ، وهو نظام المدينة اليونانية الحـرة أو دولة المـدينة التى كانت تتمتع باكتفاء ذاتى ، وتكون وحـدة سياسية مستقلة عند الاغريق القدماء . وكانت هـذه المدينة الحـرة أو « البوليس » تتكون من عـدد من القرى ، وكل قرية تتكون بدورها من اجتماع عدد من الأسر . والأسرة عندهم هى الوحدة الأساسية التى يقوم عليها المجتمع الانسانى . ويكون مثل هذا النظام السياسى مثاليا إذا ضمن للمدينة الحـرة الاكتفاء الذاتى . ويستعرض المؤلف بعد ذلك مراحل التطور فى نظام المدينة اليونانية الحرة التي نادى بهــا فيلسوف اليونان الكبير ، وهي الملكيـة والارستقراطية والديموقراطية . ويرى أن روما فى تاريخها القديم قـد مرت بنفس هـذه المراحل الثلاث ، دون حدوث تغيير جوهرى فى جهاز الحكم والأسس التى

يرتكز عليها ، وهى تقسيم العمل بين التجار بين الأحرار والعمال الكادحين ؛ ولكن روما لم تلبث أن تخطت الحدود الضيقة لنظام دولة المدينة . وكان ذلك خلال القرنين الأخيرين من تاريخ الجمهورية : فلم يستمر وجودها كمدينة حرة بعد التوسع فى عمليــة تحرير العبيد ، ومنحهم حقـوقا سياسية لم تكن تمارس إلا داخل روما ذاتها .

وامتد هذا التطور الذى طرأ على النظم السياسية والادارية حتى شمل نظام الخدمة العسكرية . فتحولت الفـرق التي كانت تعمل فى خـدمة الامبراطور ، والمعروفة باسم « ميليشيا » ، إلى جيش نظامى مدرب . وكانت الامبراطورية الرومانية هى الخاتمة الطبيعية لهذا التطور . فأبطلت نظام دولة المدينــة ، وأوجدت تنظيما جديدا يتفق والأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية السائدة وقتذاك : فانتهى نظام الحكومة الذاتية ، وفقدت المجالس البلدية وظائفها الادارية ، وأصبح المجتمع أكثر تعقيدا وتشابكا : كما زال التقسيم القديم بين أفراد هذا المجتمع ، وغدت المهن والحـرف متوارثة . كل هذا مهد لظهور طبقة جديدة لم تكن معروفة من قبل هى البيروقراطية الرومانية بوظائفها ودرجاتها ومراتبها ورتبها ، والتى تمثل تطورا كاملا فيما يتعلق بمركزية الحكم والادارة . ولم تكن تلك البيروقراطية مستمدة من نظام دولة المدينة ؛ ولكنها تمثل فى الواقع ظاهرة جديدة فى المجتمع الرومانى تتميز بأساسها الهللينستى القائم على الاقطاعات الكبيرة من الأرض يديرها جهاز من الأداريين الأرقاء (١) . وأخذ هذا الشكل الجديد

---

(١) تعرض الاستاذ م . روستفتزف فى كتابه « التاريخ الاجتماعى والاقتصادى للعالم الهللينستى » لهذه الناحيــة فى شيء من التفصيل . وأشار هارتمان إلى ذلك فى الفصل الأول من بحثه المترجم فى هذا الكتاب . انظر أيضا
H. St. L. B. Moss, The Birth of the Middle Ages (1937), 1—37.

للتنظيم السياسى فى النمو خلال القرون الثلاثه الممتدة من عهد أوغسطس إلى عهد دقلديانوس . هذا ، ويكشف الصراع الذى قام فى أخريات التاريخ القديم بين البيروقراطية الرومانية والدولة الاقطاعية ، عن الشكل الذى كانت عليه الدولة فى كل من الشرق والغرب خلال العصور الوسطى المتقدمة .

فإذا نظرنا إلى بيزنطة — وريثة روما القديمة وحضارتها — نجد أنها كانت بيروقراطية الصبغة والطابع . إذ تميزت بجهازها الحكومى المركزى الضخم المعقد الذى يدير شئون الحكم فى الداخل والخارج . وكان على رأسه الامبراطور ، فالأعيان ، فالموظفون مرتبين ترتيبا دقيقا وفقا لمنزلتهم ودرجاتهم . وقد اشتهرت بعدائها الشديد للاستقلال المحلى واتجاهها نحو المركزية . ويقول هارتمان إن الضرائب كانت القاعدة الاقتصادية المتينة التي قامت عليها تلك الدولة . ونراه يوجه عناية خاصة إلى هذه الناحية لما لها من أثر فعال على تكييف شكل الدولة ونظام الحكم فيها . ولسنا بحاجة للدخول فى تفصيلات النظام الضرائبي فى بيزنطة . فمصادر التاريخ البيزنطى ومراجعه تحوى نبذ وإشارات عديدة متنوعة فى هذا الصدد . ويكفى أن نعرض له هنا عرضا موجزا . يقول ستيفن رنسيمان إن الضرائب كانت على نوعين : مباشرة وغير مباشرة . والضرائب المباشرة بدورها نوعان : ضرائب الأرض وضرائب الرءوس أو الأفراد : والأولى تقدر تبعا لقيمة الأرض . وكانت جميع الممتلكات بما فيها الضياع الامبراطورية ملزمة بدفع الضرائب . كما كانت تفاصيل التقديرات تدون فى سجلات فرعية بعواصم المقاطعات ، وفى السجل الرئيسى الكامل المحفوظ بدار الحكومة المركزية . وكانت هذه الضرائب تدفع فى أول الامر عينا ، ثم أصبحت تدفع نقداً فيما بعد . وكان نظام جبايتها متغيرا وفقا للظروف

والأحوال بين النظام المسمى بالضرائب الجماعية ونظام الالتزام التضامنى : هذا عن ضريبة الأرض ، أما ضريبة الرءوس فمعلوماتناعنها قليلة ويكتنفها الغموض : وهناك ضرائب إضافية على المنازل والبهائم والبضائع والآلات وغيرها ، كان يستخدم معظمها فى الأغراض الحربية . وأما الضرائب غير المباشرة فتتكون من مكوس الموانى والأسواق والعشور ورسم التمغة ورسوم الجمارك وهى أهمها ، ونعنى بها رسوم التصدير والاستيراد التى ضمنت موردا ضخما لخزانة الدولة .

ويضيف رنسيمان بأن هذا النظام الضرائبى المحكم كان يمون الامبراطور بفيض لا ينقطع من المال الذى يدفع نقدا ، الامر الذى مكنه من مواصلة العمل دون توقف بهيئة موظفيه المركزية الضخمة ، مع الاحتفاظ بجيش دائم ثابت قوى ، وأسطول بحرى كبير على أهبة الاستعداد لأى طارىء (١) .

كل هذا جعل الدولة البيزنطية — وفقا لرواية هارتمان — فى مركز أقوى بكثير من مركز أى دولة جرمانية فى الغرب . كما كان نفوذ الإمبراطور البيزنطى يفوق نفوذ أى حاكم جرمانى .

هكذا أرتبط النظامان الإدارى والمالى فى بيزنطه إرتباطا وثيقا بقيام جيش وأسطول لهما من الكفاية والخبرة والاستعداد ما يمكنهما من حفظ البلاد من أى عدوان خارجى أو ثورة داخلية . والأمثلة على ذلك عديدة

---

(١) أنظر S. Runciman, Byzantine Civilisation (1948), 96—100 وترجمته العربية « الحضارة البيزنطية » (١٩٦١) ، ص ١٠٨ — ١١٢ .
راجع أيضا N. H. Baynes and H. St. L. B. Moss (eds.) Byzantium=

نستمدها من تاريخ بيزنطة الطويل : (١)

لقد جعلت هذه الظروف من الامبراطورية البيزنطية المكان الوحيد طوال العصور الوسطى الذى كانت تدرس فيه وسائل الحرب وفنون القتال والخطط والتكتيكات الحربية . كما أسهمت فى اخراج عدد من الكتاب العسكريين الأكفاء ، ومن الحكام والقادة العسكريين . ووجه كثير من مؤرخيها عنايتهم إلى الشئون العسكرية ، مثل المؤرخ بروكوبيوس الذي عاصر الامبراطور جستنيان ووضع مؤلفه المعروف باسم « التاريخ السرى » .

ويزودنا رنسيمان ببيان واف بالكتاب والأباطرة الذين أولوا الشئون العسكرية اهتمامهم ، والذين تكشف كتبهم عن تطور تاريخ العسكرية البيزنطية ، وما يتصل بفنون الحرب والقتال من خطط وتكتيكات وأجهزة ومعدات ، وما يتعلق بالجيش وفرقه وكتائبه وعدده وعتاده ورواتبه ولوازمه . وإذا كان الجيش قد حظى بعناية البيزنطيين ، فإنهم لم يغفلوا كذلك أمر الأسطول الذى أثبت كفايته وقدرته فى الكثير من المناسبات :

(1953), 56, 58, 69, 81 — 4, 282, 288 — 9, 293 ; N H = Baynes, The Byzantine Empire (1939), 99 — 131 ; idem, Byzantine Studies and other Essays (1960), 59 — 66, 77, 85 — 6 ; G. Ostrogorsky, History of the Byzantine State (1956) 37 f., 60, 120 — 1, 167 — ويجد القارىء فى كتاب استروجورسكى اشارات أخرى عديدة عن الضرائب مبعثرة فى صفحاته .

(١) فيما يتعلق بالجيش والأسطول ونظم الخدمة العسكرية فى بيزنطة ، أنظر C. W. C. Oman, The Art of War in the Middle Ages (1960), 12 — 4, 31, 56 ; Baynes, The Byzantine Empire, 132 — 49 ; idem, Byzantine Studies, 62 — 6, 173 — 85.

وتلق النتف المبعثرة فى المصادر البيزنطية بعض الضوء على السفن وأنواعها وأسلحتها وعددها ، والدور الذى قامت به فى مواجهة أساطيل الأعداء ، والمعارك البحرية التى خاضتها :

وخلاصة القول ان نجاح البيزنطيين فى تنظيم جيشهم وأسطولهم ، فضلا عن جهازهم الديبلوماسى النشط اليقظ ، وحكومتهم البيروقراطية المركزية - كل هذا مكن دولة الروم من الصمود أكثر من ألف عام أمام الهزات العنيفة التى تعرضت لها (١) ويرى هارتمان أن الفضل الأول فى ذلك يرجع إلى نظامها المالى المتين القائم على سياسة الاقتصاد « النقدى » : وهـذا ما يؤكده شارل ديل فى كتابه « بيزنطة : عظمتها وإنحلالها » (٢) .

ويقودنا الحديث عن بيزنطة وجهازها البيروقراطى وحكومتها المركزية، إلى الحديث عن رأس هذه الحكومة والشخصية الأولى فيها ، ونعنى الامبراطور : فقد حرصت تلك الدولة على ألا تبقى السلطة فى قبضة حكام ضعاف يسيئون إليها ، بل أن تكون فى قبضة رجال أشداء أقوياء يتمتعون بشخصيات بارزة ، ويعرفون كيف ينهضون بها . ولم يكن هذا التنظيم وليد يوم وليلة ، ولكنه إرث من الأنظمة الرومانية القديمة ، تناوله المشرعون

---

(١) أنظر Runciman , op.cit . , ch. VI, 136—62 ، وترجمته العربية « الحضارة البيزنطية » ، ص ١٥٨ - ١٩٣ . راجع أيضا E. Barker (ed.), Social and Political Thought in Byzantium (1957), 123ff., 199ff.; Baynes and Moss (eds.), op. cit. . 72 f , 294 ff .

(٢) أنظر C. Diehl, Byzance : grandeur et décadence (1919), ch.V, 87 — 103 .

عبر القرون الطويلة بالتعديل والتبديل ، والصقل والتهذيب ، والحذف والإضافة ، حتى يتلائم ومطالب الدولة الجديدة : لقد كان الإمبراطور البيزنطى هو الحاكم الفرد . وكان يلقب فى العهد المبكر بإسم « إمبراطور » أو « اوغسطس » . ثم حل لقب «الحاكم الاوتوقراطى » تدريجيا محل لقب إمبراطور ، عندما أصطبغت الإمبراطورية بالصبغة الشرقية الهللينية : وأصبح الإمبراطور منذ أيام هرقل يلقب عادة بإسم « باسيليوس » ، وهو الإسم الإغريقى القديم لملك الملوك . وكانت واجبات الإمبراطور ومشاغله ومهام الحكم وأعباؤه تلتهم كل وقته : وكان فى العادة جنديا محاربا . وهو أيضا رأس الكنيسة منذ أن أعترف قسطنطين الكبير بالمسيحية فى مستهل القرن الرابع (١) . وهكذا تحدد منذ البداية موقف الدولة من الكنيسة باعتبارها جزءا لا يتجزأ منها : ولقد رفع كل هذا من مقام الإمبراطور ومكانته ، وجعله حارس أبواب السماء ، وراعى القطيع مثل بطرس كبير الرسل حسبما ادعى الامبراطور ليو الثالث الأيسورى . كما حال دون قيام صراع مكشوف حول الأمور الدنيوية بين الأباطرة ورجال الدين وعلى رأسهم البطاركة ، بعكس الحال فى الغرب اللاتينى الذى يعتبر من أبرز خصائصه ذلك الصراع العنيف الذى قام بين البابوية والامبراطورية حول المسائل العلمانية . لقد كان البطريق البيزنطى يدين بالولاء للإمبراطور : فهو الذى يقوم بتعيينه ، وبوسعه أن يخلعه من منصبه ، وأن ينتخب رجل دين آخر يخضع لإرادته ومشيأته . وكانت المحاولات الهادفة إلى فصل الكنيسة

---

(١) Runciman, op. cit., 61 ff., cf also Baynes, The Byzantine Empire , ch.IV, 59 ff .

عن سلطة الدولة مقضيا عليها بالفشل (١) .

وإذا خرجنا عن دائرة الامبراطور والسلطة الضخمة التى كان يتمتع بها ، نجد أنه كانت توجد فى بيزنطة عائلات ارستقراطية كونت ثروات كبيرة مستثمرة فى الأرض . وكان كل من ينضوى فى سلك الجندية يكافأ بمنحه هبات من مزارع ضخمه تجيز له أن يؤسس أسرة نبيلة . ومع ذلك فقد سعى الأباطرة إلى الحد من هذه العطايا ، والعمل على ألا تزيد رقعة المزارع التى كانت آخذة في النمو حتى لا تكون مصدر خطر عليهم . وكانت آسيا الصغرى بصفة خاصة موطنا للعائلات الإقطاعية الكبيرة التى وصل بعضها إلى الوظيفة الإمبراطورية . كذلك كان يشغل المناطق الريفية مجتمعات قروية من الأرقاء أو الأحرار . وكان القروى الرقيق مرتبطا بالأرض ، وأبناؤه أرقاء مثله . كما كان سيده مالك الأرض يدفع الضرائب للدولة . وهناك مزارعون مستأجرون فى كثير من مزارع الأغنياء ، وهم من الأحرار

---

(١) Runciman, cit., 108 f., 112 ff .; cf. also Baynes, The Byzantine Empire, 75 ff .; idem, Byzantine Studies, 48 -- 53, 70 — 5,368 — 6 , 302 — 75 . وهناك حالات فردية معدودة وقع فيها الخلاف بين بعض الأباطرة والكنيسة البيزنطية . ولكن لا يجوز اتخاذها كمقياس ثابت لاتجاه معين مثال ذلك عندما عارض البطريق نيقولا ميستيكوس زيجة رابعة للامبراطور ليو السادس لمخالفتها للقانون الكنسى . وانتهزت الكنيسة البيزنطية هذا الحادث لتحقيق استقلالها على حساب الامبراطور. أنظر Barker (ed.). op. cit., 9; J. M. Hussey, The Byzantine World (1957) , 132 . ونجد مثلا آخرا فى موقف الكنيسة البيزنطية وهيئة رجال الدين بها من الحركة اللا أيقونية والأباطرة اللا أيقونيين . أنظر Ostrogorsky, op. cit . , 179

ويدفعون الايجار نقدا أو عينا : وإلى جانب العبد الرق والمزارع المستأجر يوجد القروى الحر : وكل هؤلاء كانوا مرتبطين بالأرض الزراعية . وقد عملت الدولة جاهدة على أن يبقوا مرتبطين بها ،وعلى إلا يغادروها إلى المدن حتى يتسنى استمرار تزويد العاصمة بالطعام والقوت الضرورين . (١)

لقد كانت الظروف التى تطور فيها التنظيم الزراعى فى بيزنطة تختلف تماما عن تلك التي تطور فيها فى الغرب. فلم يتمتع كبار ملاك الأرض فى الشرق باستقلال ذاتى مثلما تمتع السادة الإقطاعيون فى الغرب. فحضارة الغرب فى تلك الحقبة من الزمن حضارة ريفية زراعية بحتة ، واقتصادها اقتصاد اقطاعى طبيعى ، والمحلية ضاربة أطنابها فى كل شيء . بينما حضارة الشرق حضارة مدنية ، إذ ظلت المدن فيها هي العمود الفقرى للتنظيم الاجتماعى . ولم يكن يخشى على سيادة الدولة من كبار ملاك الأرض وأصحاب المزارع الشاسعة الذين ظلوا دائما تحت رقابتها ونفوذها . وترتب على ذلك عدم قيام نظام اقطاعى أصيل فى بيزنطة حتى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى تقريبا ، وهو الوقت الذى كان فيه الاقطاع فى الغرب قد بلغ ذروة نضجه وكماله وتمامه .

وإذا كانت الدولة البيزنطية قد تشكلت وفقا للظروف التي ألمت بها ، فقد كان للدول الجرمانية فى الغرب وضعها الخاص . ففى أخريات القرن الخامس سقطت روما فى أيدى الجرمان البرابرة . وبسقوطها تنتهى الامبراطورية

(١) Runciman, op. cit. ,196 f., 206 ff. — راجع أيضا الترجمة العربية لكتاب رنسيمان « الحضارة البيزنطية »، ص ٢٣٥ - ٢٣٦ و ٢٤٨ - ٢٥٠ . وكذلك الفصل السادس من كتاب نورمان بينز ، وعنوان الفصل المذكور « ملاك الأرض والضرائب » Baynes, The Byzantine Empire, 99 ff.

الرومانية القديمة بنظمها وحضارتها ، وتنهال جحافل الجرمان فى جوفها ، وتؤسس ممالك على أنقاضها ، لها تقاليدها وعاداتها ونظمها السياسية والاقتصادية والإجتماعية الخاصة بها :

ونستهل القول بأن البرابرة لم يكن لهم هدف عام أو سياسة مرسومة لها أغراض يسعون إلى تحقيقها ، عندما تحركوا فيما وراء نهرى الدانوب والراين لهدم الأمبراطورية الرومانية وتجزئتها فيما بينهم ، ولم يكونوا يحقدون على روما أو يكرهونها . فقد نزحت القبائل الجرمانية بكامل عددها تنشد وطنا جديدا لها ، أملا فى التخلص من الضغط الشديد الذى جاء فى مؤخرتها من أجناس أخرى أشد بربرية منها هى القبائل السلافية والأجناس المغولية : وكان الجرمان أثناء ارتحالهم يعلمون تمام العلم حالة الدولة الرومانية عن طريق استخدام أباطرة الرومان - وبخاصة فى عهدهم الأخير - عددا كبيرا منهم كجند مرتزقة . وقد فتح هذا أعين الجرمان إلى ما تحويه الإمبراطورية من تراث ورخاء وثروة ومدنية . كما تعرفوا على نقط الضعف والقوة فيها ، فى وقت كانوا يستعدون فيه للنزوح داخل حدودها . لقد بهرت المدنية الرومانية أعين الجرمان ، حتى أنهم عندما دخلوا فيها لم يقصدوا فى بادىء الأمر هدمها والقضاء على حضارتها ؛ بل كانوا يرغبون فى أن يجدوا لهم مكانا أمينا بين ظهرانيها ، كى يتمتعوا بما فيها من نظام وحضارة مزدهرين .

وكان القوط هم أول الشعوب الجرمانية التى نزلت بالأمبراطورية الرومانية المنهارة . وهم ينقسمون إلى قسمين : القوط الشرقيون والقوط الغربيون . وقد اتجه الأولون غربا نحو الأدرياتيك ، وأسسوا فى أواخر القرن الخامس مملكة لهم فى ايطاليا بفضل ملكهم ثيودرريك الذى اشتهر فى التاريخ وبقى اسمه على صفحاته إلى اليوم . ومما يذكر عنه أنه واصل التقاليد

الرومانية القديمة قدر استطاعته ، مع احتفاظه بشيء من عنف النظام المتبربر . فقد كان ينظر إلى الحضارة الرومانية كمثل أعلى يجب أن يحتذيه . ولم يظل ملك القوط الشرقيين طويلا ، إذ انهار على يد جستنيان سنة ٥٣٧ . والقسم الثانى هم القوط الغربيون ، وقد انتهى بهم الأمر إلى تأسيس مملكة لهم فى أسبانيا عاشت قرابة قرنين من الزمان إلى أن قضي عليها طارق بن زياد سنة ٧١١ .

وفى نفس الوقت الذى ظهر فيه القوط ، ظهر عنصر آخر هو الوندال الذى دخل الامبراطورية متأخراً بعض الشيء . وقد استولى الوندال على شمال افريقية سنة ٥٢٩ ، حيث أسسوا بها مملكة جديدة تمتد من المحيط الاطلسى إلى حدود مصر تقريبا . وانهار ملكهم سنة ٥٣٥ على يد بليزاريوس قائد جستنيان المشهور .

تلك هي أهم القبائل التى غزت أوروبا عقب سقوط الامبراطورية ، ولم تترك أثرها الدائم على المناطق التى اكتسحتها . ولكن هنالك عناصر متأخرة أتت فيما بعد ، وثبتت في اماكنها الجديدة التى غزتها ، وتركت طابعها عليها ؛ وأهمها قبائل اللمبارديين فى شمال ايطاليا وقبائل الفرنجة فى فرنسا والمانيا . واللمبارديون من الأجناس الجرمانية التي قدمت من المناطق الشمالية ودخلت ايطاليا سنة ٥٦٨ . إذ قادهم ملكهم المدعو البوين Alboin عبر الألب إلى سهول ايطاليا الشمالية التى سميت باسمهم إلى اليوم . وقد اختلفوا عن القبائل الجرمانية الأخرى فى طريقة معيشتها وحياتها فى المزارع والقرى الصغيرة . فقد كان اللمبارديون يفضلون الحياة فى المدن على الإقامة فى السهول المنزرعة . وذلك على غير عادة القوط والجرمان عموما . وبمرور

الوقت زال ملكهم ، وكان ذلك فى أواخر القرن الثامن .

كذلك كان للفرنجة أهميتهم التاريخية الفائقة ، لأنه بدخولهم فى حظيرة الدول الأوروبية قامت حكومات جديدة فى أوروبا لها طابعها وكيانها ومقوماتها . وعلى هذا الأساس قامت دولة فرنسا ودولة ألمانيا ، اللتان كان لهما شأن عظيم فى تاريخ العصور الوسطى وفى التاريخ الحديث حتى يومنا هذا . لقد استقر الفرنجة غربا فى غالة ، وأسسوا لهم مملكة ثابتة الدعائم . ومن أبرز ملوكهم مؤسس دولتهم المسمى كلوفيس Clovis ، ومن أهم ما اتخذه من اجراءات ، اعتناقه هو ورجاله المسيحية على المذهب الكاثوليكى الرومانى سنة ٤٩٦ ، وهدفه من ذلك أن تكون هذه الوحدة الروحية التى تجمع بين شقى الشعب الرومانى والجرمانى ، أساساً وطيد الأركان لتلك الدولة التى كان يجاس عليها . وساعد على تدعيم سلطانه أن أنعم عليه الأمبراطور البيزنطى سنة ٥٠٨ بلقب « حاكم غالة الرومانية » . فكان هذا إيذاناً بتأسيس الدولة الميروفنجية وعلى رأسها كلوفيس . ولكن جاء بعده عدد من الملوك الضعاف فى وقت أشتد فيه ساعد أمراء القصر ، إلى أن أنتهى الأمر بزوال الأسرة الميروفنجية فى أواسط القرن الثامن ، وانتقال التاج إلى أسرة جديدة هى الأسرة الكارولنجية ، وعلى رأسها شارل العظيم أو شارلمان (١) . وبتأسيس هذه الأسرة وما ارتبط

---

(١) فيما يتعلق بالجرمان البرابرة وغزواتهم والممالك التى أقاموها على أنقاض الامبراطورية الرومانية ، أنظر المراجع التالية J. L. La Monte, The World of the Middle Ages (1949), 36 — 50, 70 — 3, 152— 5 ; N. F. Cantor (ed.). The Medieval World (1963), 69 — 81 ; R.E. Sullivan, Heirs of the Roman Empire (1960), 10, 12—3, = 17, 31, 37—42, 48—50, 63 — 6, 73, 101, 104, 107; S. Katz,

بها من إحياء الامبراطورية الرومانية المقدسة فى الغرب ، يدخـــل التاريخ الأوروبى فى مرحلة جديدة من أبرز صفاتها النزاع الذى قام بين الإمبراطورية الغربية من جهة وبين كل من الدولة البيزنطية فى الشرق والبابوية فى رومامن جهة أخرى .

وإذا نظرنا نظرة فاحصة مدققة إلى الدول التى أقامها الجـــرمان على أنقاض الامبراطورية الرومانية فى الغرب ، نجد أنها تختلف فى شكلها وطابعها عن الدولة البيزنطية . فقد زالت مع الزمن البيرقراطية الرومانية ، واندثرت الطبقة الرومانية القديمة صاحبة الأرض ، وأخذ النظام الاقطاعى فى الظهور والنمو ، وهو نظام عرفه الجرمان فى مواقعهم الأصلية حتى قبـــل نزولهم فى جـــوف الامبراطورية ، وأساسه العـــلاقة بين السيد والمسود أو التـابع والمتبوع وقوامها الأرض وما تغله من خيرات . وساد تبعـــا لذلك نظام الاقتصاد الطبيعى بدلا من الاقتصاد النقدى الذى كان طابـع الإمبراطورية الرومانية فى قرونها الأخيرة . (١) ونما الاتجاه نحو المحلية والبعـــد عن

The Decline of Rome and the Rise of Medieval Europe (1960),= 88 — 9, 91 — 2, 99, 100. 104 — 5, 108 — 10, 112, 114—5, 118, 135; Moss, Birth of the Middle Ages, 38 — 78; S. Dill, Roman Society in the Last Century of the Western Empire (1958), 287 — 91, 309, 332 ff., 349; M. L. W. Laistner, Thought and Letters in Western Europe (1957), 15 — 25, 169 — 71, 189 — 90, 269—71 ; H. O. Taylor, The Mediaeval Mind (1959), I, 110 ff.; N. Machiavelli, Florence and the Affairs of Italy to the Death of Lorenzo the Magnificent (1960). 1 — 6 , 10 — 2 .
راجع أيضا ديفز (هـ . و . ك) : أوربا فى العصور الوسطى (١٩٥٨) ، ص ٢٧ - ٥٧ .

(١) فيما يتعلق بالتحول من نظام الاقتصاد « النقدى » أو الاقتصاد=

مركزية الحكم: وغدا الملك هو «الأول بين أقرانه » primus inter pares فحسب: فالسادة الاقطاعيون ملوك فى دوائر اقطاعاتهم ، حتى لقد اعتبروا أن الملك ليس فى الواقع إلا واحدا منهم قدموه على أنفسهم . كما عاد الى الظهور التقسيم القديم بين طبقتي المحاربين الأحرار والعمال الكادحين غير الأحرار : ونجد مثلا واضحا لذلك في مملكة اللمبارديين : واختفى نظام

—

= « المالى » money ' economy ' الذى ميز الامبراطورية الرومانية فى أخريات عهدها ، الى نظام الاقتصاد « الطبيعى » ' natural ' economy فى العصور الوسطى المبكرة ، انظر : G. Mickwitz, Geld und Wirtschaft im römischen Reich des 4 Jahrh. n. Chr., Helsing fors, 1933; H. Geiss, Geld-und naturalwirtschaftliche Erscheinungsformen im staatlichen Aufbau Italiens während der Gotenzeit, Stuttgart, 1931; A. Dopsch, Natural — und Geldwirtschaft, Vienna, 1930 - وينفى دوبش فى ص ١١٠ من كتابه سالف الذكر الرأى القائل بأن الجرمان قضوا تماما على سياسة الاقتصاد « النقدى » التى ميزت الامبراطورية الرومانية فى قرونها الأخيرة ، وأنهم أحلوا محلها سياسة الاقتصاد « الطبيعى » التى تتفق مع احتياجاتهم ومطالبهم البدائية. والحقيقة أن استخدام المال كوسيلة لدفع الغرامات والضرائب وما اليها استمر بصفة عامة فى عصر كل من الميروفنجيين والكارولنجيين ، وبوجه خاص في جنوب فرنسا وايطاليا. إلا أن عدم وجود حكومة منظمة ، فضلا عن عدم انتظام التجارة عقب انهيار الامبراطورية الرومانية فى الغرب وقيام البرابرة بغزواتهم - كل هذا أدى تدريجيا إلى تكوين مجتمعات محلية تعتمد فى معيشتها على سياسة الاكتفاء الذاتى . وكانت المقايضة هى وسيلة التعامل الرئيسية السائدة بينها . كذلك لم تكن المكافآت على الخدمات التى تؤدى تدفع نقدا . انظر ;Moss, Birth of the Middle Ages, 270 H Pirenne, G. Cohen and H. Focillon, La civilisation occidentale au moyen âge (1941), 72 — 39 - 5, 104.

الضرائب المباشرة ، وانعدم الجند المرتزقة الذين تدفع لهم الدولة أجورهم ورواتبهم ، وبات الجيش اقطاعيا فى تكوينه . فضلا عن عدم وجود جهاز إدارى متكامل يتولى دفة الحكم فى البلاد ، والعمل على استتباب الأمن وفرض النظام وإقامة العدالة . فقد كان الجهاز الإدارى المتشابك والنظام المالى المعقد اللذين عرفهما الرومان القدماء ، وورثهما عنهم البيزنطيون ، فوق طاقة الجرمان وعقليتهم وتصورهم (١) .

كذلك كانت الكنيسة الرومانية مستقلة عن الدولة ، وليست جزءا منها كما كان الحال فى بيزنطة . لقد كانت بمثابة دولة داخل الدولة . ويزيد جورج جوردون كولتون الأمر وضوحا ، فيقول إن الكنيسة كانت الوريثة الشرعية للامبراطورية الرومانية القديمة (٢) . ولهذا القول مغزاه ودلالته . إذ قامت تلك الكنيسة برعاية أرواح أتباعها فى فترة القلق والاضطراب التى صاحبت غزوات البرابرة على الامبراطورية وأعقبتها . وكان رجال الدين أنفسهم هم المحتكرين للعلم ، وأدت بهم الظروف إلى أن أصبحوا من كبار

---

(١) ج . ج . كولتون : عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة (١٩٦٤) ، ص ٣ ـ هذا ولم يكن شكل الدولة قد تحدد بصورة واضحة فى تلك الفترة المبكرة من التاريخ الوسيط . فلم تكن توجد ـ وفقا لرأى فيجيز ـ فكرة واضحة عن الدولة ومقوماتها ومفهومها . كما لم يوجد حاكم أو ملك بالمعنى الدقيق المفهوم من هذا الاصطلاح . ففى ظل الاقطاعية لا يوجد قانون عام ، كما أن الحقوق بجميع أنواعها هى فى الواقع حقوق خاصة بما فى ذلك تلك التى يتمتع بها الملك أنظر J.N. Figgis, Political Thought from Gerson to Grotius (1960), 12-3.

(٢) كولتون : المرجع السابق ، ص ٦٣ .

ملاك الأرض . فكانوا يقتنون العبيد ، ويتصرفون فيهم بالبيع والشراء ، ويتبادلونهم ويقتسمونهم فيما بينهم ، شأنهم فى ذلك شأن غيرهم من الحكام العلمانيين (١) . وقد تعرض هارتمان لذلك بشيء من التفصيل والتحليل .

لقد كان الخلاف واضحا بين الغــرب الجرمانى والدولة البيزنطية ، وترك أثره على كافة النواحى الأخرى،وبخاصة المجال العسكرى فلم تكن سياسة الاقتصاد « الطبيعى » التى سادت فى الدول الجرمانية لتسمح بتكوين جيش قائم منظم مدرب ، وإقامة استحكامات عسكرية ، وإنشاء أسطول بحرى ، مما يهيء للدولة الأمن والسلامة . بينمـا كان بوسع بيزنطة التى أخذت بسياسة الاقتصاد «النقدى» ، الابقاء على جيش ثابت وأسطول كبير، والعمـل على صيانتهما ، فضلا عن إنشاء الحـاميات والاسـتحكامات ، مما ساعدها على البقاء قرابة أحد عشر قرنا ، والصمود أمام الهزات والأزمات العنيفة التى كانت تتعرض لها بين وقت وآخر .

ويتناول هارتمان بعد ذلك سياسة الأباطرة الغـربيين حيال ايـطاليا ، موضحا أسباب ضعف النفوذ الامبراطورى فيها ، قائلا إنه لم تكن هناك رقابة فعالة أو إدارة حازمة من قبل شارلمان وخلفائه . ولم يكن بوسع أى امبراطور ألمانى ممارسة سلطة فعلية فى ايطاليا إلا عندما يكون هو شخصيا مقيما فيها ، وتحت إمرته جيش ثابت مستعد لمواجهة أى طارىء . ولم يكن هذا الأمر ميسوراً بصفة دائمة ، ذلك أن الجيش الاقطاعي لم يـكن جيشا قائما منظما ، كما أنه ليس بوسع الامبراطور البعد عن عاصمته لفترات طويلة . وهذا يعني أنه كانت هناك نوبات قصيرة من الرقابة اليقظة فى ايطاليا ،

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص ٦٤ وما بعدها و ص ٧٩ وما بعدها .

تعقبهـا فترات طويلة من التكاسل والتراخى . وكان للظروف التى طبعها « الاقتصاد « الطبيعى » أثرها الواضح فى ذلك (١) .

ويعرض المؤلف بعد ذلك لموقف ايطاليا حيال كل من البابوية والدولة البيزنطية . فاذا نظرنا الى الأجزاء الايطالية الخاضعة لبيزنطة ، نجد أنها كانت تختلف عن مثيلاتهـا فى الغرب : ففيها سمات مجتمع قائم على أساس بيروقراطى مندمج مع نظام خاضع للاقتصـاد « الطبيعى » : ولم يـكن الاتصال بين تلك الأجزاء وبين الحكومة المركزية فى بيزنطة قويا فى يوم من الأيام . كما لم يكن بوسع بيزنطة إعادة البيروقراطية المدنية والعسكرية فى ايطاليا الى نفس المستوى الذى كانت عليه فى الامبراطورية الشرقية نفسها . وعندما أعيد تأسيس الإدارة البيزنطية فى جنوب ايطاليا أيام الامبراطور نقفور الثانى فوكاس (٩٦٣ — ٩٦٩) ، سعى الى إعادة التوازن بين البيروقراطية وطبقة ملاك الأرض . وأما فيما يتعلق بالجهات الخاضعة للنفوذ اللمباردى ، فقد تركت دون مساس . وكانت معفاة من الضرائب المباشرة ، ولو أن الالقاب البيزنطية وجدت طريقها إليها (٢) .

وأما عن المناطق الواقعة وسط ايطاليا ، فقد كانت البـابوية هى وريثة الإدارة البيزنطيـة فيهـا . ويتضـح هـذا فى نوع الإدارة البابوية واختصاصاتهـا ، وفى المحكمة البابوية ، وفى انزلاق البـابوية إلى الاقطاعية ،

---

(١) تعرض باراكلاف لهذه النـاحية بشيء من التفصيل فى الفصل الثالث من بحثه المترجم فى هذا الـكتاب .

(٢) أنظر الفصلين الثانى والثالث من بحث باراكلاف . راجع أيضـا
Moss, op. cit., 125 —131.

وفى الكفاح فى سبيل السلطة والنفوذ بين البيروقراطية البابوية وطبقة ملاك الأرض من العلمانيين . والواقع أن البابوات قد أهتموا منذ البداية بتكوين ملك دنيوى لهم وسط ايطاليا . ونجحوا فى ذلك نتيجة للظروف التى تتعلق بنهاية التاريخ القديم وبداية العصر الوسيط . وكان ملكهم يشمل بصفة عامة المنطقة الواقعة بين البحرين الأبيض والأدرياتيكى، وتدخل فى نطاقه عدة مدن من أهمها روما واربينو وبروجيا واسيسى وانكونا. ويلاحظ أن حضارة تلك المدن كانت حضارة زراعية ، ولم تشارك غيرها فيما بعد فى نشاطها التجارى أو الصناعى . وبقى النظام الاقطاعى قويا فى الدويلات البابوية حتى بعد أن انتهى من معظم أنحاء الغرب . ويرجع ذلك إلى موقف الكنيسة الجامد من التجارة النامية فى أوروبا فى أواخر العصور الوسطى ، فضلا عن عوامل أخرى عديدة . (١)

ويعدد هارتمان فى خاتمة بحثه أوجه الخلاف بين هذين النموذجين للدولة فى كل من الغرب والشرق ، مؤكدا أن أوجه الخلاف ترجع فى المكانة الأولى الى سياسة الاقتصاد « الطبيعى » التى سادت فى الغرب ، فى الوقت الذى أخذت فيه بيزنطة بسياسة الاقتصاد « النقدى » . ثم ينتقل إلى بيان النتائج

---

(١) أنظر عن ذلك المراجع التالية : M. W. Baldwin, The Medieval Church (1953), 46 — 58; G. G. Coulton, Medieval Panorama (1955), 25 ff., 34, 125, 131, 151, 172, 643 655; idem, Medieval Village, Manor, and Monastery (1960), 491-5; La Monte, op. cit., 392-4 - راجع أيضا كولتون : عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة ، ص ٨ ، ٢٩ و ٨٢ و ١٨٨ و ١٨٩ و ٢٣٠ و ٢٣٩ وما بعدها .

المترتبة على ذلك فى كافة المجالات الأخرى من سياسية واجتماعية وثقـافية وعسكرية وغيرها . وقد ظل الحال فى الغرب بصفة عامـة على ما هو عليه . فلم يتغير شكل الدولة إلا فى المناطق الايطالية التي تطور فيها البنيان الاقتصادى إلى اقتصاد « نقدى » ، مثل البندقية وامالفي وفلورنسا ودولة النورمان بجنوب ايطاليا . وكان ذلك فى أخريات القرون الوسطى .

هذا عن هارتمان وكتيبه ، أما جوفرى باراكلاف فقد تعرض لموضوع يعتبر فى الواقع امتدادا لموضوع زميله وتتمة له ، وهو « الامبراطورية فى العصور الوسطى : فكرة وحقيقة » . وكان هذا البحث فى الأصل محاضرة ألقيت فى الاجتماع السنوى للجمعية التاريخية بلندن فى ٦ ينـاير سنة ١٩٥٠ . وحولت إلى مقالة بعد إدخال تعديلات بسيطه عليها . وباراكلاف مؤرخ له مكانته بين مؤرخى العصور الوسطى . ومن أهم مؤلفـاته كتابه المعنـون « أصول المانيا الحديثة » " The Origins of Modern Germany " ، ومؤلفه « المانيا فى العصور الوسطى » "Medieval Germany " ، وبحثه عن امبراطورية العصور الوسطي الذى قمنا بنقله الى العربية فى هذا الكتاب .

والموضوع الذى تعرض له باراكلاف من الموضوعات الصعبة الشائكة المعقدة ، ويحتل مكانة بارزة فى التاريخ الأوروبى الوسيط . ولم يظهر فيه باللغـات الأجنبية سوى عـدد قليل من الـكتب . نذكر منهـا تآليف فيشر Fisher ، وجيركه Gierke ، وميتلاند Maitland ، وجيزيبرشت Giesebrecht ، وهان Hahn ، ورايت Wright ، وتسويمر Zeummer ، وتسيدل Zeydel ، وبرايس Bryce .(١) فضلا عن بعض المؤرخين المعنيين .

---

(١) أنظر قائمة المراجع المذيل بها الفصل الاول من بحث باراكلاف .

بتاريخ الفكر السياسي مثل كارليل Carlyle ، وايوارت لويس Ewart Lewis.
ولمؤلف برايس المعنون «الامبراطورية الرومانية المقدسة» أهمية كبيرة فيما نحن بصدده : ذلك أن ما كتبه ، وما توصل اليه من نتائج واستنتاجات ، يتفق إلى حد بعيد مع ما توصلت اليه أحدث البحوث التاريخية في هذا الشأن :

يتناول باراكلاف في الفصل الأول من بحثه كتاب جيمس برايس بالدراسة والنقد والتحليل . وهو يثنى على برايس ومنهاجه ومؤلفه ، وذلك على الرغم من اختلافه معه فى كثير من الآراء والنظريات المتعلقة بالفكرة الامبراطورية فى القرون الوسطى. فهو يرى أن فكرة برايس عن الامبراطورية فكرة غامضة غير واضحة قد تبعث فى ذهن القارىء انطباعات غير دقيقة : فالامبراطورية فى نظر برايس عبارة عن « مملكة عالمية » ، وانها هي والبابوية تكونان « رأس العالم المسيحى والمركز المعترف به فى هذا العالم». ويستطرد برايس قائلا بأنه يتعين اعتبار عام ٨٠٠ بداية « الامبراطورية الرومانية المقدسة » فى الغرب . ويختلف معه باراكلاف فى الرأى . ويقول إن أول مرة ظهر فيها اسم « الامبراطورية الرومانيةالمقدسة » لم يكن عام ٨٠٠ وإنما عام ١٢٥٤ . وكانت الامبراطورية قبل ذلك التاريخ تعرف فى الغرب بأسماء أخرى . ففى سنة ١٠٣٤ كانت تعرف باسم « الامبراطورية الرومانية » ، وفى سنة ١١٥٧ كان يطلق عليها اسم « الامبراطورية المقدسة» .
ويحاول المؤلف بعد ذلك تعريف الامبراطورية الغربية فى القرون الوسطى وبيان طابعها وماهيتها . ويجد نفسه وجها لوجه أمام السؤال التقليدى التالى : ماذا كانت تلك الامبراطورية إن لم تكن «الامبراطورية الرومانيةالمقدسة »؟

وهل يجوز تسميتها « الامبراطورية الغربيـــة » أو « امبراطورية العصور الوسطى »؟ ويرى أن هاتين التسميتين مضللتان بعيدتان عن الدقة والصواب . ذلك أن العالم الوسيط قد عرف عددا غير قليل من الامبراطوريات التي أطلق عليها الاصطلاح المذكور . كما أن اصطلاح « الامبراطورية الغربية» لم يرد ذكره إلا مرة واحدة فقط في الوثائق الرسمية ، وكان ذلك في الخطاب الذي بعث به شارلمان إلى ميخائيل الأول سنة ٨١٢ . ويخلص باراكلاف من تحليله ودراسته بأن امبراطورية العصور الوسطى لم تكن حدثا واحدا فقط ، وإنما هي سلسلة من الأحداث تختلف باختلاف الزمان والمكان ، وأن « قصتها قصة متقطعة غير متصلة » ، إذ عنت « أحداثا مختلفة وقعت في أزمنة مختلفة » . فامبراطورية القرن الرابع عشر مثلا تختلف عن امبراطورية القرن العاشر، وامبراطورية القرن العاشر كانت بدورها شيئا مغايرا لامبراطورية شارلمان ، وهكذا . وذلك بخلاف وجه نظر برايس الذي كان يرى في تاريخ الامبراطورية منذ بداية القرن التاسع حتى أوائل القرن التاسع عشر وحدة متصلة لا تنفصم . ويحاول المؤلف في الفصول التالية بيان الأدوار الرئيسية التي مرت بها تلك الامبراطورية منذ عام ٨٠٠ حتى مجيء آل هابسبورج . ويطالب بإعادة معالجة الموضوع معالجة واعية شاملة على ضوء ما استجد من أحدث البحوث التاريخية .

وهذا يقودنا إلى العودة قليلا إلى الوراء ، وبالتحديد إلى ما قبل انهيار الامبراطورية الرومانية القديمة . لقد تعرضت تلك الامبراطورية اعتبارا من القرن الثالث لأزمات عنيفة هدت كيانها وقوضت بنيانها . فهدد الفساد شتى النواحي من اجتماعية واقتصادية وعسكرية ودينية وإدارية . وعاث

البرابرة على حدود الدانوب والراين ، وكثرت إغاراتهم على تلك الحدود؛ وفقدت روما معظم قوادها الأكفاء فى المعارك التي خاضتها . ولم تعد الولايات التابعة لها تعتمد على حماية جيوش الامبراطورية لها ، بل على أهلها؛ وانتخبت قوادا وحكاما من بين رجالها دفاعا عن نفسها . وهكذا بات المجتمع الرومانى مهددا بالتفكك والانهيار من الداخل والخارج ، مما كان له أكبر الأثر فى التفكير فى نقل العاصمة من روما القديمة التى لم يعد بوسعها الوفاء بمطالب العصر ، وانشاء عاصمة جديدة تكون بمثابة « روما » ثانية أو «روما» جديدة . وهذا ما حدث بالفعل عندما أسس قسطنطين الكبير عاصمته القسطنطينية فى أوائل القرن الرابع عند التقاء البسفور ببحر مرمرة . وانتقل الاباطرة الرومان إلى عاصمتهم الجديدة تاركين روما لمصيرها المرتقب (١) .

أخذت روما تسير بخطى سريعة نحو الانهيار ، حتى إذا كانت سنة ٤٧٦ أعلن جندى من المتبربرين يسمى ادواكر القضاء على ظل الامبراطورية فى الغرب فى شخص آخر أباطرتها الضعاف وهو روميلوس اوجستولوس ، وأرسل شارات تلك الامبراطورية من روما إلى الجالس على عرش بيزنطة وقتذاك وهو الامبراطور زينو (٤٧٤-٤٩١) . وإن دل ذلك على شيء ، فهو يدل على انتهاء الامبراطورية الرومانية القديمة من ناحية ، وعلى أن شخصا

---

(١) C.Diehl, Histoire de l'Empire Byzantin(1920), I ff.; idem, Byzance, 4 ff.; Runciman, op. cit. , 11-29; A. H. M. Jones, Constantine and the Conversion of Europe (1961), ch. I, 1-16

راجع أيضا جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى (١٩٦٣) ، ص ٩٩ .

مثل ادواكر من أصل جرماني لم يستبح لنفسه اغتصاب لقب الامبراطورية الذي كان فوق طاقة الجرمان وعقليتهم . كما أنه يدل على أن النفوذ الأدبي للامبراطورية الرومانية في الشرق قد امتد إلى الغرب (١) .

وقد راودت فكرة إحياء الامبراطورية الرومانية القديمة عددا من الأباطرة البيزنطيين : فنجد الامبراطور جستنيان (٥٢٧-٥٦٥) يحاول إحياء تلك الامبراطورية باستعادة الأراضي التي انتزعها البرابرة منها . وتمكن بفتوحاته الكبيرة في الغرب من إعادة مجد الامبراطورية القديمة باسترداد مقاطعاتها الضائعة . فقضى على مملكة الوندال في افريقية الشمالية ، واستعاد ايطاليا من القوط الشرقيين . كما قضى على ملك القوط الغربيين في أسبانيا ، واقتطع الجزء الجنوبي الشرقي من مملكتهم وضمه الى بيزنطة . ولقد اجتذبت هذه الامبراطورية التي أسسها جستنيان الأنظار إليها . واعتقد المعاصرون له أن الامبراطورية الرومانية القديمة تم إحياؤها من جديد . وكيف لا وقد تمكن من غزو افريقية وأجزاء من أسبانيا ، بينما انهارت مقاومة القوط الشرقيين في ايطاليا ، (٢) وأصبح البحر المتوسط مرة ثانية بحيرة رومانية على حد قول المؤرخ ستيفن رنسيمان (٣) .

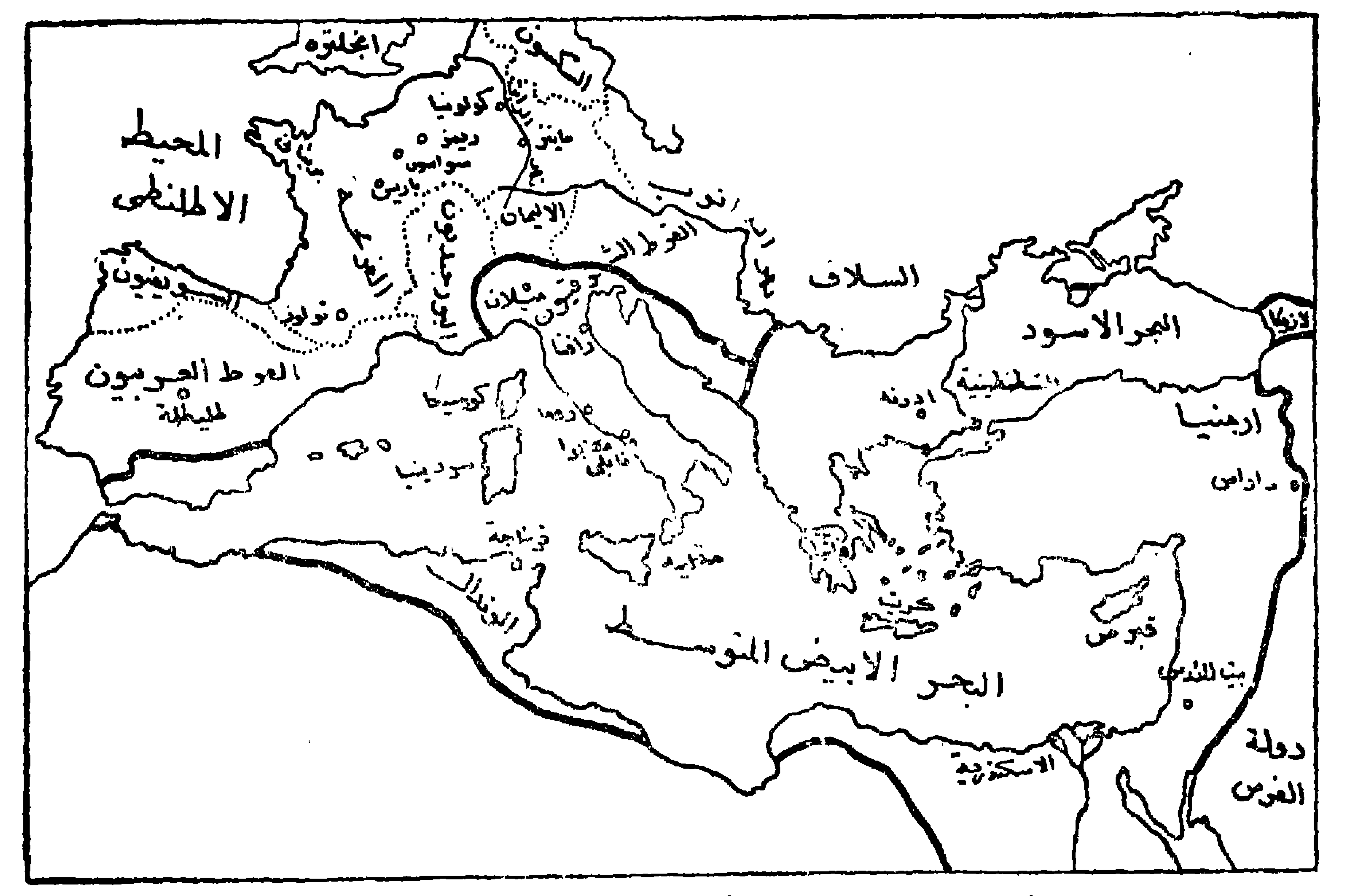
---

(١) أنظر: La Monte, op. cit., 38 ff.; Cantor, op. cit., 9 ff.; Katz, op cit., 92 ff.

(٢) انظر: P. N. Ure, Justinian and his Age (1951), 11 ff., 17 ff.; Ostrogorsky, op. cit., 63 ff. ; Baynes and Moss, op. cit., 7 ff., Moss, op. cit., 95-107

(٣) Runciman, Byzantine Civilisation, 36.

خريطة رقم (١)



امبراطورية جستنيان

ولكن الباحث المدقق فى مجريات الأمور والأحوال يدرك على الفور أن هذه الامبراطورية ، مع كل عظمتها ، لم تكن فى واقع الأمر إلا شبحا ضعيفا للامبراطورية الرومانية القديمة التى كانت قد أنتهت فعلا فى أواخر القرن الخامس بنزول البرابرة فى جوفها ، وتأسيس ممالكهم على أنقاضها ؛ فسرعان ما زالت امبراطورية جستنيان من الوجود بعد موته . اذ انكمشت حدودها الشرقية الى آسيا الصغرى والبلقان ، واستولى اللمبارديون على ايطاليا سنة ٥٦٨ ، وبات ممثل الامبراطور البيزنطى فى الغرب مجرد شبح لا حول له ولا طول. هذا بينما قامت الدولة العربية الفتية في أوائل القرن السابع بفتوحاتها الواسعة أيام الامبراطور هرقل (٦١٠ — ٦٤١) بهدف تأمين حدودها ونشر رسالتها ، ووضعت يدها على مصر والشام وشمال افريقية فالأندلس كلها . وهذا يعني أن المحاولات المستميتة اليائسة التي بذلها جستنيان فى سبيل إعادة مجد الامبراطورية الرومانية القديمة لم تؤت ثمارها . فقد أنهارت امبراطوريته بعد موته بفترة وجيزة : وسار كل من الشرق البيزنطى الهلليني والغرب اللاتينى الجرمانى فى طريق مغاير : ولم يكن هناك بد من ذلك (١) .

لقد دل هذا على أنه منذ أواخر حكم جستنيان لم يعد هناك أمل فى إحياء الدولة الرومانية القديمة التى قضي البرابرة عليها وعلى معالمها وحضارتها.

---

(١) أنظر Hussey, op. cit., 18—27; La Monte, op. cit., 53 ff., 65 ff.; E. Atiyah, The Arabs (1958), 32 ff.; Barker (ed.), Social and Political Thought in Byzantium, 27 — 8.
وكذلك جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ، ص ١١٩ والحاشية .

ورأت الدولة الرومانيـــة فى الشرق أن تنهج نهجـا جديدا يرتبط بالوضع الجغرافى للجزء المتبقى من الامبراطورية الرومانية ؛ أى أن تتجـه اتجـاها شرقيا بيزنطيا هللينيا طبقا لمقتضيات الظروف، وليس اتجاها غربيا لا تينيا . وفعلا نرى الأباطرة الذين جاءوا بعد جستنيان يتركون الغرب وشأنه ، وينصرفون الى الاهتمام بدولتهم الجديدة . اذ لم يعد باستطاعتهم الجرى وراء السياسة المتعلقة بإعادة توحيد الدولة الرومانية . هذا باستثناء أمثلة فردية قليلة لايصح اتخاذها كمقياس ثابت لاتجاه معين .

ويستمر الجفاء بين الغرب وبيزنطة ، وهو الذى بذرت بذوره منـذ أوائل القرن الرابع الميلادى ، إلى أن يقوم ليوالثالث الأيسورى (٧١٧ — ٧٤١) بحركته المعروفة ضد الأيقونات . وقد ترتبت عليها آثار بالغـة الخطورة فى ايطاليا؛ إذ ضعفت سلطة الامبراطورية البيزنطية فيها ، وأصبح ممثل الامبراطور فى روما مجرد شبح لا يملك نفعا أوضراً . ولم يتسن تدعيم السلطة الامبراطورية فيها بعد ذلك لقد أغتنمت بابوية روما هذه الفرصة لتثبيت نفوذها واستقلالها على حساب القسطنطينية . فقاوم البابوات حركة تحطيم الصور والتماثيل . وبلغ بهم الأمر أن تحالفوا مع اللمبارديين فى سبيل طرد الحاميات البيزنطية من جنوب ايطاليا . وتطور الأمر عنـدما أصدر البابا جريجورى الثـــانى (٧١٥ — ٧٣١) قرارا بحــرمان الامبراطور اللاأيقونى . وردليوعلى قرار حرمانه بحرمان بابوية روما من حقوقها وأملاكها فى صقلية وجنوب ايطاليا كما فصل عنها جميع الكراسي الاسقفية ، وحولها إلى بطريق القسطنطينية وكانت هذه الخطوة من جانبه عاملا يضاف الى العوامل السابقة . (١)

(١) أنظر Ostrogorsky, op. cit., 142, 146-7; Hussey, op. cit., 28 ff.

أخذت الامبراطورية البيزنطية تتباعد تدريجيا عن الغرب الجرمانى ، فى الوقت الذى أخذت فيه الحواجز الحضارية واللغوية والمـادية والمذهبية ، فضلا عن التباين الاقتصادى والاجتماعى ، تتعدد بين الجانبين ، حتى بات كل قسم ينظر إلى الآخر على أنه عدوه اللدود (١) .

وتزداد هوة الخلاف بين شقى العالم المسيحى اتساعا . وفى أواخر القرن الثامن يحدث تطور جديد فى الغرب له مغزاه وخطورته . إذ آلت مملكة الفرنجة فى ذلك الحين إلى الكارولنجيين وعلى رأسهم شارلمان . ويعتبر حكمه الذى امتد من سنة ٧٦٨ إلى سنة ٨١٤ من الفترات الهامة الحاسمة فى التاريخ الغربى الوسيط . فمن أهم مميزاته المزج التدريجى البطىء الذى تم بين التراث الرومانى القديم وبين حضارة الجرمان المتبربرين ، لانتاج مدنيـة جديدة لها طابعها الخاص . فضلا عما يرتبط بحكمه من إحياء الامبراطورية الرمانية المقدسة . وكان لشخصيته أثرها فيما حققه من نجاح يتضح فى اتساع رقعة دولته من ناحية ، وفى القضاء على البقية الباقية من نفوذ بيزنطة وممثلها فى الغرب من ناحية أخرى :

كان هـدف شارلمان أن يبسط سلطانه علـى الغرب الأوروبى كله : وأحرز فى ذلك نجاحا كبيرا يتمثل فى مد نفوذه غربا على فرنسا وشرقا على أواسط أوروبا . كما وصـل نفوذه الأدبى إلى جنوب إيطاليا . فضلا عن حروبه المعروفة ضـد العرب فى أسبانيا . وليس من السهل تتبع تاريخ حروب شارلمان بالتفصيل ، لأنه أمر يطول شرحه . ولكن إذا استعرضنا

---

(١) Barker . op cit., 27-8 - راجع أيضا جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ، ص ٩٣ — ١٠١ .

جانبا منها بإيجاز ، نجد أن من أهمها الحملة التي قام بها سنة ٧٧٣ تلبية لاستغاثة البابا أدريان الأول (٧٧٢ — ٧٩٥) ضد ملك اللمبارديين الذي كان قد استولى على بعض المدن الواقعة في وسط ايطاليا، والتي كانت تخضع للبابوية منذ أيام ببن القصير . وقد سارع شارلمان لإغاثة البابا أدريان . فاجتاز جبال الألب ، ونزل بسهول لمبارديا وشتت شمل القوات اللمباردية . وانتهى الأمر بعزل ملك اللمبارديين نفسه ، ونقل ملكية أجزاء واسعة من سهول لمبارديا التي كانت تخضع للملك المعزول إلى حكمه . كما أعطى البابا جزءاً من تلك البلاد عند ماقام بزيارته فى روما . وحدث فى تلك الأثناء أن تخلص البابا أدريان من التدخل الواهن لبيزنطة في إيطاليا عندما أعلن طاعة روما ، ولو من الناحية الشكلية النظرية ، لشارلمان بدلا من ممثل الامبراطور البيزنطي. واقتصر حكم بيزنطة فى الغرب على الطرفين الجنوبيين من إيطاليا، وهما أبوليا وكالابريا ، بالإضافة إلى صقلية .

وعلى أية حال ، فقد كان لنجاح شارلمان فى حروبه واتساع رقعة أملاكه أثره فى التفكير فى إنشاء الامبراطورية الرومانية المقدسة فى غرب أوروبا . وسنحت له الفرصة عندما دعاه البابا الرومانى ليو الثالث (٧٩٥ — ٨١٦) إلى روما فى أواخر سنة ٨٠٠ ليفصل بينه وبين منافسيه حول المساحات التي كانت تخضع للبابوية دينيا ودنيويا . وسارع شارل بإجابة البابا الى طلبه والحكم فى صالحه ضد جميع خصومه . واعترافا من البابا بجميل شارلمان عليه ، فقد ألبسه التاج فى ليلة عيد الميلاد من السنة المذكورة . وهكذا تم إحياء الامبراطورية الرومانية الغربية المقدسة ، وأصبح

شارلمان بموافقة البابا ومباركته خليفة القياصرة الأقدمين (١) . وتم ذلك فى فترة حكم الامبراطورة البيزنطية إيرين (٧٩٧ — ٨٠٢) ، فكان إيذانا بفصم الارتباط الواهن الذى ظل قائماً بين روما والقسطنطينية منذ أيام الامبراطورية القديمة . ومنذ ذلك الحين أصبحت توجد امبراطورية غربية بجانب الامبراطورية الرومانية الشرقية ، أو الامبراطورية البيزنطية بمعنى أدق وأوضح فى التعبير (٢) .

وإذا تعمقنا فى الأمور سوف ندرك أن تتويج شارلمان إنما يرجع إلى ظروف عديدة بعضها مباشر وبعضها غير مباشر . فمن الأسباب المباشرة حروبه الناجحة ، وتوسعه الكبير فى أوروبا ، وتأسيسه أمبراطورية عظيمة لم يكن يحمل حاكمها لقب الامبراطور فيها . وكذلك تدخله فى شئون ايطاليا ، ومساندته البابا ضد منافسيه . أما عن الأسباب غير المباشرة فمردها الامتزاج التدريجى المستمر بين العنصر الرومانى القديم والعنصر التيوتونى الجديد ، ذلك الامتزاج الذى نتج عنه تلك الامبراطورية التى كانت رومانية وجرمانية فى نفس الوقت .

وجدير بالذكر أنه نشأت حول تأسيس امبراطورية شارلمان نظريات عديدة معقدة . منها تلك التى تقول بأن شارلمان كسب تاجه بالانتصارات

---

(١) انظر هـ . و . ك . ديفز : شارلمان (١٩٥٩) ، ص١٦٨-١٨١، وكذلك:
La Monte, op cit., 155—8 ; N. Downs (ed.), Basic Documents in Medieval History (1959), 26—27.

(٢) انظر رنسيمان : الحضارة البيزنطية ، ص ٤٤ ؛ جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ، ص ٩٧ .

الحربية التي أحرزها فى الغـــرب ، ومصـــدر هذه النظرية هو الحـــزب الامبراطورى . وهناك نظرية أخرى تقول بأن البابا بوصفه خليفة القديس بطرس فى شئون الدين والدنيا ، قد مارس حقـــه فى عزل ممثل الامبراطور البيزنطى فى الغـــرب ، وفى منح تاج الامبراطورية الغربية الى شارلمان . ومصدر هـــذه النظرية بطبيعة الحال هو الحزب البابوى . بينما يقول فريق ثالث بأن شعب روما هو الذى استعمل حقه القـــديم فى انتخاب شارلمان امبراطورا . ولعل أقرب هذه النظريات الى الصحـــة والواقع هي النظـرية الأولى القائلة بأن شارل العظيم كسب تاجه بسيفه . وهذا صحيح ، إذ تمكن بالسيف من نشر نفوذه على المقاطعات الرومانية القديمة من بحر الشمال الى البحر المتوسط ، ومن حدود البرابرة فى شرق أوروبا إلى المحيط الأطلسي فى الغرب(١) . والخلاصة أن اعتلاء شـــارلمان عرش الامبراطورية ، وتتويجه ليـــلة عيد الميلاد من سنة ٨٠٠ ، هو خاتمة طبيعيـــة لنشاطه الفائق وفتوحاته الواسعة وكان تدخل البابا وقتذاك تدخلا روحيا فحسب ، وذلك حتي يضفى على حكم شارلمان الدنيوى صبغة شرعية دينية .

لم يتعرض باراكلاف لهذه التفاصيل التى لا يتسع لها حيز المقال ، مكتفـيا بابراز النتائج المترتبة على تتويج شارلمان . لقد أثار هذا الحدث الكثير من الجدل والخلاف بين المؤرخين والمعنيين بالفكر السياسي وفلسفته فى العصور الوسطى . فاعتبره برايس بداية الامبراطورية الرومانية المقدسة . واختلف باراكلاف معه فى الرأى ، قائلا بأنه لم تكن هناك آنذاك سوى امبراطورية

---

(١) E. Lewis, Medieval Political Ideas (1954) II. 432, 435, 438 , 440 , 453 , 460 — 2 , 467 — 8 , 500 — 2 , 509 ; La Monte, op. cit., 155 ff. ; Cantor , op. cit. , 133 ff.

واحدة فقط هي الامبراطورية الرومانية التي كانت قائمة فعلا، والمقصود بها الدولة البيزنطية . ولم تكن هناك أى فكرة تتعلق بتأسيس امبراطورية جديدة في الغرب ، منذ سقوط الامبراطورية الرومانية القديمة وقيام ممالك الجرمان . وكان كل الذى حدث هو انتخاب امبراطور آخر فى ذات الامبراطورية القائمة .

وكيفما كان الأمر ، فقد ترتب على إحياء الامبراطورية فى الغرب قيام المنافسة والعداء بينها وبين الامبراطورية الرومانية فى الشـــرق : ذلك أن الفكرة الامبراطورية كانت تقوم من الناحية النظرية على وحدة الامبراطورية، أى على وجود امبراطورية واحدة ـ تلك هى الامبراطورية الرومانية فى الشرق وريثة روما القديمة . ولكن الذى جرى هو أن تأسست امبراطورية أخرى فى الغرب، مما أدى إلى إثارة عوامل الحقد والبغضاء بين الامبراطوريتين بسبب تشابك مصالحهما ، وبخاصة فى الجنوب الايطالى ويتضح هذا بجلاء فى المفاوضات التى دارت بين الطرفين أيام شارلمان وخلفائه من أجل إيجاد تسوية سلمية للمشكلة ، وفى تردد الرسل والمبعوثين بين القسطنطينية وآخن . لقد كانت بيزنطة تنظر إلى المنافس الغربى فى أنفه وازدراء وكبرياء . فهو، فى نظرها ، دون الامبراطور البيزنطى مكانة . بل هو ليس امـــبراطورا ، ولا هو رومانيا ، وانما مجرد ملك جرمانى .

ولعله من المفيد إلقاء نظرة سريعة على موقف الحكومة البيزنطية من الامبراطورية الغربية وقتذاك: لقد تجاهل نقفور الأول (٨٠٢ - ٨١١) تماما ادعاء شارل العظيم فى اللقب الامبراطورى ، ولم يعترف به وأبدى عداء صريحا حيال منافسه الحاكم الكارولنجى والبابوية التى ساندته وأيدته .

هذا بينما كانت قوة شارلمان آخذة فى الازدياد والنمو حتي امتدت إلى عدد من المقاطعات البيزنطية . فأخضع استريا وبعض مدائن دلماشيا . وطرأ على سياسة بيزنطة فى عهد ميخائيل الأول (٨١١ - ٨١٣) كثير من التغيير . لقد كانت حكومة ميخائيل على استعداد للاعتراف بسلطة شارلمان الامبراطورية مقابل استعادة جانب من الأراضى التي استولى عليها . والواقع أنه وجدت اعتبارا من عام ٨١٢ امبراطوريتان مستقلتان عن بعضهما تماما ، احداهما شرقية والأخرى غربية . مع ملاحظة أن الامبراطور الغربى كان يعرف حتي ذلك الحين باسم « امبراطور » فحسب، وليس «الامبراطور الرومانى». وقد تحاشي شارلمان نفسه بأن يلقب بـ « امبراطور الرومان » . هذا بينما أصر البيزنطيون على أنهم هم فقط أصحاب الحق الشرعى والقانونى فى هذا اللقب . كما أصروا على وجود فارق بين الامبراطور الغربى وبين الامبراطور الأوحد للرومانيين المقيم فى القسطنطينية . إذا كان الارتباط بروما شرطا أساسيا وجوهريا فيما يتعلق بفكرة العصور الوسطى عن الامبراطورية . لقد اعتبرت بيزنطة نفسها امبراطورية رومانية . وبالمثل كانت الامبراطورية الغربية مرتبطة بروما عن طريق البابوية ، ولو أن هذا الارتباط لم يتأكد بصفة نهائية الا أيام أوتو الكبير وخلفائه . لكل هذا اعتبر إحياء الامبراطورية أيام شارلمان بمثابة تحد واضح للحق الذى كانت تتمتع به الامبراطورية البيزنطية فى الارث الرومانى . ولكن تفكك امبراطورية شارلمان بعد موته ، وتجدد اطماع بيزنطة ، جعل بوسع حكام القسطنطينية المتأخرين تجاهل الاعتراف البيزنطى بامبراطورية الغرب الذى تم سنة ٨١٢ .

وجدير بالذكر أن رفض نقفور الأول الاعتراف بشارلمان ، ثم اعتراف ميخائيل الأول به ناقضا بذلك سياسة سلفه ، لا يرجع الى الاختلاف الواضح

بين هاتين الشخصيتين فحسب ، وانما يعزى إلى الظروف التي استجــدت على مسرح الأحداث نتيجة لكارثة سنة ٨١١ . إذ جعلت مشاكل البلقان من الصعب على الدولة البيزنطية مواصلة كفاحها ضد الغرب . فقد نالت الهزائم المتكررة التى حلت ببيزنطة على أيدى البلغار ، من مكانة الامبراطور ميخائيل وهيبته . فكان على استعداد لتغيير السياسة البيزنطية حيال منافسه الغــربى ، وتقديم بعض التنازلات فى هذا الشأن (١) .

لقد تناول باراكلاف هذه المشكلة المعقدة بالبحث و التحليل . فيقــول إن احداث عام ٨٠٠ قد تمت داخل نطاق الامبراطورية الرومانية القائمة فى الشرق ، وانحصر الخلاف وقتها فى شخص الامبراطور دون الامبراطورية؛ ويحلل تلك الأحداث تحليلا دقيقا، مبينا الدور الخطير الذى قامت به البابوية، وموقف كل من بيزنطة وشارلمان حيال الآخر خلال السنوات القليــلة التى أعقبت حفل التتويج . ويخلص من ذلك أن شارلمــان لم يكن امبراطورا رومانيا ، ولم يكن الامبراطور الأوحد ، ولم يؤسس الامــبراطورية الغربية فى القرون الوسطى ، وأن الدولة التي شيدها قد ذهبت معه إلى القبر ، مستدلا على ذلك بسلسلة الأحداث التى كان الغرب مسرحا لها بعد موته :

لقد أخذت امبراطورية شارلمان فى التصدع بعد موته سنة ٨١٤ ، بسبب العودة إلى التقاليد الجرمانية القديمة الخاصة بتقسيم الملك أنصبة بين أبناء الملك باعتباره إرثا شخصيا له يوزع على ورثته من بعده : وخلف شارلمان ابنــه

---

(١) Ostrogorsky, op. cit., 175-7 ـ وفيما يتعلق بالفكرة الامبراطورية وآثارها، انظر ديفز: شارلمان، ص١٨٢ ـ ١٩٣؛ وكذلك Lewis, op. cit., II ch. VII, 430—505 ; Moss, op. cit., 222 ff.

لويس الصالح (٨١٤ - ٨٤٠) الذى قسم دولته عام ٨١٧ بين أبنائه الثلاثة. وكثيرا ما كان يحابي ابنه الأصغر على حساب أخويه الكبيرين، حتى أنه بعد موته نشبت حرب دامية بين الاخوة الثلاثة انتهت بمعاهدة فردان سنة ٨٤٣ التي انقسمت الامبراطورية بمقتضاها إلى ثلاثة أقسام : القسم الغربي ويشمل فرنسا ، والشرقى ويشمل ألمانيا ، والقسم الثالث عبارة عن ممر طويل بينهما يشمل مقاطعات فريزيا ولوثار نجيا وبرجنديا وبروفانس ولمبارديا وبقية ايطاليا من بحر الشمال إلى البحر المتوسط : ويحمل المتولى على هـذا القسم الأخير ، وهو لوثير حفيد شارلمان، لقب الامبراطور . وتنقرض مع الزمن أسرة لوثير ، وتذهب أملاكها إلى ممثلى الأسرتين الباقيتين . وتظل الامور غير مستقرة فترة من الوقت إلى أن تقوم أسرة كابيه بفرنسا (٨٨٨ -١١٣٧) وأسرة السكسون بألمانيا (٩١٩ - ١٠٥٦) . وبقيام الأخيرة تنبعث الفكرة الامبراطورية من جديد فى وقت اشتد فيه ساعد البابوية . وينتقل ميدان الكفاح مع بيزنطة والبابوية من أبناء شارلمان إلى خلفائه السكسون :

ويتتبع باراكلاف فى بحثه تاريخ اللقب الامبراطورى منذ وفاة شارلمان حتي تجديد الامبراطورية أيام أوتو الكبير . فيقول إن اللقب المذكور لم يكن له أى أهمية بالنسبة للفرنج ، وإن المنصب الامبراطورى كان مجرد منصب شخصى ، وإن فكرة وجود امبراطورية فرنجية أو كارولنجية إنما هى خرافة نابعة من خيال المؤرخين الحديثين،ولا مكان لها فى الحقائق التاريخية : ويرى أن الحروب المتوالية والمنازعات والمنافسات بـين أعضاء البيت الكارولنجى ، والتقسيمات العديدة فى امبراطورية شارلمان ، كان لها أثرها الواضح فى انكماش رقعة الأرض التي يحكمها الامبراطور الألمانى ،وبالتالى فى تضاؤل اللقب الامبراطورى نفسه ، حتي انتهى الأمر باندثاره سنة ٩٢٤،

« لخلوه من القوة الدافعة ومن التعبير عن أى مبدأ فعال». وأخيرا فى سيطرة البابوية على هذا اللقب ، وماترتب على ذلك من اعادة تجديد الصلة بين الامبراطورية وروما .

وكيفما كان الأمر ، فقد كان أول ملوك الأسرة السكسونية هو هنرى الأول الصياد (٩١٩ - ٩٣٦) .ولتاريخه أهمية خاصة ،لأنه واضع أسس السياسة الألمانية فى الميدانين الداخلى والخارجى ، التى سار عليها أبناؤه من بعده ؛ ولقد ظل هنرى طيلة حكمه ملكا وليس امبراطورا. وكان من نتيجة السياسة التى اتبعها استتباب الأمن والسلم بالمانيا ، مما هيأ الظروف لابنه أوتو الكبير للعمل على تجديد امبراطورية شارلمان .

لقد جنى أوتو الأول (٩٣٦ - ٩٧٣) ثمار جهود أبيه ؛ وتابع سياسته بنجاح . وكان أهم حدث فى تاريخه هو تجديده للامبراطورية الرومانية المقدسه التي أسسها شارلمان . وتم ذلك ، كما تم فى عهد شارلمان ، عن طريق التدخل فى الشئون الايطالية ، ذلك أن أدليد Adelaide وارثة عرش برجنديا ولمبارديا بايطاليا طلبت من أوتو مساعدتها ضد عدوها برنجار مركيز فريولى . وكانت هذه فرصة طيبة أتيحت له إذ نزل فيها وراء جبال الألب جنوبا ، وقضي على سلطان برنجار . ثم تزوج من أدليد ؛ وبذلك ضم أملاكها فى ايطاليا إلى أملاكه الألمانية ، وأصبحت له قدم فى ايطاليا الشمالية . وهو أمر كان يسعى حثيثا إلى تحقيقه .

أما المناسبة الثانية فكانت عندما طلب البابا يوحنا الثانى عشر (٩٥٥-٩٦٤) ورجال الدين من الامبراطور الألمانى التدخل بينهم وبين برنجار الذى أخذ فى مضايقتهم . ولبي أوتو الدعوة ، كما لبى شارلمان دعوة البابوية من قبل ؛ وتوجه مسرعا إلى روما التي دخلها ظافرا سنة ٩٦٢ . وكانت مكافأته أن

توجه إليه البابا يوحنا شاكرا مهنئا عارضا عليه تاج « الامبراطورية الرومانية المقدسة » التي أسسها شارلمان. وقبل أوتو التاج شاكرا . وهكذا تجددت الامبراطورية تحت اسم « الامبراطورية الرومانية المقدسة الغربية المجددة » .

وكما ثارت النظريات حول امبراطورية شارلمان ، كذلك قامت نظريات عديدة مماثلة حول امبراطورية اوتو المجددة وغير خاف أن تجديد الامبراطورية كان نتيجة لنشاط اوتو الكبير ، وتدخله فى ايطاليا لصالح البابوية . وكان منح البابا التاج له مجرد إجراء شكلى قصد به إضفاء صبغة دينية على حكمه العلمانى (١) .

وكما مر باراكلاف سريعا على الأحداث التاريخية والسياسية التي أدت إلى إحياء الامبراطورية أيام شارلمان ، كذلك فعل بالنسبة لامبراطورية اوتو المجددة . فهو يترك كل هذا ليدلى بدلوه مرة أخرى فى مشكلة الفكرة الامبراطورية وآثارها . يقول إن الامبراطورية عاشت بعد موت شارلمان وانهيار دولته كفكرة فى أذهان الناس ، وإن هذه الفكرة هى فى الحقيقة الحلقة التى ربطت بين امبراطورية شارلمان فى القرن التاسع وامبراطورية اوتو المجددة فى القرن العاشر . ولقد عمل اوتو منذ البداية على إضفاء معنى وغاية على الامبراطورية واللقب الامبراطورى . ولهذا قامت سياسته على أن يضمن لنفسه ولأسرته من بعده نصيب الأسد فى المملكة الكارولنجية المشتتة . ومع ذلك لم تكن امبراطورية اوتو رومانية ، وكان لقبه التقليدى هو « الامبراطور

(١) أنظر La Monte , op. cit., 161—6, 170 — 5

العظيم » ، دون أن يرد فى ألقابه ذكر لروما : كما لم تؤد جهـــوده الى توحيد أراضيه فى وحدة اقليمية واحدة . إذ ظل اوتو بعد تتويجه عام ٩٦٢ ملـكا على المانيا ولمبارديا فحسب . ولكن كان من أهم النتائج التى ترتبت على تدخله فى الشئون الايطـالية ، هو أن أصبح وجها لوجه أمام البـابوية فى روما :

لقد ظل اوتو الأول « الامبراطور العظيم » . ولكن خليفته اوتو الثـانى سعى سعيا حثيثـــا إلى « أرومة » الامبراطورية الغربية ، وأصبـــح لقبه « الامبراطور الرومانى » . أما اوتو الثالث فقد تميزت سياسته الرومانية بحمقهـا . ومع كل ذلك لم تـكن الامبراطـورية « رومانية » بالمعني الضيق المفهوم من هذا الاصطلاح : وكان ذكر إسم « الامبراطورية الرومانية » فى أى استخدام رسمى فى عهد خلفه هنرى الثـانى يعني المنصب الامبراطورى فحسب . وفى عهد كونراد الثانى ظهر اسم « الامبراطـورية الرومانية » فى المراسيم باعتباره اصطلاحا يتعلق بالأراضى الواقعة تحت حكمه : وهو يدل على رسوخ الامبراطـــورية فى شكل كتلة اقليمية ، وعلى ارتبـــاط اللقب الامبراطورى بالأرض نفسها . وفعلا نجد أنه منذ عام ١٠٣٤ يصبح اسم « الامبراطـورية الرومانيـة » هو الاسم الرسمى الذى يطلق على الأراضي الخاضعة لحـكم الامبراطور ، وهى المانيا وبرجنديا وايطاليا . وفى عام ١٠٤٠ يظهر اللقب الجديد « ملك الرومان» مرتبطا بالأرض نفسها . ويمثـل حـكم هنرى الثالث ، بصفة خاصة ، مرحلة حاسمة فى هـذا الشأن : لقـد أصبحت الامبراطورية تعبر عن وحدة اقليمية محددة واضحة المعالم : واستمرت هكذا حتي نهاية حكم أسرة هوهنشتاوفن سنة ١٢٦٨ .وجدير بالذكر أن الامبراطورية أصبحت منذ عهد فردريك الأول تعرف باسم « الامبراطورية المقدسة » :

ولـكن ذلك يرجع في الواقـع لأسباب دبلوماسية تتعلق بتعزيز موقف الامبراطـورية فى نزاعها المعروف ضد الـكنيسة والبابوية . ولقد صدق باراكلاف عندما وصف الامبراطورية بأنها كانت « رومانية » فى معنـاها الضيق ، و « المانية »فى حقيقتها وجوهرها.

سبق أن ذكرنا أن من أهم آثار تجديد الامبراطورية فى عهد اوتو الكبير. هو اهتمام السياسة الالمانية بالشئون الايطالية،ومحاولة الاباطرة الالمان تدعيم سلطانهم على ايطاليا مما أدى إلى اصطدام المـانيـا بالدولة البيزنطية . كذلك ترتب على تجديد الامبراطورية اصطـدام مصالح المانيا بمصالح الـكنيسة والبابوية فى ايطاليا ، ذلك الصدام الذى يميز بداية الكفاح المرير بين البابوية والامبراطورية فى سبيل السيادة العلمانية .

وليس هنا مجال الدخول فى تفصيلات هذا الكفاح الذى شغل أكثر من ثلاثة قرون من الزمان . وإنما يكفى القول أنه مر بعـدة مراحل رئيسية ، كانت أولاها عنـدما أذل البـابا جريجورى السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٥) الامبراطور هنرى الرابع (١٠٥٦ - ١١٠٦) فى حادثة كانوسا الشهيرة سنة ١٠٧٧ . وتتميز المرحلة الثانية بعقد اتفاقيةورمز سنة ١١٢٢ بين الامبراطور هنرى الخامس (١١٠٦ - ١١٢٥) والبابا كاليكستس الثانى (١١١٩-١١٢٤) لحل مشكلة التقليد العلمانى . وتنتهى المرحلة الثالثة باذلال البابا اسكندر الثالث (١١٥٩ - ١١٨١) للامبراطور فردريك الأول باربا روسا(١١٥٢- ١١٩٠) سنة ١١٧٧ . وتصل البابوية ذروة قوتها أيام البابا انوسنت الثـالث(١١٩٨ - ١٢١٦) الذى يعتبر من أقوى شخصيات العصور الوسطى . ففى عهـده

بلغت البابوية أوجها ، وأصبحت الامبراطورية هى والقوى العلمانية الأخرى فى الغرب تحت رحمتها ونفوذها ويستمر هذا الصدام خلال القرن الثالث عشر بين الامبراطور فردريك الثانى (١٢١٢ - ١٢٥٠) والبابوية فى عهد كل من جريجورى التاسع (١٢٢٧ - ١٢٤١) وانوسنت الرابع (١٢٤٣- ١٢٥٤)(١). وقد صدق أحد المؤرخين الغربيين الحديثين ، وهو هارولد لامب(٢) ، عندما أطلق على هذه الفترة المضطربة من تاريخ اوروبا لفظ « السنوات السوداء » لما تخللها من حوادث رهيبة دامية اهتز لها كيان العالم الاوروبى فى ذلك الحين :

لقد كان هذا الكفاح مثارا لكلام المتكلمين وفلسفة المتفلسفين من مفكرى العصور الوسطى : ونشأت حوله نظريات عديدة معقدة روجها أصحاب المصالح من دعاة البابوية لتكون سندا لتدعيم سلطانها فى نظر الناس ليس فقط

---

(١) حول الصراع بين البابوية والامبراطورية ؛ أنظر : S. Mathews, Select Mediaeval Documents (1900), 122—9, 132—41 ; A. E. Mckilliam, A Chronicle of the Popes (1912), 308—9; W. Stubbs, Germany in the Early Middle Ages (1908), 220—1, 223; idem, Germany in the Later Middle Ages (1908) 38—40 , 44 ; T. F. Tout, The Empire and the Papacy (1909) , 367—9 ; La Monte, op. cit., 257—74 , 391—4 ; Cantor , op. cit., 186—98; Baldwin, op. cit., 85—9 ; Lewis, op. cit., I. 165—8, II. 509—15, 558-66, Downs, op. cit., 57—71 .

(٢) H. Lamb, The Crusades (1931) , 283—4.

على أساس ديني ، وإنما على أساس علمى وقانونى كذلك(١).

ومن أهم هذه النظريات « نظرية الوحـدة » « Theory of Unity » التي تنص على أن العالم المسيحى عبارة عن وحدة اجتماعية كبرى لها دين واحد هو الدين المسيحي على مذهب روما الكاثوليكى ، ولها لغة رسمية واحـــدة هى اللغة اللاتينية ، وكنيسةواحدة هي كنيسة روما ، وحكومتها العلياواحدة؛ ويأخذ بناصيةالدين فىهذا المجتمع البابا ، بينما يقوم الامبراطور بملك الدنيا . وكل من العاهلين يسهر مع الآخر للعمل على مصلحة العالم المسيحى : ولـكن لما كان الدين فى هـذه الوحدة الكبرى هو الأول والأســاس ، لذا يـكون الامبراطور فى مركز يلى البابا من حيث القوة والنفوذ ، وتكون البابوية فى مرتبة أسمى من الامبراطورية .

---

(١) فيما يتعلق بالمصادر والمراجع التى تبحث فى الفكر السياسى فى العصر الوسيط ، انظر L. J. Paetow, A Guide to the Study of Medieval History (1931),517—24 ـ هذا ونجد دراسات قيمة عن الفكر الوسيط وفلسفته ، والنظريات التي قامت حول الكفاح بين البابوية والامبراطورية فى المراجع العربية والمعربة التالية : سعيد عاشور : اوربا العصورالوسطى ، ج ١ (١٩٥٨) ، ص ٢٥٩ وما بعدها وج ٢ (١٩٥٩) ص١٨٤ ومابعدها، سعيد عاشور ومحمد أنيس : النهضات الاوربية فى العصور الوسطى وبداية الحديثة (١٩٦٠) ، ص ٢٠٠ وما بعدها . ديفز : اوربا فى العصور الوسطى، ص ٥٨ وما بعدها ؛ هـ . ا . ل فشر: اوربا فىالعصورالوسطى، ج١(١٩٥٠)، ص ١٣٩ وما بعدها ؛ ج . سباين : تطور الفكر السياسي ، ج ٢ (١٩٦٤)، الفصول من ١٢ إلى ١٦ ، ص ٣٢٠ — ٤٥٥، والفصولمذيلة بقوائمبالمراجع الهامة فى الموضوع ، ابراهيم احمـد العدوى : المجتمع الاوربى فى العصور الوسطي (١٩٦١)، ص ٩١ وما بعـدها ؛ وهيب ابراهيم سمعان : الثقافة والتربية فى العصور الوسطي (١٩٦٢) ، ص ١١ وما بعدها .

وهناك نظرية ثانية تعرف باسم « نظـرية السيفين » « Theory of the Two Swords» . وخـلاصتها أن الله سبحانه وتعالى له ملك الدين والدنيا، وبيده سيفان مسلولان ، أحدهما يمثل سـلطانه على الأرواح ، والآخر يمثـل سـلطانه على الأبدان . أى أن أحد السـيفين يقوم على الحـكومة الدينية Sacerdotium ، بينما يقوم الآخر على الحكومة العالمية أو الزمنية Regnum. وبعد انتشار المسيحية فى روما على يد القديس بطرس أحد تلامذة المسـيح ، سلمه الله كلا هذين السيفين . فأعطى بطرس سيف الأرواح للبابا ، وسـيف الأبدان للامـبراطور . ولما كانت الروح تفوق الجسـد فى تلك الأزمـان ، التى هيمنت فيهـا الكنيسة فى الغـرب على مصـائر النـاس ومقدراتهم فقد ترتب على ذلك تفوق البابوية على الامبراطورية .

ومن ابتداعات ذلك العصر النظرية التي تعرف باسم « هبـة قسـطنطين» Donation of Constantine . وتتلخص فى أن بعض المتحمسـين للبـابوية ذكروا أن الامبراطور قسطنطين الكبير (٣٠٥—٣٢٧) قد ابتلى بمرض الجذام الذى لم يشف منه إلا بصلوات البابا سلفستر الأول (٣١٤—٣٣٥) . فكافأه قسـطنطين على نعمته بإصدار قانون يبيح للبابا لبس التاج واستعمال الصولجان كالأباطرة تماما . كما منح الأساقفة وكبار رجال الدين فى روما نفس الامتيازات التي كان يتمتع بها شيوخ الامبراطورية القديمة . وحتى لا تتأثر سـلطة البابا بوجود شخص الامبراطور فى روما ، فقد تركها قسطنطين للبابوات، وشيد لنفسه عاصمة جديدة فى الشرق عند التقاء البسفور ببحر مرمرة ، ألا وهى القسطنطينية . ثم عهد للبابوات بحكم روما وايطاليا كلها .

وجدير بالذكر أن البابوات الأولين أمثال جريجورى الـكبير قد تجاهلوا الهبة المذكورة باعتبارها خرافة لا تمت إلى الحقيقة بصلة : إلا أنها أصبحت

بعد ذلك فى مأمن من الطعن فيها حتى أواخر القرون الوسطى حين ثبت زيفها واختلاقها : فقد قام بتفنيدها تفنيدا علميا دقيقا شخص يدعى لورنسو فالا Lorenzo Valla سنة ١٤٤٠ : وثبت تاريخيا أن هجر روما وتأسيس القسطنطينية فى أوائل القرن الرابع لا شأن له إطلاقا بتلك الهبة المزيفة : إنما هو يرتبط ارتباطا وثيقا بعوامل انهيار الامبراطورية الرومانية وسقوطها، والتى تنحصر فى التفكك الإدارى والفوضى المالية والتدهور الاقتصادى وانغماس الرومان فى حياة الترف والملذات ، مما حدا بالأباطرة إلى التفكير فى نقل العاصمة إلى مكان آخر يكون أكثر أمنا وسلاما ، بل يكون بمثابة روما جديدة تحل محل روما القديمة الواقعة فى منتصف البروز الايطالى، والتي لم تعد تفى بمقتضيات العصر (١) :

---

(١) فيما يتعلق بهذه النظريات أنظر كولتون : عالم العصور الوسطى، ص ٢٠٠ — ٢٠١ ؛

W. Ullmann, Principles of Government and Politics in the Middle Ages (1961), lll n. 1, 112 n. 3; La Monte, op. cit., 177, 254; Lewis, op. cit., 1. 262, II. 435, 438, 444, 447, 453, 463, 513, 517, 532, 561, 619 n. 10 — ومن أهم المجموعات التي تضمنت مثل هذه المراسيم البابوية التى ثبت زيفها فيما بعد مجموعة الراهب الرومانى ديونيسيوس اجزيجيوس حوالى سنة ٥٠٠ ، ومجموعة ايزيدور ميركاتور ، ومجموعة جراشيان، ومجموعة البابا جريجورى التاسع . ومن أشهر من قام بتحليل تلك الوثائق المزيفة ونقدها نقدا علميا ساميا العالم لورنتيوس فالا المتوفى سنة ١٤٥٧ ، والفيلسوف نيقولا اوف كيوز المتوفى سنة ١٤٦٤ . وللمزيد من المعلومات انظر كولتون : نفس المرجع السابق ، ص ٢٠٠-٢٠٤ .

وثمة نظرية أخرى روج لها دعاة الحزب البابوى ومصدرهـا كتاب « مدينة الله » " De Civitate Dei " للقديس أوغسطين أوفهيبو ، الذى بدأه سنة ٤١٣ وفرغ منه سنة ٤٢٦ . ويعتبر هذا الكتاب كلاسيكيا بالنسبة للفكر السياسى فى القرون الوسطى : لقد ألفه عقب الكارثة التى حلت بروما على يد الاريك القوطى سنة ٤١٠ . وفيه يقـول اوغسطين إنه إذا جاز أن تتحطم مدينة الانسان المبنية على القوة المادية ، فإن مدينة الله لا تزال بخير : وإذا كان بوسع البشر قتل الجسد ، فان الروح لا قدرة لهم على المساس بها : وقـد خصص المؤلف القسم الأول من الكتاب للرد على الذين قالوا بأن المسيحية هى سبب تدهور الامبراطورية الرومانية وسقوطها ، مبينا أن الوثنية هى سبب الكارثة . ويخلص من ذلك أن المدينة الأرضية تفنى كما يفنى جسم الانسان ، أما مدينة الله فإنها تدوم مع الروح : ويلاحظ أن القديس أوغسطين قد بالغ فى كتابه فى موضوع عنصر الازدواج فى المسيحية : ولعـل ذلك يرجع إلى أنه كان فى بداية حياته مانويا ، نسبة إلى المذهب المانوى الفارسى القائل بوجود إلهين فى الكون أحدهما للخير والآخر للشر . فالحياة فى نظره صراع بين الجسد والروح وبين الظلام والنور :

تلك هى أهم الآراء التى تضمنها كتاب «مدينة الله» الذى ظهر فى أوائل القرن الخامس الميلادى : وقد أدى الصراع بين البـابوية والامبراطورية فى الحقبة الوسيطة من التاريخ الوسيط ، إلى تحديد معالم الفـكر السياسي فى القرون الوسطى بصفة تكاد أن تكون نهائية . وكانت الخطوط الرئيسية لهذا الفكر وفلسفته قد وضحت فعلا فى كتاب « مدينة الله » : فاعتمـدت عليه البابوية لتأييد مطالبها وادعاءاتها ضد الامبراطورية . إذ اكتشفت فيـه

العديد من الحجج و الأسانيد التي ارتكزت عليها لابراز تفوق مدينة الله أى الكنيسة وعلى رأسها البابا على مدينــة الانسان أى الدولة وعلى رأسها الامبراطور .

هكذا وضع أوغسطين أوف هيبو فى مؤلفه فلسفة سياسيــة لأوروبا فى القرون الوسطى : وظلت هذه الفلسفة قائمة حتى القرن الثالث عشر . وكان البابوات يعتمدون عليها لتبرير تفوق سلطانهم على القوى العلمانية فى الغرب وعلى رأسها الامبراطورية . وخلاصتها من وجهة نظر البابوية أن الكنيسة الرومانية من عمل الله فى حين أن الدولة من عمل الانسان . وعلى هذا تكون سلطة البابا وهو الحاكم الدينى وممثل الله على الأرض وخليفةالقديسبطرس ورأس الكنيسة المسيحية الكاثوليكية ، فى مرتبة أعلى من تلك التى يتمتع بها منافسه الامبراطور وهو الحاكم العلمانى ، فى عصر كانت فيه الروح فوق الجسد . ويترتب على ذلك خضوع الدولة للكنيسة ، وخضوع الامبراطور وغيره من الحكام الزمنيين للبابا (١) .

وإلى جانب النظريات التى أسلفنا الاشارة إليها ، توجد نظرياتأخرى نذكر منها « هبة بين القصير » "Donation of Pepin" . ومؤداها أن بين

---

(١) أنظربحث نورمان بينز فىسلسلة مطبوعات الجمعيةالتاريخيةالانجليزية، وعنوانه N. H. Baynes, The Political Ideas of St. Augustine's De Civitate Dei (1962), 3—17 - والبحث مذيل بقائمة بالمصادر والمراجع المتعلقة بالقديس أوغسطين وكتاب « مدينة الله » - راجع أيضا يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الاوربية فى العصر الوسيط (١٩٥٧) ، ص ١٥ - ٤٩ ، عبدالرحمن بدوى: فلسفة العصور الوسطى(١٩٦٢)،ص٥-٢١ =

هذا قد وهب البابوية ، بالإضافة الى كيانها الروحى ، جميع ايطاليا لتكون ملكا لها ـ وذلك اعترافا منه بفضلها عليه فى تأسيس البيت الكارولنجى : وما يقال عن هبة بين ، يقال أيضا عن هبة كل من شارلمان وأوتو الكبير إلى البابوية (١).

وقد بلغ هذا النوع من التفكير أقصى مداه فى العبارات الصريحة التى فاه بها بعض البابوات . فنجد بابا مثل نيقولا الأول (٨٥٨ - ٨٦٧) يقول إنه إذا عجز الحاكم العلمانى عن المحافظة على السلام ، وجب على الكنيسة أن تتدخل فى الأمر وأن تتولى الحكم . بينما طالب جريجورى السابع بأن تكون الدولة التى أسسها المسيح لها السيطرة على تلك التى أسسها قايين . ويضيف أن من حق البابا تعيين الأمراء فى مناصبهم الدينية والدنيوية على السواء ومن حقه أيضا عزلهم منها . وبلغت هذه المبادىء المتطرفة ذروتها فى عهد انوسنت الثالث صاحب النظريات الحاسمة فى هذا الصدد . فالبابا فى نظره خليفة الله والقديس بطرس على الأرض . وهو تلميذ المسيح ، وبيده وحده

=و٣٧ - ٣٩ ، كولتون : عالم العصور الوسطى ، ص ٢١٧ — ٢٢٣ ،
La Monte, op. cit., 78 ; Dill, op. cit., 64—5 ; Laistner, op. cit., 70—3; H. O. Taylor, The Classical Heritage of the Middle Ages (1957) , 217—9 ; idem, The Medieval Mind, I. 64—5, 81—2 ; T. E. Mommsen, Medieval and Renaissance Studies (1959) , 265 ff.

(١) La Monte, op. cit., 155, 156 ، ديفز : شارلمان ، ص ٧٨-٨٢ .
راجع أيضا ص ٢١-٢٢ و٣٨ من هذا الكتاب .

مفاتيح السماء . وقال ذات مرة بأن البابا أقل من الله وأكبر من الإنسان(١).
وهذا يعنى فى المصطلح السياسى أن انوسنت كان يعتبر نفسه الامبراطور الحقيقى الوحيد . وكان يعتبر مدينة روما التى هى مقر البابوية عاصمة العالم الحقيقية ، وأما الأباطرة والملوك وغيرهم من الحكام العلمانيين فى دولهم وممالكهم ليسوا إلا عمالا للبابوية يدينون لها بالطاعة والولاء . وكتب مرة فى إحدى رسائله بأن الله خلق الشمس والقمر ليستضيء النهار بالشمس ، وليخفف القمر من ظلام الليل . وأنه عز وجل خلق فى الكنيسة العالمية سلطتين أولاهما سلطة البابوية لتشرف على رعاية أرواح اتباعها ، وثانيتها الملكية لتحكم فى الأجساد . ولكن سلطان الأولى يفوق بكثير سلطان الثانية . فكما يستمد القمر ضوءه من الشمس ، كذلك تستمد الملكية قوتها من البابوية . ومن الذى يجرؤ على وضع الجسد فوق الروح فى تلك العصور التى عرفت فى التاريخ باسم عصور الإيمان ، والتي هيمنت فيها الكنيسة الكاثوليكية بيد من حديد على مصائر الناس ، وعلى حياتهم الخاصة والعامة ، حتى أن كل من كان يخرج على تعاليمها وقيودها كان يعرض نفسه لأشد أنواع العقاب ، وما أكثر أسلحة الكنيسة التى كانت ترهب بها معارضيها ، من حرمان ونقمة ولعنة وقطع .

وتسيطر هذه الأفكار على البابوات . فنجد فى القرن الرابع عشر بابا مثل بونيفاس الثامن (١٢٩٤ — ١٣٠٣) يقول بأن الخضوع للبابا الرومانى شرط ضرورى لخلاص جميع البشر . وقد ورد هذا الرأى

(١) «medius constitutus inter Deum et hominem,» cf. Ullmann, op. cit., 51.

فى المنشور المقدس المعروف باسم " Unam Sanctam " الذى صدر سنة ١٣٠٢ (١).

تلك هى أهم النظريات السياسية التي قامت حول الكفاح بين البابوية والامبراطورية ، هذا الكفاح الذى أضر بكليهما فى وقت بدأت فيه العصور الوسطى بمثلها ومبادئها وفلسفتها وتعاليمها وقيودها وتقاليدها تتوارى تدريجيا لتفسح المجال لعصر جديد : إذ بدأت شخصية الفرد فى الظهور ، وقامت المدن والممالك الناشئة التي وقفت فى وجه السيادة الألمانية ؛ ولم تعد الامبراطورية تعبر عن وحدة إقليمية أو عن الحكم والسلطان ، وإنما أصبحت مجرد لقب شخصي فحسب : وبدأ الناس يتشككون فى الكنيسة وتعاليمها بعد أن دب فيها الفساد . وأخذ نجم البابوية فى الأفول : ويتمثل

---

(١) حول آراء البابوات فى السيادة العالمية ، وتفوق سلطانهم على القوى الزمنية ، أنظر كولتون : نفس المرجع السابق ، ص ٢٢٤ - ٢٢٥ ،
Baldwin, op. cit., 85-9 ; Lewis, op. cit., I44, 219, II. 359, 380, 399, 439, 450, 510, 523—6, 528 , 535 , 619 n. 10, 626 n. 51 ; Figgis, op. cit., 25, 206 ; Downs, op. cit., 163—5; Cantor, op. cit., 261—4 ; F. Heer, The Medieval World : Europe 1100-1350 (1961), 275—7 ; D. Hay, The Italian Renaissance and Its Historical Background (1961), 16 - أنظر أيضا آراء البابا انوسنت الثالث فى كتاب : C. R. Cheney and W. H. Semple (eds.), Selected Letters of Pope Innocent III Concerning England (1198—1216) London, 1953 . هذا وقد تعرض والتر اولمان لآراء البابوات فى أكثر من موضع فى كتابه « أسس الحكم والسيادة فى العصور الوسطى » .

هذا فى إذلال فيليب الرابع ملك فرنسا (١٢٨٥ - ١٣١٤) للبابا بونيفاس الثامن دون أن يجد هـذا الأخير من يقف إلى جانبه أو يدافع عنه : ويجد فيليب الرابع داعية نشطـا فى شخص بطرس ديبوا الذي يعتبر من كبـار المؤيدين للملـكية الفـرنسية ، والذى كان يأمل فى أن ينتخب ملك فرنسا امبراطورا ، والذى طالب باخضاع البابا الرومانى للنفوذ الفرنسى .وحوالى ذلك الوقت هاجم مارسيليوس أوف بادوا (١٢٧٠ - ١٣٣٤) البابوية فى شدة وعنف فى مؤلفه المسمى « المدافع عن السلم » « Defensor pacis » . فهو يقول إن البابوات أثاروا فى اوروبا الحروب أكثر مما عملوا على منعها : ويذكر أن العهد الجديد لا يتضمن أى تأكيد فى صالح السيادة البطرسية فى العصور الوسطى . وتصل نظرياته الثورية ذروتهـا فيما نادى به من أنه ليس للبابا أى ضرورة فى المسيحية ، وفى وقوفه الصريح إلى جانب الامبراطورية(١). وحذا حذو بطرس ديبـوا ومارسيليوس أوف بادوا كثير من الـكتاب

(١) أنظر كولتون : المرجع السابق ، ص ٢٢٦ —٢٣٣ ، راجع أيضا: A. S. Atiya, The Crusade in the Later Middle Ages (1938), 9, 47—52, 303 n. 1; Figgis, op. cit., 31—4 ; Lewis, op. cit., I.20, 25—8, 30, 69—78, 155, 158—60, 184—90, 206, 222, 235, 255-8, 296, II. 365, 368, 392—8, 457—9, 540—5, 590—606 ; Ullmann, op. cit., 268 ff.; Heer, op. cit., 280-1, 284-5; Hay, op. cit., 16-7
وللمزيد من المعلومات عن مارسيليوس اوف بادوا وآرائه ، أنظر كتاب : A. Gewirth, Marsilius of Padua, the Defender of Peace, 2 vols., New York, 1956 . ويتحدث المؤلف فى الجزء الأول من الكتاب عن مارسيليوس وفلسفته السياسية فى العصر الوسيط ، ويتناول فى الجـزء الثانى كتاب مارسيليوس المسمى « المدافع عن السلم » .

والمفكرين الذين عاصروا فترة الانتقال من العصر الوسيط إلى عصر النهضة .

وأخذت عجلة الأحداث تسير فى طريقها ، بينما كانت البابوية تسير هى الأخرى من سيء إلى أسوأ ، فى وقت كان فيه العالم الغربى فى تغير تدريجى مستمر . ويترك البابوات روما إلى المنفى فى أفنيون لمدة سبعين سنة أو يزيد (١٣٠٥ - ١٣٧٨) . وينقسم رجال الكنيسة على أنفسهم فيما يعرف بالقطيعة الدينية الكبرى فى الغرب (١٣٧٨ - ١٤١٨) . وقد أدى هذا إلى ارتفاع الأصوات الحرة الجريئة المنادية بضرورة الاصلاح الشامل فيما يسمى بحركة المجالس الدينية(١٤٠٩ - ١٤٤٩) . ويهمنا منها بصفة خاصة مجلس كونستانس (١٤١٤ - ١٤١٨) الذى أصدر مرسومه الشهير الخاص بتفوق سلطة المجالس العامة على سلطان البابوات ، « فأحال بصفة مؤقتة حكما مطلقا دام عدة قرون إلى حكومة دستورية » . ولكن حدث رد فعل فى مجلس بازيل (١٤٣١ - ١٤٤٣) ترتب عليه أن شهدت السنوات الأخيرة من القرون الوسطي فى الغرب أوتوقراطية نامية فى كلا المجالين الديني والدنيوى (١) .

لقد انتهت امبراطورية العصور الوسطى فى الغرب، كما بدأت ، باعتبارها

---

(١) كولتون : نفس المرجع السابق ، ص ٢٣١ - ٢٣٢ ، وكذلك ،
Lewis, op. cit., II. 374; Figgis, op. cit., 51—3, 59 ff.; M. Mckisack, The Fourteenth Century (1959), 145—6, 256, 272, 274, 277—9, 281, 293, 405; W. T. Waugh, A History of Europe from 1378 to 1494 (1932), 120 ff., 171 ff, 191 ff., 219 ff.; Ullmann, op. cit., 288 ff. ; Machiavelli, op. cit., 28 ff., 39 ff.

مجرد لقب أجوف ، بعد أن تفتت اتحاد المانيا - برجنديا - ايطاليا . ويستعرض بارا كلاف بايجاز الأدوار التي مرت بها الامبراطورية بعد ذلك ، موضحا كيف حاول آل هابسبورج الألمان إحياءها من جديد . ومع ذلك لم يكن هناك وجه شبه بين امبراطورية آل هابسبورج وامبراطورية العصور الوسطى فى الغرب التي سعت جاهدة إلى ربط مصيرها بروما وايطاليا وفى سبيل ذلك اصطدمت بكل من الامبراطورية الرومانية فى الشرق والبابوية فى روما . ولم يكن بارا كلاف مغاليا حينما قال بأن امبراطورية آل هابسبورج لا هي وريثة امبراطورية العصور الوسطى ولا هى ظلها منذ أن انتهي أمر الاتحاد مع روما ، وبأنها تتميز بطابعها الخاص الذى هو من ثمار عصر النهضة وحركة الاصلاح الديني المضادة ، أو هى تطوير وتحوير لامبراطورية العصر الوسيط حتي تأخذ شكلا يتناسب ومطالب العصر ومقتضياته . وما يقال عن أسرة هابسبورج يقال كذلك عن أسرة هوهنزولرن التي تم فى عهدها توحيد المانيا ، والتي سقطت فى أعقاب الحرب العالمية الاولى .

ويختتم المؤلف بحثه بتقييم امبراطورية العصور الوسطي فى الغرب ، وتحديد مكانها الصحيح بين الأسطورة والتاريخ ، وبين الفكرة والواقع ، وبين المثالية والحقيقة ، مع إبراز طابعها وماهيتها وخصائصها ومقوماتها وكيانها ، وأثرها على المجتمع الغربي الوسيط ، وعلى تاريخ الحضارة الأوروبية ليس فى القرون الوسطى فقط وإنما فى التاريخ الحديث أيضا .

وبعد ، فهذه كلمة سريعة رأينا أن نمهد بها لبحثي هارتمان وباراكلاف ، دون الدخول فى تفصيلات قد تبعد بنا عن الموضوع الأصلي لهذا الكتاب . فالدخول فى دقائق وتفصيلات الدولة ومفهومها ، والفكرة الامبراطورية وآثارها ،

والامبراطورية الرومانية ومدى شرعيتها ، والامبراطوريةا لمثالية، والقانون الرومانى وما يعنيه بالنسبة للحق الامبراطورى، ودولة الكنيسة فى العصر الوسيط، والفكر السياسي وفلسفته، والنظريات السياسية وأصولها ودعاتها والسياسة وفلسفتها - كل هذا إنما يحتاج إلى دراسات أخرى طويلة وعميقة ليس هنا مجالها . فهى تخص رجال القانون واللاهوت وفلسفة السياسة ومؤرخى الفكر وأصحاب النظريات السياسية أكثر من غيرهم .

ولما كان عنوان بحث هارتمان هو « الدولة فى العصور الوسطى المبكرة »، وعنوان بحث بارا كلاف هو « الامبراطورية فى العصور الوسطى » — لذا رأينا أن يكون عنوان هذا الكتاب على الوجه الذى صدر به .

وهو أول كتاب معرب يحوى بين دفتيه أهم الآراء والأفكار المتعلقة بتاريخ كل من الدولة والامبراطورية ، فى أوروبا فى القرون الوسطى ، لاثنين من كبار المشتغلين فى هذا الميدان . ومن حسن حظ المكتبة العربية أنها أصبحت عامرة بالعديد من الكتب العربية والمعربة فى تاريخ العصور الوسطى الاوروبية وحضارتها ، وتاريخ الدولة البيزنطية وحضارتها . وقد عالجت فى بعض فصولها وأبوابها شكل الدولة فى كل من الشرق والغرب : كما أشار بعضها إلى الفكرة الامبراطورية وما يتعلق بها من آراء ونظريات . فمن المراجع المؤلفة نذكر كتاب « أوربا العصور الوسطى » للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، و « النهضات الاوربية فى العصور الوسطى وبداية الحديثة » للدكتور سعيد عاشور والدكتور محمد أنيس ، وكتابى « المجتمع الاوروبى فى العصور الوسطى » و « المسلمون والجرمان » للدكتور ابراهيم أحمد العدوى ، و « الثقافة والتربية فى العصور الوسطى » للدكتور وهيب

ابراهيم شعمان : وفى التاريخ البيزنطى نذكر كتاب « الدولة البيزنطيـة » للدكتور السيد الباز العريني ، و« الامبراطورية البيزنطيةوالدولة الاسلامية» و« الأمويون والبيزنطيون » للدكتور ابراهيم العدوى :

ومن الكتب المعربة نذكر كتاب « أوربا فى العصور الوسطى»تأليف هـ. و: ك. ديفز ترجمة الدكتور عبد الحميد حمدى محمود ، و«تاريخ أوربافى العصور الوسطي » تأليف هـ. ا. ل. فشر ترجمة الدكتورمحمد مصطفى زيادة والدكتورالسيدالباز العرينيوالدكتورابراهيمأحمدالعدوى ، و «عالمالعصور الوسطى فى النظم والحضارة»تأليف ج.ج .كولتونوقد قمنا بنقلهإلىالعربية ومنالمراجع المعربة المتخصصة فىزاوية من زوايا التاريخ الوسيط نذكركتاب «الاقطاع والعصورالوسطى في غـرب أوربا » تأليف ج : و : كوبلاند و ب : فينوجـرادوف ترجمة الدكتور محمد مصطفي زيادة ، و « البندقيـة جمهورية ارستقراطية » تأليف شارل ديل ترجمة الدكتـور احمدعزت عبد الكريم والأستاذ توفيق اسكندر.و « شارلمان » تأليف هـ . و . ك . ديفز ترجمة الدكتور السيد الباز العرينى ، و « تطور الفـكر السياسى » تأليف جورج سباين ترجمة الأستاذ حسن جلال العروسي . ومن مراجع التاريخ البيزنطى المعربة نذكر كتاب « الامبراطورية البيزنطية » تأليف نورمان بينز ترجمة الدكتور حسين مؤنس والأستاذ محمود يوسف زايد،و «الإمبراطورية البيزنطية » تأليف شارل أومان ترجمـة الدكتـور مصطفى طه بدر ، و « الحضارة البيزنطية » تأليف ستيفن رنسيمان ترجمة الأستاذ عبـد العزيز توفيق جاويد ومراجعة الأستاذ زكى على ، وكتاب بعنـوان « بحـوث فى التاريخ الاقتصادى » وهو يتضمن خمس مقـالات في تاريخ بيزنطة الاقتصادي قام بترجمتها الأستاذ توفيق اسكندر : فضلا عن بعض المراجع

والموسوعات العامة المعربة مثل « موسوعة تاريخ العالم » التي أصدرها وليم لانجر وأشرف على نقلها إلى العربية الدكتور محمد مصطفى زيادة. هذا إلى جانب عدد من المقالات المؤلفة والمعربة المنشورة فى المجلات والدوريات التاريخية . ففى هذه المراجع والبحوث معلومات لها وزنها وقيمتها التى لا تنكر فيما يتعلق بتاريخ الدولة والامبراطورية فى أوروبا فى القرون الوسطى .

ولقد اقتضي نقل بحثى هارتمان وباراكلاف إلى العربية تزويدهما ببعض البيانات والمعلومات والخرائط والفهارس التى لم ترد فى النص الأصلى لكل منهما . من ذلك الكلمة التي مهدنا بها للبحثين ، والتي لم يكن النص الأصلى ليتسع لها . وكذلك التعليقات فى الهوامش السفلية ، ومعظمها خاص بأسماء الأعلام والوقائع والأحداث والمصطلحات . وقد أضفنا كلمة « المترجم » بعد كل هامش من تلك الهوامش تمييزا لها عن هوامش المؤلفين. واستلزم ذلك تذييل الكتاب بقائمة بأسماء المراجع العربية والمعربة والأجنبية التي اعتمدنا عليها فى الكلمة التمهيدية وفى التعليقات بالهوامش. وفى آخر كل فصل من فصول البحثين قائمة بأهم المراجع الأجنبية الخاصة به التي يمكن لكل من يبغى التعمق فى البحث الرجوع اليها . وبالإضافة الى ما تقدم ، فقد زودنا الترجمة بعدد من الخرائط الإيضاحية ، كما ضمناها فهرسا تفصيليا بعناوين الفصول ومحتوياتها ، فضلا عن فهرس أبجدى عام بأسماء الأعلام والأماكن والأحداث والمصطلحات ، وما اليها .

والله ولى التوفيق

الاسكندرية فى يناير سنة ١٩٦٦ — جوزيف نسيم يوسف

البحث الأول

الدولة فى العصور الوسطى المبكرة

بيزنطة - ايطاليا والغرب

هذه ترجمة البحث التالي :

L. M. Hartmann, The Early Mediaeval State: Byzantium, Italy and the West, Translated with Notes by H. Liebeschütz [Historical Association Pamphlet No. G 14, London, 1949] .

مقـــدمة

بقلم

ه . ليبشيتز

كان لودو موريتز هارتمان (١٨٦٥ — ١٩٢٤) مدرس تاريخ العصور القديمة والحديثة فى جامعة فيينا، تلميذا لتيودور ممسن Theodor Mommsen فى الحقبة الأخيرة من حياته . وكان ممسن أستاذ الدراسات الرومانية قد وجه فى ذلك الوقت اهتمامه الرئيسي إلى فترة الانتقال من التاريخ القديم الى العصر الوسيط : ولم يقم بتنظيم البحوث الأثرية عن ألمانيا الرومانية فحسب، بل أشرف كذلك على طبع المصادر المكتوبة عن غزوات « البرابرة » للامبراطورية . وفى هذه المدرسة تعلم هارتمان أن يرى فى العصر الكلاسيكى والعصر الذى يليه وحدة واحدة ، بينما كانا عادة موضوع أنظمة مختلفة . ويقوم مؤلفه الأساسى وهو « تاريخ ايطاليا » ، فى كامل أجزائه التى تتناول الفترة من عهد ثيودوريك إلى عهد الإمبراطور هنرى الثانى ، على بحث ناقد فى ثلاثة مجالات دراسية هى : التاريخ اللاتينى القديم ، والدولة البيزنطية ، والتاريخ السياسي والدستورى للعصور الوسطى . وكل تعميماتنا المثبتة فى المقال المترجم فى هذا الكتيب ، مبنية على أسس من المادة الغزيرة التى تحويها الأجزاء الثلاثة الأولى من مؤلفه المذكور : وأبرز مزايا هذه المحاضرة التى كان عنوانها فى الطبعة الأصلية التى صدرت سنة ١٩١٣ (والتى نفدت منذ زمن بعيد) « فصل عن الدولة فى أواخر التاريخ القديم وأوائل العصر

الوسيط » (١) ، هى نظرة شاملة للفترة موضوع البحث ، ومنهج موضوعى للمقارنة بين نظم الحضارات المختلفة .

وتمثل تلك المقالة قطرة صغيرة فى قائمة كتابات هارتمان : ولكنها ليست فى الحقيقة إنتاجا فرعيا : ذلك أن هارتمان ، فى بحثه كمؤرخ ، لم يسمح لنفسه قط أن يتجاوز عن التفاصيل الصغيرة ، وعن الوقائع الفردية التى لا حصر لها والتى يتكون منها كل حدث سياسي عظيم : ولربما كانت أقوى دوافع هارتمان فى انتاجه الذى كرس حياته له ، هو رغبته فى الكشف الكامل عن ميكانيكية النظام الاجتماعى التى كانت أساس التاريخ ، والتى شكلت ، فى اعتقاده ، مصير الجنس البشرى . وقد عاش والد هارتمان عشرين عاما فى المنفى ، لمشاركته فى ثورة الأحرار ضد آل هابسبورج عام ١٨٤٨ . أما الابن الذى قام بمهنة التدريس خلال تسع وعشرين سنة فى فيينا الامبراطورية ، فقد رأى فى الحركة الاشتراكية بشرى للنصر النهائى : وفى هذا الصدد كان هارتمان يتميز بطابع خاص انفرد به بين المؤرخين المحترفين . وكان يشاركه فى الاهتمام بالأساس الاجتماعى والاقتصادى لأوجه النشاط السياسى أساتذة كبار من معاصرى جيله : وكان الطابع الاقتصادى للحضارة القديمة ، ومكانه من تطور الأشكال الرأسمالية للمجتمع ، موضع نقاش فى نهاية القرن التاسع عشر بصفة

---

(١) عنوان البحث بالألمانية " Ein Kapitel vom spätantiken und frühmittelalterlichen Staate" وقد قام بنشره و . كولامير W. kohlammer بشتوتجارت سنة ١٩١٣ . واليه يرجع الفضل فى الإذن بإصدار تلك الترجمة .

خاصة . ويمكن تتبع موقف هارتمان من هذه المناقشات الأكاديمية بسهولة في هذا المقال .

وقد اختصرنا النص الأصلي حيثما بدت صيغ المؤلف خاضعة لمتناقضات فات وقتها ، أو تبدو الآن عديمة الأهمية إذا قيست بالمؤلفات الكبرى ووجدت عبارات من هذا النوع ، وبخاصة في الفقرات التمهيدية عن نظام دولة المدينة في التاريخ القديم . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فقد أضفنا بعض الايضاحات الموجزة إلى آراء هارتمان ، وهي داخل أقواس مربعة تمييزا لها عن النص الأصلي . كما راجعنا صفحة المراجع في هوامش هارتمان في ضوء مزيد من المؤلفات المستجدة المستحدثة ، مع إضافة شيء من النقد هنا وهناك ، لتوضيح موقف المؤلف من المناقشة التاريخية في زمانه .

هـ . ليبشيتز

الفصل الأول

نهاية نظام دولة المدينة والامبراطورية الرومانية

لتحديد نظام دولة ما ، لا يزال أصحاب النظريات والمؤرخون يأخذون بمراحل التطور التي نادى بها أرسطو وهى الملكية والأرستقراطية والديموقراطية (١).

---

(١) يستمد أرسطو نظريته السياسية من واقع التاريخ اليوناني القديم ، وبصفة خاصة من تطور النظم السياسية فى أثينا . وقد سادت تلك النظم على النحو التالى : إذ ابتدأت بالملكية حتى القرن التاسع قبل الميلاد . ثم انهار النظام الملكي ، وساد مكانه النظام الأرستقراطى أوحكم الاشراف الذى يعتمد على طبقة تتميز بالنسب العريق وملكية الأرض . وتطور هذا النظام إلى ماعرف بالاوليجاركية ، وذلك بعد الثورة التجارية والصناعية وقيام طبقة من التجار وأصحاب السفن الذين كونوا ثروات كبيرة عن طريق التجارة الخارجية ، واختلطوا بفضل ثرائهم بالطبقة الارستقراطية .وأصبحت الطبقة الجديدة المكونة من الارستقراطية القديمة والثرية الجديدة تكون الطبقة الحاكمة التي عرفت الآن باسم حكم الأقلية أوالاوليجاركية . وحدث بعد ذلك صراع طبقى بين هذه الطبقة السائدة والطبقات الشعبية الفقيرة ، مما أدى إلى أن يتزعم الطبقات الفقيرة أحد الأفراد الأقوياء ، وكثيرا ما كان من الارستقراطيين أنفسهم ، وأقام نفسه حاكما . وعرف فى النظم اليونانية باسم طاغية « tyrannos » . وكانت التجربة الشعبية السياسية بعد ذلك قد نضجت . وقام حكم العامة الذى يعرف اصطلاحا باسم النظام الديموقراطي ، ووصل أوجه فى القرن الخامس قبل الميلاد ، وفى عصر بركليس بصفة خاصة . وقد استغل ارسطو هذا التطور التاريخى فى صياغة نظرياته السياسية . إذ قال إن نظم الحكم تنقسم إلى ثلاثة انواع هى : النظام القائم على حكم الفرد ، والنظام القائم على حكم الاقلية ، والنظام القائم على حكم الأكثرية . وكل =

ولهذا المنهاج حدود واضحة : فما لا شك فيه أن السلطة العليا — سواء أكانت لفرد أم لأقلية أم لأغلبية ما — لا تكفي بذاتها لقيام دولة . ونعرف كذلك أن فكرة مقابلة الملكية والأرستقراطية والديموقراطية القديمة ، بمثيلاتها في التاريخ الحديث ، والتي صادفت رواجا خلال القرن الثامن عشر، لاتؤيدها الوقائع التاريخية . فضلا عن أن نظرية ارسطو السياسية كانت مبنية على شكل واحد من أشكال الدولة ، وهو نظام المدينة اليونانية الحرة (١) أو دولة المدينة

= من هذه الأنواع الثلاثة له وجهين أحدهما صالح والآخر فاسد . فحكم الفرد الصالح هو الحكم الملكى ، والفاسد هو حكم الطاغية . وفى حالة حكم الاقلية يكون الحكم الصالح هو النظام الأرستقراطى ، والفاسد هو النظام الاوليجاركى . وفى حالة حكم الأكثرية يكون النظام الصالح هو الديموقراطى والفاسد هو الديماجوجى : أنظر عن ذلك المراجع التالية:
Aristotle, Politics (1961), Book 111, 92 ff., Book V, 214 ff.; J-B.Bury, A History of Greece (1951), 833 ff.; R. H. Barrow, The Romans (1955), 66-7; T R. Glover, The Ancient World (1953), 257; Barker, op, cit., 136—141. راجع أيضا الترجمة العربية لكتاب أرسطوطاليس : السياسة (١٩٤٧) ، الكتاب الثالث ص ١٨١ وما بعدها والكتاب الخامس ص ٢٨٧ وما بعدها ؛ يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية (١٩٥٣) : ص ٢٠٥-٢٠٨ ، سباين : تطور الفكر السياسى، ج ١ (١٩٦٣) ، ص ١١٦ وما بعدها ؛ محمد عبد المعز نصر: الدولة والمواطن (١٩٥٢) ، ص ٣٥-٤١ . المترجم .

(١) يرى ارسطو فى كتاب « السياسة » أن الأسرة هى الوحدة الأساسية التي يقوم عليها المجتمع الانسانى . ويرى أن القرية تتكون من اجتماع عدد من الأسر ، ومن اجتماع عدد من القرى تتكون المدينة ؛ وهى النظام السياسي المثالى للدولة عنده . ويقول إن اجتماع هذه القرى فى شكل دولة يكون مثاليا إذا =

المعروفة باسم « بوليس » « polis » (١) : وقد كانت هذه المدينة على وجه التحديد تتمتع باكتفاء ذاتى . وكان ارسطو يعتبر التزاوج بين مواطنين من مختلف المدن الحرة خروجا على العرف السائد :

وكانت هناك نظم قانونية تختص بالمدينة الحرة فى مرحلة تالية فيما وراء الحدود لم يعترف بها إلا باتفاق خاص . كذلك وجد حد أدنى « للقانون الدولى » تتعيش بموجبه إحدى المدن الحرة على الأخرى ولم يكن ثمة حقوق

= ضمن لها الاكتفاء الذاتى : ويرى كذلك أن المدينة المثالية لكى تحيا حياة سياسية صالحة يجب ألا يزيد عدد المواطنين فيها عن القدر الذى يسمح لكل واحد منهم أن يعرف الآخر . أنظر عن ذلك المراجع التاليــة :

Aristotle, op cit., Book I, 1. ff.; cf. also W. G. de Burgh, The Legacy of the Ancient World (1955), I, 206 ff ; A. T. Toynbee, Hellenism(1959), 37,45 ff.; H.D. kitto, The Greeks(1954), 65 ff.; M. Rostovtzeff, Rome (1960),320-1; Baynes, Byzantine Studies,3-5

راجع كذلك ارسطوطاليس : المرجع السابق ، الكتاب الاول ، ص ٩١ وما بعدها ؛ يوسف كرم : المرجع السابق ، ص ٢٠١-٢٠٤ . المترجم

(١) « بوليس » كلمة يونانية تعنى دولة سياسية أو حكومة المدينة أو دولة المدينة . ولكن نظرا لأن الاغريق القدماء لم يعرفوا فى تجربتهم التاريخية وحدة سياسية أكبر من المدينة ، فقد أصبح هذا الاصطلاح قاصرا على دولة المدينة المستقلة كما عرفها الاغريق . أنظر عن ذلك :

M. I. Finley, The Ancient Greeks (1963), 45-88; Kitto, op. cit., 64 ff., 120 ff.; Glover, op. cit., 113-8; Burgh, op. cit., chs.IV-VI, 96—224; Cambridge Ancient History, vol. VII, ch. IV, 22-32.

هذا وقد وردت الاشارة إلى المدن الدول فى مواضع متفرقة من كتاب توينبى : تاريخ الحضارة الهلينية ـ القاهرة ١٩٦٣ . المترجم .

تحمى أسرى الحرب الذين كانوا يعاملون كالأغنام . وتبعا لذلك اعتبر الرق، وهو وجود رجال محرومين من حقوقهم ومجردين من صفتهم كمواطنين، أمرا مسلما به كقانون طبيعي . وكان هذا التمييز بين المواطنين وغير المواطنين هو الأساس الذى بنيت عليه المدينة اليونانية الحرة . وكان غير الأحرار هم المنتجون للطعام . أما الأحرار فهم الذين كانوا يمارسون وحدهم النشاط السياسى ، إذ كونوا طبقة المحاربين . وكان الطابع المميز للجمهوريات القديمة هو أن مجلس الاحرار إنما يمثل السلطة العليا . واقتصرت المواطنة الكاملة على الرجال حاملى السلاح (١) .وكان ذلك نتيجة للتمييز القانونى بين طبقة المحاربين وبين الشعب الكادح .

وقد ظل هذا التقسيم الأساسى قائماً طالما كانت هناك مدينة حرة . ولم تكن تلك المدينة قد تغيرت فعلا بالتحول من الملكية إلى الأرستقراطية ، ومن الأرستقراطية إلى الديموقراطية . وتمثل آراء أرسطو فيما يتعلق «بالملكية» و « الأرستقراطية » و « الديموقراطية » فى الواقع مجرد ثلاث مراحل متفق عليها تاريخياً فى تطور نظام المدينة اليونانية الحرة . أما عن المرحلة الأولى فهى خاصة بالملكيات المبكرة فى عصر هوميروس (٢) . وأعقبتها فترة كانت

---

(١) Otto Hirschfeld, Die kaiserlichen Verwaltungsbeamten bis Diokletian (1905), 486.

(٢) العصر الهومرى نسبة إلى هوميروس : وقد أبدى البعض فى وقت ما تشككهم فى حقيقة وجود هذا الشاعر . وحتى فى العصور القديمة لم يكن البعض يتصور أنه إنسان عادى يستطيع تنظيم كل تلك الاشعار والقصائد المنسوبة اليه .ولكنهم تخيلوه كهلا كفيف البصر ، ينشد أو يلقى مقطوعاته .

تنشأ فيها الدول بطريق الغزو : فكان ثمة جماعة من الدوريين (١) ، أو أمم أخرى محاربة يحتمل أنها كانت لاتزال من الرحل، وقد أقامت فى مراكز جديدة بات أهلها الفلاحون من الخاضعين الأذلاء ، بعد أن جعلتهم أتباعا لها بصورة

= وهناك سبع مدن على الأقل كانت تنسبه اليها ، وتزعم أنها مسقط رأسه : وعلى أية حال يكاد يكون من المتفق عليه الآن أن هوميروس عاش فى القرن التاسع قبل الميلاد . وسرعان ما نال شهرة واسعة فى وقت كانت فيه الحضارة اليونانية قد بدأت فى النضج : وازدادت شهرته فى القرن السادس والخامس قبل الميلاد وما تلا ذلك من عصور . وأهم ملحمتين له هما «الالياذة» و « والأوديسية » . وتتكلم «الالياذة» عن حرب طروادة فى مرحلتها النهائية، بينما تصف الثانية رحلة اوديسيوس ، أحد ابطال اليونان ، وهو فى طريق عودته إلى وطنه . أنظر يوسف كرم : نفس المرجع السابق ، ص ٢ — ٤ ، محمد صقر خفاجة : هوميروس — القاهرة ١٩٥٦ ، حيث يعرض الدكتور خفاجة للشاعر وعصره عرضا دقيقا ممتعا . انظر أيضا Bury, A Hist. of Greece, 50—3, 68—9; Kitto, op. cit., 44-64 ; E. H. Blakeney (ed.), A Smaller Classical Dict. (1949), 267—8 -المترجم

(١) الدوريون قبائل متبربرة غزت العالم اليونانى منذ نهاية القرن الثانى عشر قبل الميلاد حتى القرن العاشر قبل الميلاد . وكان لهذه الغزوات تأثير كبير على تغيير مجرى التاريخ اليونانى . إذ قضت على مراكز الحضارة القديمة التى ازدهرت فيها الحضارة الميكينية نسبة الى مدينة ميكينى : وكانت أهم مراكز استقرارهم فى العالم اليونانى هى اسبرطة وكريت وشبه جزيرة البليبونيز بصفة عامة. أنظر عن ذلك المراجع التالية :
N. G. L. Hammond, A History of Greece to 322 B. C. (1959), 72 ff.; W. Ridgeway, The Early Age of Greece (1931) I, ch. III, 293—336 ; Toynbee, op. cit., 28 f., 35 ; Kitto op. cit., 15 ff., 88 ff.; Bury, op. cit., 61—2 - المترجم .

أو بأخرى : على حين أعد الغزاة الفاتحون أنفسهم على أن يكونوا ملاكا للأرض ومحاربين : وكانت هذه هي مرحلة « الارستقراطية » كما حدثت فعلا فى التاريخ ، والتي قامت على أساس تقسيم العمل بين المحاربين والعاملين. واستمرت تلك الارستقراطية فترة طويلة من الزمن فى عدد من الدول [مثل اسبرطة وكريت] غير أن مدناً حرة أخرى ، ولو أنهـا قامت على نفس الأسس ، إلا أنها تطورت تطورا سريعاً تحت تأثير عوامل اقتصادية مختلفة ومغايرة - فضلا عن أسباب التغيير فى التكتيكات الحربية ، التي ترتب عليها اتساع نطاق الخدمة العسكرية حتى شملت أفراد الشعب المحكومين . وما أن سمح للفلاحين بأداء الخدمة العسكرية ، حتى استتبع ذلك تحريرهم بحكم الضرورة . إذ أصبحوا محاربين أحرارا . وبهذة الطريقة بدأت الفترة التي أطلق عليها « الديموقراطية » .

وبهذا الخصوص نستهل القول بأن روما نفسها قد مرت تماماً بنفس مراحل التطور التي مرت بها المدن اليونانية الحرة . وتحت ضغط الأحداث حولت حركة تحرير العبيد (١) الأتبـاع المحكومين إلى فلاحين أحرارا ،

---

(١) كانت العبودية منتشرة فى المجتمع القديم كله . وأمر حرية العبد موكول آخر الأمر لسيده . وقد عرف العالم اليونانى القديم طريقتين للتحرر ، منها أن الدولة أو الحاكم كان يملك سلطة إصدار قوانين لتحرير أعداد كثيرة جدا من الرقيق فى المدينة . وكانت هذه القوانين تصدر عادة فى ظروف الأزمات الحادة حين تكون الحاجة ماسة لمساعدة العبيد العسكرية : والطريقة الثانية هى أن السيد نفسه هو الذى يعتق العبد إما بمحض رغبته الشخصية ، أو أن يشترى العبد حريته من سيده بما أمكنه جمعه من مال. =

وإلى طبقة البروليتاريا والجنود : ولازم هذه الفترة فى تاريخ طبقة المحاربين صراع أهلى وأزمات اجتماعية . وأعقب ذلك قيام طبقة متوسطة بمجرد أن حصلت روما على كفايتها من الأرض ومن الرقيق العاملين لاحتياجات الفلاحة :

وتم الانتقال فى روما ، كما كان الحال فى بلاد اليونان ، من مرحلة « الأرستقراطية » إلى مرحلة « الديموقراطية » دون حدوث أى تغيير جوهرى فى الجهاز الحكومى أو فى الأسس التى يرتكز عليها . واستقرت كل من « الارستقراطية » و « الديموقراطية » على نفس أسس تقسيم العمل بين المحاربين والعمال الكادحين .وكان الفارق الوحيد هو أنه بعد تحرير الفلاحين أجبر الرقيق على القيام بالعمل المنتج الذى أصبح منذ ذلك الحين هو عمل الفلاح : واستمرت الأجهزة السياسية والإدارية تحت كلا النظامين تشغل عن طريق الانتخاب، وفقا للمبدأ القائل بأنه يجب على كل مواطن حر أن

= وكانت هذه الوسيلة منتشرة فى روما وفى اليونان على حد سواء .ومن المعروف أن معبد ابولو فى مدينة دلفى كانت له شهرة كبيرة باعتباره مركزا لتحرير العبيد . وجدير بالذكر أن ثورات العبيد قليلة فى التاريخ عموما . ولعل من أشهرها فى التاريخ القديم هى ثورة العبيد ضد روما فى بداية القرن الأول قبل الميلاد . وكان من أشهر زعمائها الشخصية المشهورة باسم سبارتاكوس . انظر توينبي : تاريخ الحضارة الهلينية (الترجمة العربية) ، ص ٢٠١-٢٠٢ ، وكذلك : W. L. Westermann, The Slave Systems of Greek and Roman Antiquity, Philadelphia, 1955; W. W. Fowler, Rome (1937), 92 ff.; Glover, op. cit., 125—7 — المترجم .

يؤدى بصفة شخصية الخدمات المدنية فى أوقات السلم ، كما يتعين عليه تماما القيام بحمل السلاح أثناء الحرب .

ومعروف جيدا كيف تخطت روما النطاق الضيق لنظام دولة المدينة أو المدينة الحرة . إذ أصبحت الجمهورية الرومانية خلال القرنين الأخيرين من تاريخها بناء غير متجانس بأية صورة كانت . ولم يستمر وجودها كمدينة حرة . وظل الكثير من بين المدن الحرة ، التي كانت تكون التحالف الايطالى غريبة بحكم القانون ، بحيث أنه فى الفترة المبكرة من تاريخ الامبراطورية كان لا يزال ميسورا نفى المواطنين إلى إحدى مدن الأقاليم الإيطالية : فضلا عن أن استقرار الأقاليم بسكانها التابعين المحكومين لم يكن يتفق مع طابع المدينة الحرة ، كما هو الحال فى شأن التوسع فى عملية التحرير التي منحت حقوقا سياسية للمقيمين فى الجهات النائية لم تكن تمارس إلا فى روما ذاتها :

وقد سار فى نفس هذا الاتجاه تحول الجيش من نظام الميليشيا (١)

---

(١) ذكر الأستاذ جونز فى الجزء الأول من مؤلفه الكبير «الامبراطورية الرومانية المتأخرة » أن لفظ « ميليشيا » يعنى عموما العمل فى خدمة الإمبراطور فى أى صورة كانت . ولكن هناك فارق أساسي بين « ميليشيا » فى معناها الضيق الذى يتعلق بالخدمة العسكرية أو الخدمة المدنية ، وبين المناصب العليا العسكرية والإدارية التى كانت تسمى administrationes أو honores أو dignitates : وأهم فارق بينهما هو أن الميليشيا عبارة عن وظيفة دائمة ثابتة تمتد عادة مدى الحياة . أما الوظيفة الثانية فكانت قاصرة على المناصب العليا ولفترات قصيرة فقط . كما أنها كانت متوقفة على مدى رضاء الامبراطور على شاغلها : أنظر A.H.M. Jones, The Later Roman Empire (1964)1.377-8 - المترجم

militia المكون من المواطنين المدربين ، إلى قوة من النظاميين ذوى الخدمة الطويلة . وكانت الامبراطورية هى الخاتمة الطبيعية لهذا التطور . وأصبح واجبها هو إبطال نظام المدينة الحرة أو دولة المدينة بصفة نهائية، عن طريق إيجاد شكل جديد من التنظيم السياسى . وقد شغل هذا الإجراء المعقد، نتيجة تغييرات اقتصادية واجتماعية عميقة الجذور ، الثلاثمائة سنة (١) الممتدة من عهد اوغسطس (٢)

---

(١) يحلل روستوفتزف بداية ونهاية المرحلة التى مرت بها تلك العملية فى الفصل الثاني من كتابه M. Rostovtzeff, Social and Economic History of the Roman Empire. وعنوان الفصل المذكور «اوغسطس وسياسة الإصلاح والتجديد - ص ٣٨ - ٧٥» ، وكذلك فى الفصل الثانى عشر من نفس الكتاب ، وعنوانه « استبداد الشرق ومشكلة انهيار الحضارة القديمة - ص ٤٤٩ - ٤٨٨ » - المؤلف - راجع أيضا الفصل الذى كتبه روستوفتزف عن الأحوال الاقتصادية والاجتماعية السائدة فى الامبراطورية الرومانية خلال القرنين الأول والثانى، فى مؤلفه Rostovtzeff, Rome, 248-65 المترجم .

(٢) حكم اوغسطس ٤٥ سنة ، من ٢٧ ق م الى ١٤م . وكان لقب تمجيده هو « اوغسطس» "Augustus" أى العظيم . وكان يلقب أيضا «امبراطور» "Imperator" باعتباره قائدا أعلى . غير أن الصفة الوحيدة العامة التى كانت تطلق عليه هى « الرئيس » "princeps" . وكانت السلطات المخولة له محدودة زمنيا من الوجهة الرسمية ، ويتحتم طلب تجديدها . وقد شارك اوغسطس السناتو أى مجلس الشيوخ فى الاضطلاع بمهام الحكم ، ولو أن السيادة كانت لاوغسطس نفسه الذى يعد العضو الأول فى المجلس المذكور . ومن صفاته أنه كان وديعا متواضعا لا يحب الظهور بمظاهر العظمة والأبهة والسلطان . أنظر م.ب. تشارلزوورث: الامبراطورية الرومانية (١٩٦١) ، ص ١٢و١٩ - ٢٠ ، وكذلك J. B. Bury, A Hist. of the Roman Empire (1913), 12 ff.; M. Cary, A Hist. of Rome (1938) .495 ff. المترجم .

إلى عهد دقلديانوس (١) . وكانت النتيجة مغايرة لنظام دولة المدينة من كافة الوجوه . وانتهى كذلك نظام الحكومة الذاتية الذى كانت تمارسه الطوائف المدنية . وفقدت المجالس البلدية وظائفها الإدارية ، وتحولت إلى هيئات من أشخاص تنحصر مسئوليتهم فى دفع الضرائب . وغدا المجتمع أكثر تعقيدا . واختفى التقسيم القديم بين أعضاء المجتمع ذوى النشاط السياسى

---

(١) تربع دقلديانوس على عرش الامبراطورية الرومانية فى الفترة من سنة ٢٨٤ إلى سنة ٣٠٥ . وقد بادر بسن عدد من الاصلاحات لمنع الانهيار البادى فى الدولة الرومانية . وشملت اصلاحاته النواحى الإدارية والعسكرية وشئون الحكم . كما اهتم بالناحية المالية ، وعمل على إعلاء كلمة الامبراطور حتى أصبح شبه إله . وقام بتقسيم الامبراطورية نظريا إلى قسمين ، بعد أن أدرك بأن امبراطورا واحدا لا يمكنه تحمل أعباء الحكم ومسئولياته بمفرده فى تلك الدولة المترامية الأطراف ، وتحت ظل الظروف الجديدة التى طرأت على مسرح الأحداث بقيام البرابرة بغزواتهم وظهور الديانة المسيحية . وفى سنة ٣٠٥ تنازل دقلديانوس عن العرش ، ولم يقدر لامبراطوريته التى أعاد تنظيمها البقاء طويلا بعده . وحل محله فى المنصب الامبراطورى قسطنطين الكبير الذى ترك له أمر القيام بتلك المهمة الشاقة . أنظر عن ذلك رنسيمان : الحضارة البيزنطية ، ص١٤-١٩ ، ن . بينز ، الامبراطورية البيزنطية (١٩٥٠) ، ص٣-٥ ، تشارلز وورث : المرجع السابق ، ص١٩٤ - ٢٠٠ ، راجع أيضا Ostrogorsky, op. cit., 31 ff., 37 ff.; Baynes and Moss, op. cit., 280 ff.; Barker, op. cit., 32—3; Rostovtzeff, op. cit., 279 ff.; Jones, Constantine and the Conversion of Europe, 12-4, 17-28; Baynes, Byzantine Studies, 173 ff.; H. M. D. Parker, A Hist. of the Roman World from A. D. 138 to 337 (1958), 223—39, 262—90 المترجم .

وبين الشعب العامل . وهذا ما يمكن أن يقال عند المفارقة بين المـواطنين وغير المواطنين : إذ حل محل الرق فى معظم الحالات أشكال من التبعيـة فى كل من التجـارة والزراعة ، [حيث حل محـل جماعات الرقيق المـكلفين بأعمال الزراعة جيش من صغار المستأجرين] . ونظمت كافة المهن والحرف فى شكل طوائف متوارثة ، كل منها يقوم بخدمة الدولة فيما تخصص فيـه من نشاط وكفاية : وأصبحت أوجه النشاط السياسي التي مارسها كافة المواطنين فى دولة المدينة ، شأنها شأن الأوامر العسكرية والإدارة المدنية ، تمثل مزايا لطبقة جديدة ، هى طبقة البيروقراطية الامبراطورية التي كانت أعلى درجاتها مخصصة لأعضاء الأرستقراطية المالكة للأرض [والتي لم يعد بقاؤها مرتبطا بالحياة فى المدينة] . ومن ثم قام نظـام دقلديانوس وخلفـائه على أساس مزدوج ؛ أول شقيه هو حكم الطبقة الأرستقراطية المالكة للأرض ، والشق الثانى هو التنظيم البيروقراطى : وشاهدت هذه الحقبة من الزمن تطورا كاملا فيما يتعلق بعملية إدارة دفة السياسة الحـكومية وظلت جميـع خصائصهـا الهامة ؛ ونعني بهـا تقسيم العمل ، وانفصال الطبقـات ؛ ومشروع سلم تصاعدى للسلطات الإدارية ؛ وتعيينات وترقيات ضمن نظام مدروس بعناية للرتب والاجور تشرف عليه الحكومة المركزية بمن فيها من الـكتبة العديدين فى كافة المراتب (١) .

---

(١) فيما يتعلق بالنظام البيروقراطى فى روما أنظر كتاب **L. Homo, Roman Political Institiutions from City to State, London, 1929.**

وكذلك تشارلز وورث : المرجع السابق ، وبخاصة الفصل الأول الذى يتحدث عن شخص الامبراطور ومركزه ومعاونيه (ص١٨-٣٧) ، والفصل =

ولا يمكن القول بأن هذا الشكل من البيروقراطية [الذى نما خلال القرون الثلاثة الممتدة من عهد اوغسطس إلى عهد دقلديانوس] مأخوذ عن نظام دولة المدينة ، بمجرد عملية اقتباس تتفق مع ضروريات عالم متغير : وإنما يمثل هذا الشكل من البيروقراطية فى الغالب ظاهرة جديدة فى المجتمع اليونانى والرومانى صيغت جزئيا وفقا لنموذج الاقطاعات الكبيرة فى العالم الهلينستي (١) ، وبخاصة فى مصر التي تم الاستيلاء عليها بوصفها جزءا من الدومين الامبراطورى : ولم يكن من الميسور إدارة الإقطاعات الشاسعة من الأرض إلا بمعرفة جهاز مختص من الاداريين الأرقاء . وكان البلاط الامبراطورى يدير شئون الامبراطورية بنفس الطريقة . وقد أنشىء مركز جديد للادارة الامبراطورية يتكون أساسا من رجال الامبراطور الذين تم تحريرهم : ولا تزال توجد آثار لهذا الأصل حتى بعد أن تغير الطابع الاجتماعى لهيئة الموظفين . وكان الموظفون الجدد تابعين شخصيا للامبراطور الذى أصبح ، بصفته مالكا أو سيدا « dominus » ، يمثل السلطة الوحيدة المهيمنة على الدولة . كما استحال الطابع

= الثانى ويتناول الجيش والأسطول (ص ٣٨-٦٠) . أنظر أيضا بحث الدكتور لطفى عبد الوهاب يحيي وعنوانه « مقدمة فى نظم الحكم عند اليونان والرومان - دراسة فى حضارة البحر الأبيض » الاسكندرية ١٩٥٨ : راجع قائمة المراجع المذيل بها هذا الفصل . المترجم :

(١) فيما يتعلق بالأساس الهلينستي للنظم الامبراطورية ، انظر كتاب روستوفتزف وخاصة خاتمة M. Rostovtzeff, The Social and Economic History of the Hellenistic World (1941), II, 1307-10 المؤلف :

وجدير بالذكر أن هناك فارق بين العالم الهليني والعالم الهلينستي . فالأول =

الذى يميز الماجيستر (١) « magistrate » ، وهو من كبار موظفى الجمهورية الرومانية إلى ما عرف بالسلطة أو السيادة « imperium ». أما البيروقراطى فقد كان رجل « عمل وخدمات » :

ولقد كان شكل الدولة وطابع عملها المعقد بمثابة التمهيد الأولى لقيام هذه البيروقراطية ؛ بينما أدى تعدد أوجه نشاط الدولة إلى المركزية . كما يسر الاقتصاد النقدى قيام بيروقراطية أخصائية مأجورة ، حيث أصبح تركيز

= اصطلاح يطلق على العالم اليونانى وحضارته منذ الغزو الدورى حتى الاسكندر الأكبر . أى اعتبارا من القرن التاسع قبل الميلاد حتى سنة ٣٣٦ ق . م . أما ما بعد الاسكندر فيطلق عليه العالم الهللينستي الذى شمل بلاد اليونان والممالك الشرقية بعد فتح الاسكندر لها . أنظر عن ذلك كتاب A. Toynbee, Hellenism : The History of Civilization, London, 1959 . وكذلك ترجمته العربية : توينبي: تاريخ الحضارة الهيلينية ـ ترجمة رمزى عبده جرجس ـ مراجعة الدكتور محمد صقر خفاجة ـ القاهرة ١٩٦٣ ؛ و . لانجر : موسوعة تاريخ العالم ، ج٢ (١٩٥٩) ، ص ١٩٤ - ٢٢٠ . المترجم .

(١) هو من كبار الموظفين فى روما ، ووظيفته كانت أصلا نوعا من وظيفة القنصلية ، كما لو كان شاغلها قنصلا ثالثا أنظر Smaller Classical Dictionary, 410. وذكر ستيفن رنسيمان أن لقب « ماجيستر » ظهر كذلك فى الدولة الرومانية الشرقية فى القرن العاشر . وقد تزايد عدد هؤلاء السادة الذين اطلق عليهم لفظ magistri زيادة كبيرة . واندثر اللقب المذكور قبل عصر آل باليولوجس . انظر رنسيمان : الحضارة البيزنطية ،ص٩٢ - ٩٤ المترجم .

العديد من الوظائف فى يد شخص واحد هو الطابع المميز لوظيفة الماجيستر فى دولة المدينة : وهناك اتجاه مضاد قلما يكون أقل أهمية فى مجالات أخرى معينـــة فى عهد دقلديانوس : وقد ثبتت دعائم الاقطاعات الشاسعـــة فى هذا العصر بصورة مطردة بوصفها وحدات لها كفاية ذاتية تهدف إلى إقامة حاجز بين صغار المستأجرين والسلطات العامة . ومن ثم تحـــددت دائرة العمـــل الديموقراطى (١) : ويعتبر النزاع بين هذين العنصرين فى التنظيم الاجتماعى

---

(١) مر هارتمان فى هذه الفقرة مرورا سريعا على العامل الحاسم للتخلف الاقتصادى الذى تحكم فى مصير التطور بعد نهاية القرن الثـــانى . أنظر Cambridge Ancient History, vol XII, cap. 4l, 232—81 راجع كذلك كتاب Rostovtzeff, Roman, Empire, 302 ff. -وليس بوسعنا فهم نظام دقلديانوس البيروقراطى دون أن نأخذ فى الاعتبـــار أن النظام المذكور إنما يمثل محاولة هدفها إرساء الكيان السياسى على قاعـــدة اقتصادية شديدة التنظيم . وليس إغفال هارتمان لذلك مجرد عمليـــة المقصود منها التبسيط . بل يحتمل أن يكون قد نتج عن وضعه وموقفه من منـاقشة طابع الاقتصاد القديم . وهو يقف إلى جانب ك. بيشر k. Bücher الذى صنف الاقتصاد القديم كله باعتباره اقتصادا يمت بصلة إلى مرحلة التطور البدائية : كذلك يقف إلى جانب اد . ماير Ed. Meyer الذى كان يعتقد أن الأحوال الاجتماعية فى العالم القديم قد بلغت درجة من التقدم الاقتصادى توازى تقدم أوروبا الحديثة قبل اختراع الآلات البخارية فى نهاية القرن الثامن عشر : ولم يسلم هارتمان بمثل هذه النهاية للمشروع الرأسمالى فى الحقبة الهللينية وفى عهد أوغسطس . وهو يرجع بعض عناصره فقط إلى نهاية التاريخ القديم ، وذلك لتوضيح وضع المجتمع البيزنطى الفريد فى نوعه فى القرون الوسطى المبكرة : ويبدو أن أفضل تحليل للمشكلة، من وجهة نظر التاريخ =

المفتاح الذى يؤدى بنا إلى إلى التعرف على الدولة فى العصور الوسطى المبكرة: ولقد كان أحدهما أو الآخر هو الغالب والمتسلط وفقا للزمان والمكان ؛ وثمة سلسلة كاملة من الخلافات بين البيروقراطية الصميمة والدولة الاقطاعية البحتة . وعلى العموم ، فقد تم تطبيق هذين النظامين فى كل من الشرق والغرب :

= العام، إنما يوجد فى الفصل الذى كتبه ماكس ويبر Max Weber عن دور المدينة فى تطور الحضارة. أنظر Wirtschaft und Gesellschaft (1925), vol. II, cap 8, 514—601 (هـ . ليبشيتز)

بعض المراجع للفصل الأول

Albertini, E., L'empire romain. Paris, 1929.

Ashby, T., The Roman Campagna in Classical Times. London, 1927.

Barrow, R. H., The Romans. Aylesbury and London, 1955.

Burgh, W. G. de, The Legacy of the Ancient World. 2 vols. London and Tonbridge, 1955.

Carcopino, J., Daily Life in Ancient Rome. Aylesbury,1956.

Cary, M., A History of the Greek World from 323 to 146 B. C. London, 1932.

Cary, M. and Haarhoff, T. J., Life and Thought in the Greek and Roman World. London, 1942.

Coulanges, Fustel de, La cité antique. Paris, 1910.

Cruickshank, A. M., Christian Rome, New York, 1911.

Dill, S.,

1 — Roman Society from Nero to Marcus Aurelius. London, 1937.

2 — Roman Society in the Last Century of the Western Empire. New York, 1960.

Duruy, V., Histoire des Romains depuis les temps les

plus reculés jusqu'a l'invasion des Barbares. 7 vols. Paris, 1882—1900.

Finlay, G., A History of Greece from its Conquest by the Romans to the Present Time (B. C. 146 to A. D. 1864). New ed. by H. F. Tozer. 7 vols. Oxford, 1877.

Fowler, W. W.,

1 — Social Life at Rome in the Age of Cicero London, 1908.

2 — Rome. Revised by M. P Charlesworth. London, 1957.

Gardner, E. A., Ancient Athens. New York, 1907.

Glotz, G., The Greek City and its Institutions London, 1929.

والكتاب مزود بقائمة قيمة بالمصادر الأصلية والموسوعات والمراجع العامة .

Glover, T. R., The Ancieut World. London, 1953.

Grote, G., A History of Greece from the Time of Solon to 403 B. C. ed. by J. M. Mitchell and M O. B. Gaspari. London, 1930.

Hartmann, L.M., Ein Kapitel vom spätantiken und frühmittelalterlichen Staate. Stuttgart, 1913.

وهو العنوان الأصلي لبحث هارتمان الذى قمنا بنقله إلى العربية فى هذا الكتاب . وفيه عرض دقيق لأوجه الخلاف بين الامبراطورية البيزنطية فى الشرق وبين مملكتي الفرنجة واللمبارديين فى الغرب .

Hirschfeld, O., Die kaiserlichen Verwaltungsbeamten bis Diokletian. 1905.

Holmes, T. R , The Roman Republic and the Founder of the Empire. 3 vols. Oxford, 1923.

Homo, L., Roman Political Institutions from City to State. London, 1929.

وهو من المراجع الهامة فيما يتعلق بالأنظمة السياسية عند الرومان :

Jardé A., The Formation of the Greek People. London, 1926.

Jones, A. H. M.,

1— The Greek City from Alexander to Justinian. Oxford, 1940.

2— The Later Roman Empire. 3 vols. & maps. Oxford, 1964.

Kaemmei, O., Rom und die Campagna. Leipzig, 1902.

Kitto, H. D. F., The Greeks. London, 1954.

وقد قام بترجمته الى العربية تحت اسم « الاغريق » عبد الرازق يسرى، وراجعه الدكتور محمد صقر خفاجة (القاهرة ١٩٦٢) :

Leclerq, A. B., Manuel des institutions romaines. Paris,1931.

Lot, F., La fin du monde antique et le début du moyen âge. Paris, 1927.

Marsh, F. B., A History of the Roman World from 146 to 30 B. C. London, 1934.

Michelet, J., Histoire de la république romaine. Paris, 1866.

Myers, J. L., Who were the Greeks? California, 1930.

Niebuhr, B. G., The History of Rome. 5 vols. London, 1837—44.

Paul—Louis, Ancient Rome at Work: An Economic History of Rome from the Origins to the Empire. London, 1927.

Ridgeway, W., The Early Age of Greece. 2 vols. Cambridge, 1931.

Robinson, C. E., A History of Greece. London, 1945.

Rostovtzeff, M.,

1— The Social and Economic History of the Roman Empire. Oxford, 1926.

2— The Social and Economic History of the Hellenistic World. 2 vols. Oxford, 1941.

3— A History of the Ancient World. Trans. from the Russian by J. D. Duff. 2 vols. Oxford, 1936—38.

Sandys, J., Aristotle's Constitution of Athens. London, 1893.

Scullard, H. H., A History of the Roman World from 753 to 146 B. C. London, 1935.

Showerman, G., Eternal Rome: The City and its People from the Earliest Times to the Present Day. 2 vols. New Haven, 1924.

Syme, R., The Roman Revolution. Oxford, 1939.

Tomassetti, G., La Campagna romana antica, medioevale e moderna. 4 vols. Rome, 1910—26.

Tucker, T. G.,

1— Life in Ancient Athens. London, 1907.

2— Life in the Roman World of Nero and St. Paul. London, 1910.

Whibley, L., Greek Oligarchies: Their Character and Organisation. Cambridge. 1913

الفصل الثانى

الدولة البيزنطية

تكشف المصادر التى تحت أيدينا اعتبارا من وثيقة «التعريف بالرتب»(١) Notitia dignitatum التى ترجع إلى اوائل القرن الخامس، حتى كتابات الامبراطور قسطنطين بورفيروجنيتوس(٢) فى القرن العاشر، عن تطور الدولة

---

(١) هذه الوثيقة غير معروف تاريخها بالضبط. وهى تتحدث عن نظام الأقاليم فى الامبراطورية البيزنطية بعد عصر دقلديانوس. ويمكن القول بأنها عبارة عن قائمة رسمية بوظائف البلاط وغيرها من الوظائف والرتب المدنية والعسكرية. كما أنها تشمل بيانا بالأقاليم المختلفة. وهى تشير الى التغييرات التي طرأت على نظام إدارة الأقاليم الذى أدخله خلفاء دقلديانوس، وكذلك عدد الأقاليم، مع سرد للوقائع والأحداث فى اوائل القرن الخامس. ومن هنا يرى البعض أن تاريخ الوثيقة المذكورة يرجع إلى القرن الخامس. أنظر A. A. Vasiliev, Hist. of the Byzantine Empire (1961), I, 63. وقد قام الأستاذ جونز بنشر هذه الوثيقة مع دراستها والتعليق عليها فى كتابه: A. H. M. Jones, The Later Roman Empire (1954), vol. III, Appendix II, 347-80 المترجم.

(٢) يعرف باسم قسطنطين السابع. شغل الوظيفة الامبراطورية فى بيزنطة من سنة ٩١٣ إلى سنة ٩٥٩ وكان فى السابعة من عمره عندما توفى ابوه ليو السادس، فتولى شئون الدولة اثناء قصوره مجلس من الأوصياء. وكانت =

البيروقراطية فى بيزنطة (١) إلى أن بلغت ذروتها . فأن يكون امبراطور ما مؤلفا غزير المادة وحجة رائدة فى هذا الميدان ، إنما هو دلالة واضحة تمام

= البلاد فى فترة الوصاية التي امتدت من سنة ٩١٣ إلى سنة ٩٤٤ مسرحا للفوضى والاضطرابات ، عندما انصرف المتآمرون إلى تدبير المؤامرات للوصول إلى الحكم . وتسلم قسطنطين الحكم اعتبارا من سنة ٩٤٤ . ولكنه لم يكن صالحا للوظيفة الامبراطورية ، إذ انصرف إلى الكتابة والتأليف تاركا أمور الدولة لزوجته الامبراطورة هيلانة . ومما يذكر عنه أنه وجه اهتماما كبيرا إلى شئون العلم والتعليم ليس فى القسطنطينية فقط ، وإنما فى الأقاليم كذلك . ومن مؤلفاته التي خلفها لنا « كتاب الأقاليم » أو « المناطق العسكرية » ، وكتاب « تنظيم الإدارة فى الامبراطورية » ؛ وآخر عن حياة جده بازيل المقدونى ، وكتاب باسم « مراسم القصور » انظر عن ذلك :
Baynes and Moss, op. cit., 230—1; Hussey, op. cit., 169—70;
Diehl, L'empire byzantin, 94. — وكذلك السيد الباز العريني : الدولة البيزنطية (١٩٦٠) ، ص ٣٤٤ وما بعدها . المترجم .

(١) المقصود بالبيروقراطية البيزنطية الجهاز الحكومى الضخم الذى كان يتولى إدارة شئون الامبراطورية فى الداخل والخارج ، مع تهيئة وسائل الأمن والاستقرار لها ، وتنظيم سبل الدفاع عنها . وكان هذا الجهاز معقدا متشابكا محكما ، باهظ النفقات ، يستلزم إيرادا ضخما للدولة . وكان على رأسه الامبراطور الذى استغرقت واجباته ومهام الحكم ومسئولياته كل وقته . ويليه أعيان الامبراطورية وموظفوها مرتبين ترتيبا دقيقا حسب منزلتهم ودرجاتهم . وكان بالامبراطورية ألقاب غير وراثية تمنح حامليها أسبقية فى المجتمع ولا تحمله واجبات . وهنالك أيضا ألقاب تشريف . هذا بينما كانت معظم الوظائف الكبرى فى الدولة تحمل معها رتبة معينة =

الوضوح على الطابع الذى تميزت به الحضارة البيزنطية (١) :

وقد أدرج قسطنطين فى كتيبه الخاص بإدارة الدولة أسماء الموظفين التابعين لسلطة أعلى فى كل قسم من الأقسام تحت عنوان «تحت الطلب» "sub dispositione" . وتدل هاتان الكلمتان على جوهر تلك القوى فى الامبراطورية البيزنطية ، التى تميزت بعدائها الشديد للاستقلال المحلى . وقد

= ولم تظل هذه الرتب والوظائف ثابتة ، ولكنها كانت تتغير على مر القرون التى عاشتها الامبراطورية . وهناك ثلاث وثائق تاريخية معاصرة للعصر البيزنطى أمكن عن طريقها تكوين فكرة إجمالية عن النظام الادارى البيروقراطى فى بيزنطة ، إحداها من القرن الخامس وهى الوثيقة المعروفة باسم « التعريف بالرتب » ، والثانية ترجع إلى أوائل القرن العاشر وعنوانها « كليتيرولوجيوم Cleterologium » من تأليف فيلوثيوس ، والثالثة ترجع إلى القرن الرابع عشر وهي خاصة بالوظائف « de officiis » وتنسب خطأ إلى كودنيوس . وكيفما كان الأمر فقد كان الطابع الغالب على الامبراطورية هو جعل الوظائف الرسمية مناصب شرف ، مع العمل على صبغ الإدارة بصبغة بيروقراطية والمزيد من التفاصيل عن النظام الادارى وعن الوظائف والألقاب وما يتبعها ، انظر رنسيمان : الحضارة البيزنطية ص ٨٨ وما بعدها ؛ وكذلك Baynes & Moss, Byzantium, 280 ff. المترجم .

(١) يتناول كتاب Byzantium: An Introduction to East Roman Civilization, edited by Norman H. Baynes and H. St. L. B. Moss (1948) ، مختلف مظاهر تلك الحضارة . وهو مذيل بالمراجع النافعة المفيدة . المؤلف - انظر كذلك قائمة المراجع المذيل بها هذ الفصل . المترجم

كشفت عن نوع من التفكير الذى ربط الدولة بنظام سلم تصاعدى للموظفين الرسميين . وكانت القاعدة الاقتصادية للدولة البيزنطية هى الضرائب التى حلت منذ إصلاح دقلديانوس (١) محل الدومين الامبراطورى بوصفها المصدر الرئيسى للدخل العام . وكانت الدولة تحصل على الدخل من الرسوم، وعن طريق نظام للضرائب يختلف تبعا لنوع العمل والحالة الاقتصادية للمواطنين فى المدن والبلدان (٢). ولقد جندت الدولة جيشا نظاميا ،وجهزته بكل ما يلزمه من عدة وعتاد . كما شيدت حصونا واستحكامات دائمة ، وقامت بالمحافظة عليها . وشيدت كذلك سفنا حربية ، وأبقت عليها فى حالة جيدة ، وزودتها بأطقم من البحارة . وتم بهذه الوسيلة إرساء كل الخدمات

---

(١) وجه دقلديانوس اهتماما خاصا إلى الناحية الاقتصادية المتدهورة فى الامبراطورية ، فعمل على تثبيت العملة . ولكن محاولاته فى هذا الصدد لم تصادف النجاح المأمول . فلم يستطع إرجاع قيمة العملة إلى ما كانت عليه أيام الامبراطور اوغسطس وأدى إسرافه فى محاولاته إصدار عملة خالصة العيار إلى ارتفاع الأسعار . ولمواجهة هذا الموقف أصدر دقلديانوس عام ٣٠١ قانونه المشهور الذى يحدد ثمن كل سلعة على حدة . ولم يصادف هذا القانون هو الآخر أى نجاح . وترك لخلفه قسطنطين الكبير مهمة وضع عملة الامبراطورية على أثاث ثابت . أنظر تشارلزوورث : الامبراطورية الرومانية ، ص ١٩٨ ، Ostrogorsky, op. cit., 34, 37—8; Runciman, Byzantine Civilisation, 22; Jones, Constantine and the Conversion of Europe, 4—5, 24—5 — المترجم .

(٢) يتعرض اندريه م . اندرياديس André M. Andréadès فى كتاب Baynes and Moss, op. cit., 71—86 ، للمالية العامة وتتناول العملة والمصروفات والايرادات العامة والميزانية .

العامة ، من حيث الكم والكيف ، على قاعدة شبه دائمة ، وأصبحت فى غنى عن أية معاونة عارضة كما كان يحدث فى الغرب عندما يهب الرعايا لتلبية نداء السيد اللورد عند الضرورة (١) . وكثيرا ما يبدو للزائر القادم من الغرب كما لو أن الامبراطور البيزنطى قد احتكر التجارة كلها ، وجمع كل الأرباح الناتجة عنها فى خزانته الخاصة . ومع أن تقرير البرت الآخى Albert of Aachen(٢) القائل بأن خزانة الامبراطور لا سبيل إلى تفريغها مهما بلغت

---

(١) يتصل هذا بالنظام الاقطاعى الذى ساد أوروبا فى العصور الوسطى : وهو يرتبط بالأرض ، وحضارته حضارة زراعية ريفية ، وقوامه العلاقة بين السيد والمسود . وكان التابع يتعهد لسيده المتبوع بالقيام بواجباته الإقطاعية بعد أن يحلف بين يديه يمين الطاعة والولاء ، حيث يعد بطاعته وحمايته والدفاع عنه ، وتلبية ندائه ، ومساعدته بالقتال فى صفوفه ضد أعدائه ، والاجتماع به من وقت لآخر للتشاور معه فى كل ما يهم السيد اللورد من الشئون ، مثل إعلان الحرب أو السلم أو عقد المعاهدات ، وهكذا. فضلا عن الالتزامات والقيود وواجبات التبعية العديدة المقررة على الفلاح أنظر ج . و . كوبلاند و . ب فينوجرادوف : الاقطاع والعصور الوسطى فى غرب أوربا (١٩٤٨) ، ص ٦٤-٦٥ ، سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ، ج ٢ ، ص ٤٣ - ٦٢ ، ابراهيم العدوى : المجتمع الأوربى فى العصور الوسطى ، ص ١١١ - ١٤٢ ، جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين ، ص ١٩١ — ١٩٢ ح ١ ، راجع أيضا :
C. Stephenson, Med. Feudalism (1942), 18—9 ; Downs, op. cit., 48 ff.; Heer, op cit., 17—20 — المترجم .

(٢) البرت الآخى هو مؤرخ حملة جودفرى دوق اللورين السفلى من زعماء الحرب الصليبية الأولى . وكل ما نعرفه عنه أنه من مدينة اكس لاشابل (آخن) الألمانية . ويعتبر كتابه الذى ألفه باللاتينية تحت اسم =

النفقات (١) ، إنما كان ضربا من المبالغة ، إلا أنه كثيرا ما كانت حالة بيزنطة المالية سيئة مرتبكة . وعلى الرغم من ذلك فقد كانت الحقيقة ماثلة ، إذ مكنت هذه المقدرة فى التنظيم المالى الامبراطورية الشرقية من البقاء الف عام فى مواجهة هجمات السلاف والعرب (٢) . كما أكد هذا التنظيم وذلك المركز المالى تفوق السياسة

= « تاريخ بيت المقدس » من أفضل الوثائق التى كتبت عن الحملة الأولى وتاريخ مملكة اللاتين فى الأراضي المقدسة من سنة ١١٠٣ إلى ابريل سنة ١١٢٠ . أنظر عن ذلك جوزيف نسيم يوسف: المرجع السابق،ص١٠-١١ والحواشي ؛ السيد الباز العريني: مؤرخو الحروب الصليبية(١٩٦٢)؛ص٦٦-٩٨، M. Michaud, Bib. des Crois, (1822), I, 50 ff.; C. Cahen, La Syrie du Nord a l'époque des Crois. (1940), 12—3 & notes; S. Runciman, Hist. of the Crusades (1954), I, 331 - 2, 336, 340 المترجم .

(١) Alberti Chronicon Hierosolymitanum De bello sacro, II, 16 وقد وضع هذا التاريخ عن الحروب الصليبية فى النصف الأول من القرن الثانى عشر . ويناقش ر . س . لوبيز R. S. Lopez فى مقالته « صناعة الحرير فى الامبراطورية البيزنطية » "Silk Industry in the Byzantine Empire", Speculum XX, (1945), 1-42 موضوع التجارة التى تميز بوضوح طابع السياسة الاقتصادية فى بيزنطة نظرا لأهميتها التصديرية الفائقة .

(٢) عمرت بيزنطة قرابة الف عام بعد زوال الامبراطورية الرومانية القديمة . ولهذا أسبابه التى أدت اليه ، ومن أهمها حصانة بيزنطة نفسها ومناعة عاصمتها القسطنطينية بصفة خاصة . ثم تميز أباطرتها بالدهاء والحكمة وبعد النظر . ويتضح هذا فى موقفهم من اللاتين والعناصر الجرمانية والعرب خلال القرون المتعاقبة التي عاشتها الامبراطورية . كذلك استفادت =

البيزنطية على ممالك الغرب الجديدة ، مع السماح لها بالتغلب على الكوارث والمحن التى حلت بها ، وبأن تضمن لنفسها لفترات طويلة مركزا مسيطرا فى عالم البحر الأبيض المتوسط . وقد عمد المؤرخون إلى تجاهل هذا التفوق، لأنهم ركزوا اهتمامهم على تطور الغرب . ومع ذلك فقد كانت المفارقة فى الكيان السياسى بين كل من الشرق والغرب هى الصفة الغالبة فى القرون الوسطى المبكرة . ويكمن لغز الدولة البيزنطية ، التى ظلت قوة عظمى على الرغم من كل خسائرها الإقليمية ، فى تنظيمها الاقتصادى والاجتماعى،

= الدولة البيزنطية من الأخطاء التى وقعت فيها الامبراطورية الرومانية القديمة ، فاستخدمت عناصر مختلفة فى جيوشها ضمانا لعدم توحيد كلمة الجيش تحت إمرة قائد واحد مما يعرض سلامة الدولة للخطر مثلما حدث فى الغرب . يضاف الى ذلك عدم انغماس حكام بيزنطة فى اللهو والترف والملذات ، وتوجيه كل همهم إلى النهوض بدولتهم . وكان الدستور البيزنطى ، ونظامها الإدارى المحكم ، وسياستها المالية المتينة القائمة على الاقتصاد النقدى — أثره الفعال فى الابقاء على الدولة طيلة هذه المدة . يضاف إلى ما تقدم عدة عوامل أخرى من أهمها شخصية الأباطرة البيزنطيين أنفسهم ، ووجود نظام ثابت للوراثة والوصاية فى الكرسى الامبراطورى ، وتركيز السلطة الدينية والدنيوية فى شخص الامبراطور . كل هذه العوامل وغيرها أدت مجتمعة إلى بقاء الدولة أكثر من عشرة قرون من الزمان. أنظر عن ذلك Runciman, Byzantine Civilsation, 14 ff ; Diehl, L'empire - byzantin, 1-5; Hussey, op, cit., 11 ff. ولا يخلو مرجع من مراجع التاريخ البيزنطى من الإشارة فى أحد أبوابه أو فصوله الى أسباب قوة بيزنطة وصمودها أكثر من عشرة قرون أمام المحن والهزات التي تعرضت لها . المترجم =

إذ استطاع أقصى توسع اقتصادي بلغته بيزنطة تغذية شعب أكثر عددا. هذا بينما كان تنظيمها قادرا على جمع موارد الدخل ووضعها تحت تصرفها بصورة أقوى مما كان فى مقدور دول الغرب التى اعتمدت في ذلك على الاقتصاد الطبيعي. وتحفل حوليات بيزنطة بالأخبار التى تتناول الدسائس التى كان يدبرها رجال البلاط، والثورات التى كان القصر مسرحا لها بيد أنه فيما يختص بالحياة فى بيزنطة، فقد ظل النظام الادارى ساريا دون أن ينقطع (١). ولم تمس عوامل الاضطراب هذه الدولة المركزية إلا بصورة سطحية. وسارت عجلة الإدارة دون توقف، بغض النظر عن الفريق الذى يدير دفة الحكم فى وقت من الأوقات. ولم تطرد الدولة نسمة واحدة من الحياة خارج دائرة نشاطها. وكان ذلك كله ميسورا مع مراعاة الابقاء على سياسة الاقتصاد النقدى وما يترتب عليها، ونعني بذلك تقسيم العمل. إذ لم يكن بوسع الإدارة الامبراطورية القيام بأى عمل إلا فى شكل وحدة نزيهة منصفة. ذلك أن العمل الفردي لم يؤد إلى أية نتيجة مثمرة.

وتميزت الكنيسة البيزنطية، التي ظلت دائما جزءا من الدولة، بوضعها الخاص، على الرغم من أهميتها الاقتصادية والثقافية. وكان من المتعذر قيامها بحركة إستقلالية. فقد تدخلت أجهزة الدولة فى كل شىء، ولم يكن

(١) للمزيد من التفاصيل عن النظام الإدارى فى الدولة البيزنطية، أنظر Runciman, Byzantine Civlisation, 81 — 107; Baynes & Moss, Byzantium, 268 — 307; Diehl, Byzance, 67 — 86.
انظر أيضا الترجمة العربية لكتابى رنسيمان: الحضارة البيزنطية، ص ٨٨ - ١٢٢، ن. بينز: الامبراطورية البيزنطية (١٩٥٠)، ص ١٤٥—١٦٦.
المترجم

ثمة مكان للإستقلال الكنسي : وكانت تلك الوظائف المدنية التي تولتها الكنيسة فى غير هذا المكان (١) ، تحتفظ فى الدولة البيزنطية بطابع الخدمات العامة (٢) . أما الاقطاعات الشاسعة وطبقة كبار ملاك الأرض ، فقد قاما فى الحقيقة بدور هام فى الشرق . وكانت هذه الظاهرة تقدر فى بيزنطة بميزان المحافظة على طبقة الفلاحين التي نجحت [بفضل تشريع الحكومة المركزية] فى التمسك [لعدة أجيال] (٣) باستقلالها عن رقابة صاحب الأرض ، وذلك على الرغم من صراع مرير طويل من أجل البقاء . وإلى جانب الشعب الريفى وسكان المدن الآهلة الذين يعملون فى التجارة ، احتفظ كبار ملاك الأرض لأنفسهم دائما ببعض الأهمية . فاذا طبقنا اصطلاح « الاقتصاد الاقطاعى » „ manorial economy „ على تلك الجهات التي سادت فيها الاقطاعات الكبيرة ، وجب إدراك أهمية الفوارق بين أشكالها فى كل من الشرق والغرب . إذ تطور التنظيم الزراعى فى كلا الشقين ، منذ البداية ، فى ظروف مختلفة متباينة . ففى الشرق الهللينستي استمرت المدن بصفة دائمة العمود الفقرى للتنظيم الاجتماعي . هذا ، بينما ظلت المسافات بين المدن " civitates " في الغرب اللاتينى واسعة ، بحيث كان ثمة متسع لتنمية اقتصاد زراعى بحت .

---

(١) يقصد المؤلف الغرب . المترجم

(٢) I. M. Hussey, Church and Learning in the Byzantine Empire, 867 — 1185 (1937) , 22 — 116 . ويلقى هذا الكتاب ، على أقل تقدير ، بعض الضوء على الطابع العلمانى الجوهرى للتعليم العالى .

(٣) يقدم ج . استروجورسكى تحليلا لشخص متخصص فى هذا الكفاح فى مقالته G. Ostrogorsky, " Agrarian Conditions in the Byzantine Empire " , The Cambridge Economic History, vol. I, 204-23.

ولم تحقق الاقطاعات الضخمة فى الشرق مثل هذه الدرجة الكبيرة من العزلة الاقتصادية و الاكتفاء الذاتى ، ولم تخصص لها وظائف عامة كما كان الحال فى الغرب (١) ، وقامت بالتزاماتها العامة عن طريق دفع الضرائب ؛ وكان قيام موظفى الامبراطورية بتحصيل الضرائب ، ولو أنهم لم يتصلوا اتصالا مباشراً بالمستأجرين من صاحب الأرض ، كافيا لنفى ادعاء الموظفين العموميين الذى يحصل بموجبه ملاك الأرض فى الغرب على قسط من السلطة العامة ، وتبعا لذلك تأجل قيام نظام اقطاعى أصيل في بيزنطة . ولا يمكن تتبع آثاره فيها إلا إلى ماقبل الحرب الصليبية الأولى (٢) .

وللتأكد من ذلك ، يبدو أن هناك أوجه شبه سطحية بين الاقطاع فى الدول الجرمانية وبين النظام العسكرى فى الامبراطوريه الشرقية . ففى كلا الحالين ، كانت القوة الضاربة فى الدولة تقوم من الناحية الاقتصادية على تملك الأرض ؛ هذا وبإقامة قوات الحاميات فى الشرق عند حدود الأقاليم بدأ التطور الذى

---

(١) أنظر عن ذلك كولتون : عالم العصور الوسطى ، ص٣٧ - ٥٨ ، كوبلاند وفينوجرادوف : الاقطاع والعصور الوسطى فى غرب أوربا ، ص ١٢٦ وما بعدها . المترجم .

(٢) Carl Neumann, La Situation Mondiale de l'Empire avant les Croisades, Paris, 1905 — وكان قد صدر الأصل الألمانى للكتاب المذكور سنة ١٨٩٤ ، وهو يصف اصطدام النصر النهائى للاقطاع بالوضع العسكرى والسياسى فى الدولة البيزنطية - المؤلف.

انظر ايضا البحث القيم الذى كتبه هـ . كنتوروفيتش H. Kantorowicz وعنوانه « الاقطاع فى الامبراطورية البيزنطية » فى كتاب R Coulborn (ed.), Feudalism in History (1956), 151—166 — المترجم .

استمر فى عهد جستنيان (١)، [وقام هرقل (٢) باستكماله بعناية فى منتصف

---

(١) حكم جستنيان من سنة ٥٢٧ إلى سنة ٥٦٥ . وتميز عهده بمحاولاته إحياء الدولة الرومانية القديمة ، وذلك باستعادة الأراضي التي كانت قد استولت عليها قبائل البرابرة فى الغرب وقد تمكن فعلا من ضم معظم الممالك الجرمانية إلى حكمه ، حتى أن المعاصرين له اعتقدوا أن الامبراطورية القديمة قد تم إحياؤها من جديد . ولكن الحقيقة أن امبراطورية جستنيان لم تكن إلا شبحا للدولة القديمة التي كانت قد زالت فعلا فى أخريات القرن الخامس. ولعل أهم الآثار التي خلدت جستنيان ليست امبراطوريته ، وإنما مجموعة القوانين الرومانية التي قام بجمعها وتسجيلها . فضلا عن عنايته بالبناء والتعمير، وأمور العلم والتعليم . أنظر ش . أومان: الامبراطورية البيزنطية (١٩٥٣)، ص ٥٢ - ٨٨ ، السيد الباز العريني : الدولة البيزنطية (١٩٥٣) ، ص ٥٦ وما بعدها، وكذلك Diehl, L'Empire Byzantin, 21 ff.; Ostrogorsky, op. cit., 63 ff.; Barker, op. cit., 54 ff. - المترجم

(٢) جلس هرقل على العرش البيزنطى من سنة ٦١٠ إلى سنة ٦٤١. وكانت الامبراطورية وقت توليه الحكم مرتعا للفوضى والفساد فى الداخل والخارج : ففي الداخل كانت بيزنطة قد افتقرت تماما ، أما فى الخارج فقد كانت الأخطار تهددها من ناحية الآفار والسلاف والفرس . ويتميز حكمه بالكفاح العنيف بينه وبين الفرس الذى انتهى بفتح الفرس للشام ومصر؛ ثم الحروب المضادة التي قام بها هرقل داخل بلاد الفرس وانتصاره عليهم . ولم يقدر لهذا النصر أن يدوم طويلا ؛ إذا قام العرب بفتوحاتهم فى أواسط القرن السابع ، وانتهى الأمر بالاستيلاء على الشام ومصر من الدولة البيزنطية . وفى مارس ٦٤١ توفى هرقل ؛ وبموته انكمشت بيزنطة فى آسيا الصغرى والبلقان وولاية افريقية وصقلية . أنظر ابراهيم العدوى : الامبراطورية البيزنطية =

القرن السابع] (١) . وعلى هذا الأساس قامت الوحدة الإدارية الجديدة تحت اسم « ثياتا » (٢) أى الولايات الثغرية أو المناطق الإدارية العسكرية .

= والدولة الاسلامية (١٩٥١) ، ص ٣٦ وما بعدها ، السيد الباز العرينى : المرجع السابق، ص ١٠٢ وما بعدها . راجع أيضا Ostrogorsky, op. cit., 83-100; Hussey, op. cit., 24-6; Diehl, op. cit.. 49-54 المترجم

(١) يبدو أن البحث الحديث قد حدد تاريخ هـذا الاصلاح العظيم فى الناحيتين الاجتماعية والادارية ، مما جعل عودة الأيسوريين أمرا ممكنـا ، كما كان الحال فى القرن السابع . انظر Ostrogorsky, Cambridge Economic History, I, 196-204 . وقد أوضح هذا التحول ، للمرة الأولى والأخيرة ، أن بيزنطة كانت فى العصور الوسطى أكثر من بقاء وامتداد للعالم القديم .

(٢) يعرف نظام « الثياتا » بنظام الولايات الثغرية أو المنـاطق الإدارية العسكرية أو ألوية الثغور . ويرجع هذا النظام الى أواخر القرن السادس وخلال القرن السابع عندما أصبحت بيزنطة مرتعا للفوضى والاضطرابات ، مما استلزم البحث عن تنظيم جديد لها . وكان جستنيان قد فكر من قبـل فى منح السلطات العسكرية لحكام المقاطعات ، حتى أنه عندما أعاد فتح افريقيـة عين لها رجلا يجمع بين السلطة العسكرية وسلطة حاكم الولاية . وبالمثـل كان الوالى الذى عينه فى ايطاليا موظفا عسكريا له سلطات مدنية وعلى أية حال ، فإن تعيين مثل هؤلاء الموظفـين الذين كانوا يجمعون فى قبضتهم السلطتين المدنية والعسكرية ، كان يتم بالنسبة للمقاطعات المعرضة لخطر الحرب أو الغزو . وقد أثبتت حروب بيزنطـة مع كل من الفرس والعرب فى القرن السابع أنه لم تعد هناك مقاطعة واحدة بمنأى عن الخطر . وعلى هذا فقد كان من الضرورى أيضا جعل آسيا الصغرى ، باعتبارها قلب الامبراطورية فى حالة دفاع دائم . وأصبح مألوفا انزال الوية معينة من الجند فيهـا . وهى التى عرفت باسم « ثياتا » ، وذلك بصفة دائمة فى أقاليم معينـة . وكان قائد =

ولما كان كبار القادة الذين يتمتعون بالسلطة والنفوذ على الجند الفلاحين يتقاضون أجورا مرتفعة ، كما كان يسمح لهم بمغادرة العاصمة ، فقد أصبحوا فى الحال حكاما اقليميين ، يشرف كل منهم على أحد الأقاليم . وليس هناك ماهو أفضل من ذلك فى التعبير عن الدور الحيوى الذى أداه التنظيم العسكرى فى الإدارة المدنية . وليس لهذا التطور أى دلالة عند المقارنة بين كل من النظم البيزنطيـة ونظم الغرب الجرمانى : ولم يكن الفلاحون المجندون ، المدونة اسماؤهم ومتعلقاتهم فى سجلات رسمية ، على صلة بالاقطاعيات الكبرى : إذ حرم كبار ملاك الأرض ، من حيث المبدأ ، من الانخراط فى سـلك الجندية . أما الجندى وأسرته ، فقد كانوا يعيشون بطبيعة الحال على ما تغله مزرعتهم : وكان الجندى يتقاضى فى فترات الخدمة العسكرية مبالغ إضافية نقدا ، كما كان يأخذ معاشا من الدولة . وهكذا ، لم تشكل الكتائب الاقليمية التابعة للامبراطورية البيزنطية [وهى عبارة عن كتائب مدربة على التقشف والخشونة بمعرفة جماعة من الجند المحترفين مقابل أجر يتقاضونه على عملهم] جماعات من الجند المرتزقة الذين ظلوا فى الواقع يتمتعون باستقلالهم فى بيزنطة

= اللواء يمنح سلطات مدنية على سكان الناحية التي يتولى شئونها : وبمرور الزمن تحول الاسم ، فأصبحت الأقاليم نفسها تعرف فى مجموعها باسم «ثيماتا» أى الألوية بمعنى المناطق العسكرية . وصارت كل منها تحمل اسم فرقتهـا الخاصة النازلة بها . أنظر رنسيمان : الحضارة البيزنطية ، ص ٩٧ ومابعدها ؛ ن . بينز : الامبراطورية البيزنطيـة ، ص ١٧١ — ١٧٤ ، شارل اومان : الامبراطورية البيزنطيـة ، ص ١٣١ — ١٣٢ ؛ وكذلك
Baynes, Byzantine Studies, 62-3; Ostrogorsky, op. cit., 74, 87 ff.
المترجم .

[وبخاصة بوصفهم حرس امبراطورى حول العاصمة]: ولم تشكل تلك الكتائب كذلك « شعبا تحت السلاح » ، كما أنها لا تمت بصلة إلى تجمع رجال لأداء واجب الخدمة الاقطاعية . (١) ولم تؤد الرقابة العسكرية فى الاقاليم ، والتي جاءت كنتيجة للتنظيم الإدارى الجديد، إلى قيام نظام اقطاعى ؛ وإنما كانت تعنى أنها مجرد خطوة نحو تحقيق التوازن بين الفرعين المدنى والعسكرى [أو البحرى] لبيروقراطية واعية . هذا ، وقد ظل طابع الادارة المركزية كما هو دون أى مساس . (٢)

---

(١) فيما يتعلق بنظام الجيش والاسطول ، أنظر .Steven Runciman
Byzantine Civilization (1932), 136-55.

(٢) يحتوى كتاب فرديناند لوت على ملخص لتلك الاحداث جدير بالاطلاع عليه . أنظر F. Lot, The End of the Ancient World. The Beginning of the Middle Ages (1931).

بعض المراجع للفصل الثانى

Aussaresses, F., L'armée byzantine à la fin du VI siècle, d'après le Strategicon de l'empereur Maurice. Bordeaux, 1909.

Bailly, A., Byzance. Paris, 1939.

Barker, E. (ed.), Social and Political Thought in Byzantium from Justinian to the Last Palaeologus. Oxford, 1957.

Baynes, N. H.,

1— The Byzantine Empire. London, 1939.
2— Byzantine Studies and Other Essays. London, 1960.

Baynes, N. H. and Moss, H. St. L. (eds.), Byzantium : An Introduction to East Roman Civilization. Oxford, 1953.

Bloy, L., Constantinople et Byzance. Paris, 1917.

Boak, A. E. R., The Master of the Offices in the Later Roman and Byzantine Empires. New York, 1919.

Bréhier, L., Le monde byzantin. 3 vols. Paris, 1947—50.

يتناول لويس بريبه فى الجزء الأول تاريخ بيزنطة السياسى ، وفى الجزء الثانى النظم البيزنطية ، وفى الجزء الثالث الحضارة البيزنطية ؟

Bury, J. B.,

1— A History of the Later Roman Empire (395-800 A.D.). 2 vols. New York, 1889.

2— The Constitution of the Later Roman Empire. Cambridge, 1910

3— The Imperial Administration System in the Ninth Century, with a Revised Text of the Kletorologion of Philotheos London, 1911.

4— A History of the Eastern Roman Empire from the Fall of Irene to the Accession of Basil I (A. D 802—867). London and New York, 1912.

5— History of the Later Roman Empire from the Death of Theodosius I. to the Death of Justinian. 2 vols. London, 1923.

Diehl, C.,

1— Etudes sur l'administration byzantine dans l'exarchat de Ravenne (568—751). Paris, 1888.

2— Justinien et la civilisation byzantine au VIe siècle. Paris, 1901.

3— Etudes byzantines. Paris, 1905.

4— Dans l'orient byzantin. Paris, 1917.

5— Byzance: grandeur et décadence. Paris, 1919. English Trans. Byzantium: Greatness and Decline, 1957.

6— Une république patricienne, Venise. Paris, 1916.

7— Histoire de l'empire Byzantin. Paris, 1920.

8— Figures byzantines. 2 vols. Paris, 1925, 1927. Translated by H. Bell as "Byzantine Portraits", New York. 1927.

9— Les grands problèmes de l'histoire byzantine. Paris, 1943.

تعتبر مؤلفات كل من بيورى وشارل ديل من أفضل ما كتب عن العصر البيزنطى وحضارته .

Dölger, F., Beiträge zur Geschichte der byzantinihschen Finanzverwaltung, besonders des 10 und 11 Jahrhunderts. Leipzig—Berlin, 1927.

Dunlap, J. E., The Office of the Grand Chamberlain in the Later Roman and Byzantine Empires. New York, 1924.

Finlay, G., History of the Byzantine Empire, from DCCXVI to MLVII. New York, 1906.

Foord, E. A., The Byzantine Empire: The Rearguard of European Civilization. London, 1911.

وهو كتاب غير واف بالغرض المطلوب منه.

Gelzer, H., Byzantinische Kulturgeschichte. Tübingen, 1909.

Gfrörer, A. F., Byzantinische Geschichten. 3 vols. Graz, 1872—77.

Grenier, P., L'empire byzantin, son évolution sociale et politique. 2 vols. Paris, 1904.

Guerdan, R., Byzantium. 1949.

Harrison, F., Byzantine History in the Early Middle Ages. London, 1900.

Hesseling, D. C., Essai sur la civilization byzantine. French Trans. with a Preface by G. Schlumberger. Paris, 1907.

Hussey, J. M.,

1— Church and Learning in the Byzantine Empire, 867-1185 London. 1937.

2— The Byzantine World. London, 1957.

Hutton, W. H., The Church in the sixth Century. London. 1897.

Krumbacher, K, Geschichte der Byzantin. 1958

Le Beau, C, Histoire du Bas—Empire. New ed. by St. Martin. 1 vols. Paris, 1824—36.

Macri, C. M, L'organisation de l'économie urbaine dans Byzance sous la dynastie de Macédonie, 867—1057 Paris, 1925.

Neumann, C., Die Weltstellung des byzantinischen Reiches vor den Kreuzzügen. Leipzig, 1894.

توجد له ترجمة بالفرنسية فى مجموعة « R.O.L., X, 1905 ».

Oman, C, Story of the Byzantine Empire. New York, 1892.

Ostrogorsky, G., History of the Byzantine State. Trans. by J. Hussey Oxford, 1956.

والكتاب مقدم له بقائمة قيمة خاصة بمصادر ومراجع ودوريات التاريخ البيزنطي.

Pargoire, J , L'église byzantine de 527 à 847. Paris, 1905.

Rambaud, A., Etudes sur l'histoire byzantine. Paris, 1912.

Roth, K , Geschichte des byzantinischen Reiches Leipzig, 1904.

Runciman, S., Byzantine Civilisation. London, 1948.

Schlumberger, G.,

1 — L'épopée byzantine à la fin du dixième siècle. 3 vols. Paris, 1896—1905. New ed. of vol. I, 1925.
2 — Recits de Byzance et des croisades. Paris, 1917.
3 — Un empereur byzantin au Xe Siècle: Nicéphore Phocas. Paris, 1923.

Sesan, V., Kirche und Staat im römisch—byzantinischen Reiche seit Konstantin dem Grossen bis zum Falle Konstantinopels. Czernowitz, 1911.

Stewart, C., Byzantine Legacy. London, 1959.

Stöckle, A., Spätrömische und byzantinische Zünfte.Leipzig, 1911.

Tozer, H. F., The Church and the Eastern Empire. London and New York, 1904.

Vasiliev, A. A., History of the Byzantine Empire. 2 vols, Madison, 1961.

Woodward, E. L., Christianity and Nationalism in the Later Roman Empire. London, 1916.

انظر أيضا الجزء الرابع من « تاريخ كمبريدج للعصور الوسطى » ، ففيه قوائم ممتازة بمراجع التاريخ البيزنطى .

الفصل الثالث

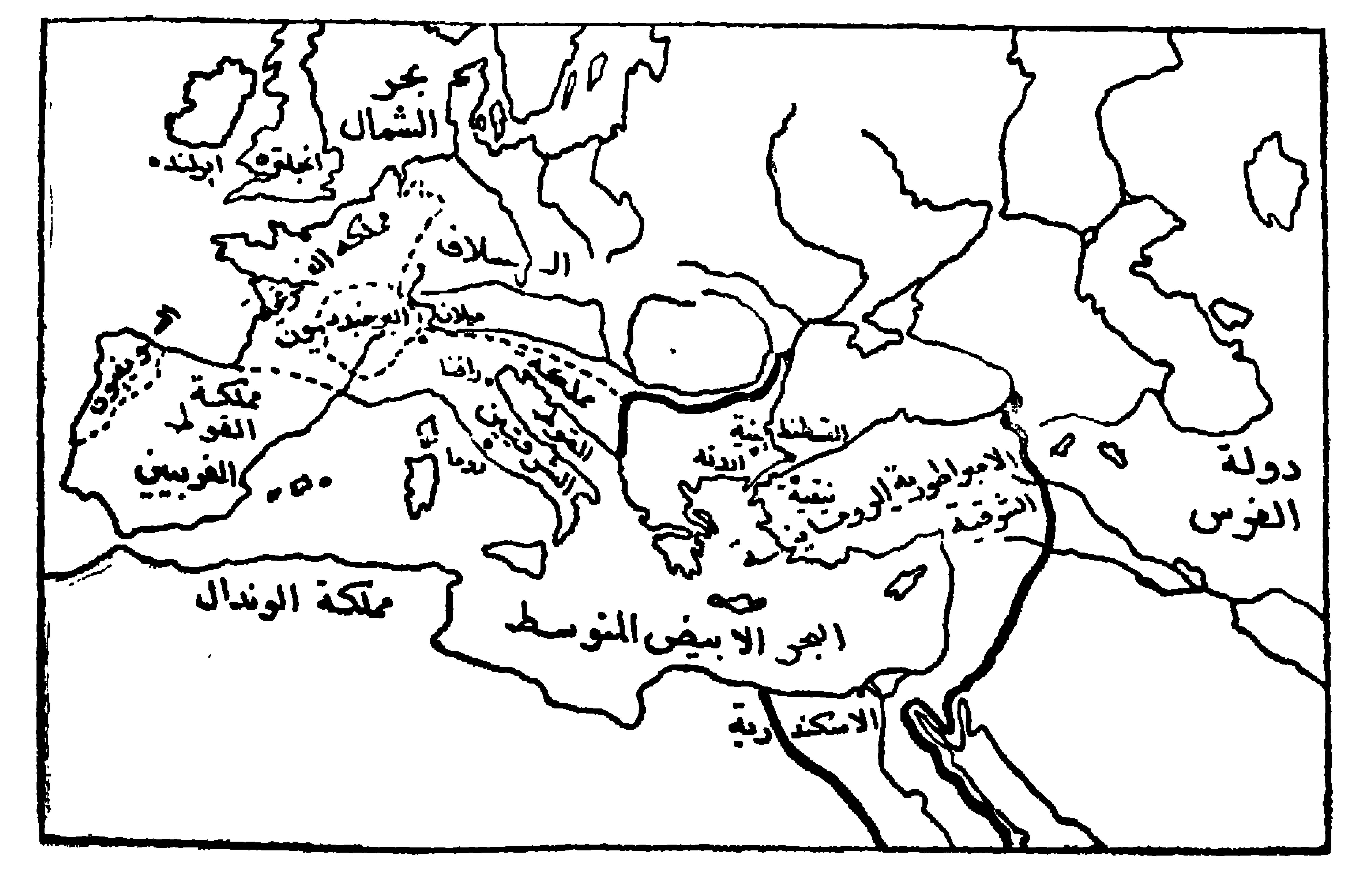
الدول الجرمانية فى الغرب

للدول الجرمانية فى الغرب كيانها الذى يختلف اختلافا تاما عن الدولة البيزنطية . وهناك شكل واحد للدولة وهو نتاج غير ثابت لهجرات البرابرة، ويتمثل هذا الشكل أصدق تمثيل فى دولة القوط الشرقيين أيام ثيودوريك (١):

---

(١) فى أخريات القرن الخامس الميلادى سقطت الامبراطورية الرومانية القديمة اثر هجمات البرابرة عليها ،وتأسيس ممالك لهم على أنقاضها .وقد استقر القوط الشرقيون فى ايطاليا عندما نزلوا فيها سنة ٤٨٩ بقيادة ملكهم المعروف ثيودوريك .وكانت ايطاليا آنذاك تحت حكم جندى آخر من المتبربرين اسمه ادواكر Odoacer . ولم يلبث أن تخلص ثيودوريك من منافسه ، وانفرد دونه بالحكم . وحكم ثيودوريك ٣٣ سنة (٤٩٣ - ٥٢٦) . وكان متسامحا محبوبا من الجميع . ومما يذكر عنه أنه سمح للتقاليد الرومانية القديمة بالبقاء جنبا إلى جنب مع نظم الجرمان المتبربرين . إذ كانت الحضارة والأنظمة الرومانية فى نظره بمثابة مثل أعلى يجب الاقتداء به . واستخدم كثيرا من الرومانيين فى إدارة شئون الحكم . ومن أهم من استوزرهم الفيلسوف بيوثيوس والمؤرخ كاسيودورس . وبعد موته تربع على عرش ايطاليا عدد من الأمراء الضعاف الذين لم يستطيعوا الاحتفاظ باستقلال مملكتهم المتبربرة الناشئة أمام كتائب الدولة البيزنطيـة التى بعث بها الامبراطور جستنيان فى النصف الأول من القرن السادس بقصد استعادة ايطاليا وضمها الى أملاك امبراطوريته . وهكذا انتهى الأمر بانهيار دولة القوط الشرقيين فى ايطاليا.

خريطة رقم (٢)



الامبراطورية الرومانية الشرقية وممالك الجرمان البرابرة (حوالى سنة ٥٠٠)

وقد احتفظت كل من طبقة المحاربين الجرمان وطبقة المدنيين الرومان بنظامها الخاص بها . وبقيت البيروقراطية الرومانية على حالها دون تغيير . كما بقى القوط الشرقيون كجند مرتزقة ، ولم يؤثر وجودهم على الكيان الاجتماعى أو السياسى القائم . وقد أدى ذلك إلى وجود نوع من الحياة يماثل طريقة الحياة عند الرومان . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فقد أهملت الرواية المتعلقة بالبرابرة المستقرين فى الغرب بوصفهم جندا مرتزقة فى الامبراطورية . ولم يلبث أن اتخذ نظام الدولة شكلا جديدا يختلف تماما عما عرف من قبل . وفى هذه الحالة كنا نشاهد الشعب المنتصر ، كما هو الحال بالنسبة للمبارديين فى ايطاليا (١) وهو ينتزع أملاك الطبقة الرومانية الحاكمة ؛ أو كما فعل الفرنجة

= بعد حوالى ٦٠ سنة من تأسيسها . انظر لانجر : موسوعة تاريخ العالم ، ج ٢، ص ٣٩٨ - ٤٠٠ ، La Monte, op. cit., 45—6, 53—7 ; Cantor, op. cit., 73—6; Katz. op. cit., 110, 114, 115, 135 المترجم .

(١) اللمبارديون من الأجناس الجرمانية الوافدة من المناطق الشمالية والتي نزلت فى عهد متأخر داخل حدود الدولة الرومانية القديمة . ففى سنة ٥٦٨ قادهم ملكهم المسمى البوين Alboin عبر الألب إلى سهول ايطاليا الشمالية . وقد بدا الخلاف واضحا بينهم وبين القبائل المتبربرة الأخرى التى سكنت فى تلك الجهات مثل القوط الشرقيين والجرمان عموما . فقد كان اللمبارديون يفضلون المعيشة فى المدن على الاقامة فى السهول المنزرعة . وبمرور الزمن زال ملكهم ، واندمجت البقية الباقية منهم فى أهل البلاد : وسهل عملية الامتزاج هذه اعتناقهم المذهب الكاثوليكي ، فاحتضنتهم البابوية وكنيسة روما اللاتينية . ومما يذكر أن اللمبارديين قد تركوا اسمهم على سهول ايطاليا الشمالية حتى اليوم . وقد دام ملكهم قرابة قرنين من الزمان (٥٦٨ - ٧٧٤) ، وكان أول ملوكهم هو البوين وآخرهم يدعى دزيدريوس =

فى غالة (١) وهم يتمثلون ببقايا الارستقراطية القديمة صاحبة الأرض . وفى كلا الحالين حل محل الدولة الرومانية غرس جديد (٢). أما البيروقراطيـــة

انظر C. G. Crump & E. F. Jacob, The Legacy. Desideris = of the Middle Ages (1951), 442; Katz, op. cit., 118; Sullivan, op. cit., 64—6; Shorter Camb. Med. Hist. (1952), I, 201—2 المترجم .

(١) الفرنجة جنس جرمانى كانوا يعيشون أصلا فى أواسط أوروبا .وعندما اشتد الضغط عليهم من الشرق نزحوا من أوطانهم ، وعبروا نهر الراين حيث استقروا غربا فى غالة ، وأسسوا لهم ملكية ثابتة استمرت من أخريات القرن الخامس حتى اواسط القرن الثامن ، وعلى أساسها قامت دولة فرنسا التى كان لها شأن عظيم ليس فى التاريخ الوسيط فقط وإنما فى التاريخ الحديث أيضا . ومن أشهر ملوك الفرنجة كلوفيس Clovis (٤٨١ - ٥١١) مؤسس الأسرة الميروفنجية فى اوائل القرن السادس . ولكن تعاقب على الحكم بعد موته عدد من الحكام الضعاف ، الأمر الذى ترتب عليه اشتداد ساعد وزراء القصر فى العهد الميروفنجى ، وقيام المنافسة فيما بينهم على السيادة والسلطان. وكان على رأس هؤلاء شارل مارتل وبن القصير الذى بادر فى اواسـط القرن الثامن بنقل التاج من آخر الملوك الميروفنجيين العاطلين إلى الأسـرة الكارولنجية .انظر لانجر : نفس المرجع السابق ، ج٢ ، ص٤٠٣-٤٠٧وكذلك La Monte, op. cit, 38—9, 46—7, 65-6, 153 — 5; Sullivan, op. cit., 39—42; Katz, op. cit, 108 - المترجم .

(٢) حول انهيار المدنية القديمة والأسباب التى أدت إليـــه ، انظر Rostovtzeff, Rome, 309—24 - المترجم .

الرومانية فقد انهارت [أو تفككت](١) . ولم يكن هناك أى تدخل رسمى يعوق نمو الإقطاعيات أو تطورها فى المستقبل(٢) . ولم تمس هذه الاقطاعيات، حتى أنها شكلت الوحدة الأساسية للنظام الاقتصادى والاجتماعي : فقد أقيمت الدولة الجديدة على أساس اقتصادى طبيعى بدائى : إذ عاد الى الظهور التقسيم القديم بين المحاربين الأحرار وبين الشعب العامل غير الحر . وتقدم لنا مملكة اللمبارديين مثلا طيبا لذلك . فقد كان كل لمباردى رجلا حرا وصاحب أرض . فضلا عن أنه كان يعيش من اقطاعاته الخاصة ، حتى فى أثناء الخدمة التى يؤديها للدولة كجندى أو فى أى عمل آخر . ولم يكن ثمة مكان للمرتزقة ؛ لأنه كان لزاما على كل رجل حر أداء الخدمة العسكرية . ولم تكن الحكومة فى مركز يسمح لها بأن تدفع للجند النظاميين من خزينتها . هذا، وقد زالت ضريبة الأرض القديمة التى كانت أساس المالية الرومانية ، والتى

---

(١) H. Pirenne, Mohammed and Charlemagne (1939), 136-39, 265 ff. - ويحلل بيرين فى كتابه المذكور الوسائل التي أدت إلى اختفاء طبقة الإداريين العلمانيين فى أواخر العصر الميروفنجى . (المؤلف) . انظر بحث روبرت س . لوبز الذى تناول فيه كتاب بيرين المذكور بالنقد والدراسة والتحليل ، وعنوان البحث « محمد وشارلمان : إعادة نظر » نشر فى مجلة Speculum ، العدد ١٧ ، سنة ١٩٤٣ . وقد قام الاستاذ توفيق اسكندر بترجمته إلى العربية ضمن مجموعة بحوث قام بتعريبها فى كتاب باسم « بحوث فى التاريخ الاقتصادى » ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ١٠١ — ١٤١ المترجم .

(٢) انظر بحث جوزيف ر. سترابر Joseph R. Strayer عن الاقطاع فى غرب اوروبا فى كتاب Coulborn (ed.), Feudalism in Hist., 15-25 المترجم .

استمرت فى مملكة القوط الشرقيين . لقد اعتبر المحارب الجرمانى الضريبة المباشرة أمرا مخالفا لوضعه السابق كرجل حر . وكان ذلك هو الواقع لحياة تخضع لظروف اقتصادية طبيعية ، حيث كانت مثل هذه الضريبة أبعد ما يكون عن التفكير فيها (١). ولذلك ظلت هذه الخدمات الرومانية العسكرية قائمة فقط حيث كانت الحاجة ماسة الى خدمات فردية ، من قبيل العمل الاجبارى فى إقامة الاستحكامات وتشييد الطرق أو الكبارى . وإذا كانت رسوم الأسواق والجمارك قد ظلت هى الأخرى قائمة ، فذلك لأن الأعمال الاقتصادية التى تعكسها كانت تنطوى على مخالفة صريحة ، بالنسبة للكفاية الذاتية للاقتصاد الخاص بشئون الاقطاعيات . ومن ثم كان على الدولة ، أى كان على الملك أن يعيش بصفة أساسية على إقطاعاته الخاصة مثلما فعل فى العصر الهومرى (٢) . وينطبق ذلك على مملكة الفرنجة . كما يتضح بصفة خاصة فى الحقيقة المتعلقة بإعادة تأسيس مملكة اللمبارديين عام ٥٨٤ ، بعد أن أصبح الغزو ميسورا بسبب تنازل الدوقات عن الاقطاعيات لصالح الملك الجديد . فقد كان البلاط الملكي هو الإدارة العامة الوحيدة التى ظلت قائمة . وكان على البلاط أن يعد القاعدة الاقتصادية التى تقوم عليها سيادة الدولة ،

---

(١) F. D. Fustel de Coulanges, Histoire des institutions politiques de l'ancienne France - ويوجد فى الجزء الأخير من الكتاب المذكور وعنوانه « تحول الملكية » Les Transformations de la monarchie (1892) ، فصل هام عن التباين بين عادات الجرمان وعقليتهم وبين نظام يقوم على أساس من الضرائب المالية .

(٢) أنظر ما سبق ص٦٦-٦٧ح ٢ من هذا الكتاب — المترجم.

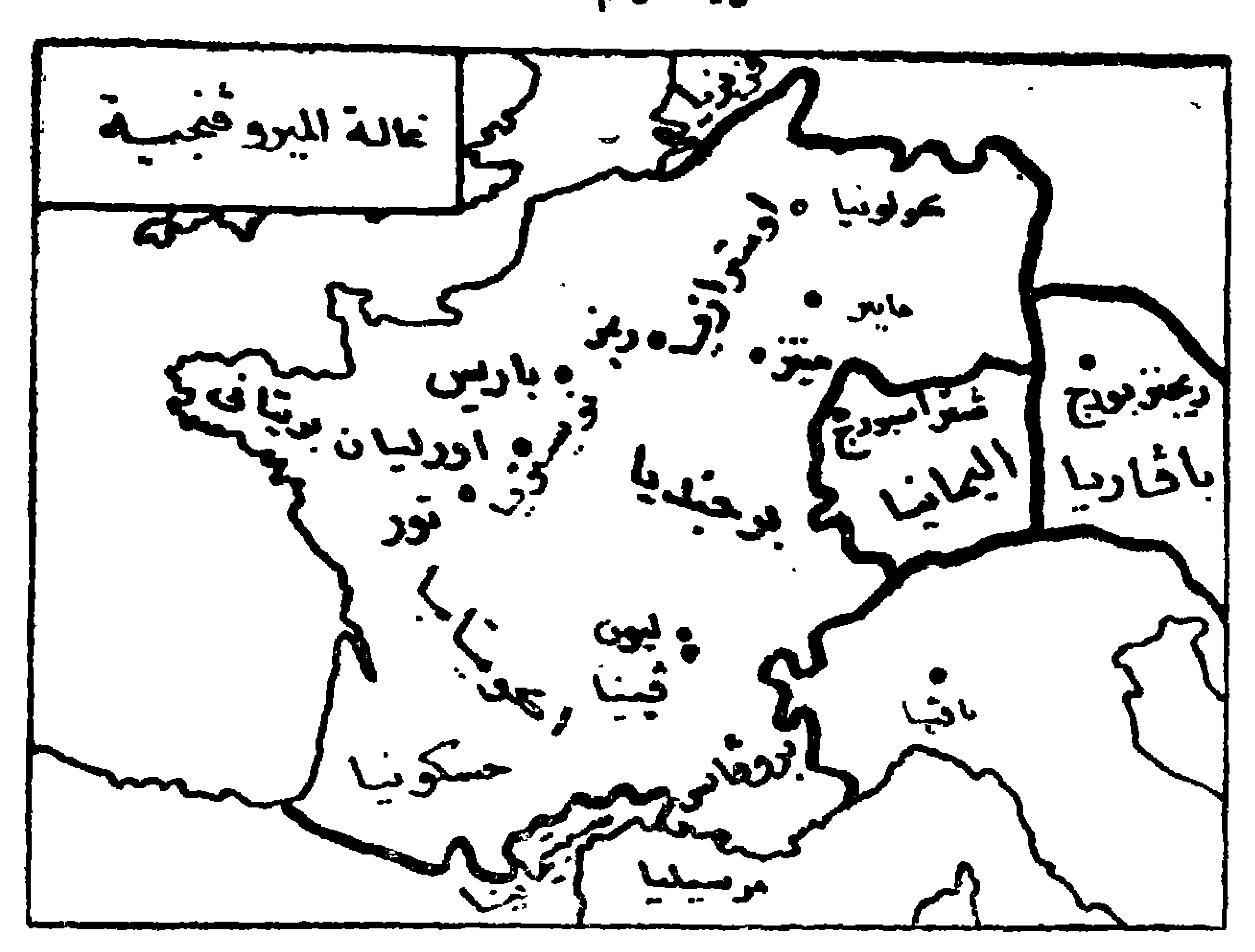
سواء أكان ذلك فى شكل مزيد من السلطة العامة أم فى شكل اقطاعيات ملكية . وكان من الجائز أن تختلف حيازة الملك فى الحجم عن اقطاعيات كبار رجال الدولة . ولكن مثل ذلك لم يكن متاحا لأى فرد فى أية مناسبة أخرى . كما كانت ممارسة السلطة الملكية مشروطة بضرورة حيازة ممتلكات فى الجهة المختصة . ولم يكن بوسع الملك أو أعوانه ممارسة أو مباشرة عمل ما فى أية مقاطعة بدون هذا الاساس . ومن ثم كان الفرنجة ، ومن بعدهم الملوك الألمان المتأخرون ، يرحلون من قصر إلى آخر مصحوبين برجال حاشيتهم، مستهلكين نتاج اقطاعياتهم ، ومقيمين العدالة . ولنفس هذا السبب اتخذ ملوك لمبارديا ، الذين كانوا غير راضين عن أملاك الدومين(١) الأصلية حول بافيا سياسة هدفها الحصول على اقطاعيات جديدة عبر ايطاليا اللمباردية ، حتى يتسنى لهم ممارسة نفوذ مباشر فى أقاليمهم الخاصة .

---

(١) اوضح الاستاذ كوبلاند فى بحثه عن الاقطاع الذى قام بترجمته الدكتور محمد مصطفى زيادة ،الأركان الثلاثة فى بناء المجتمع الاقطاعى وهى بقايا الجماعات القروية، وآثار نظام الدومين ، وأحوال عصر النمو الاقطاعى. والدومين ، وهو العنصر الثانى فى تكوين الاقطاع ، يعنى فى مصطلح العصر الوسيط أملاك السيد الاقطاعى من ضواح وأراض وأبعاديات وغيرها وكان السيد الواحد يمتلك عددا كبيرا من تلك الأراضى المبعثرة. وتدل الوثائق التي عثر عليها فى أوروبا فى الفترة من سنة ٤٥٠ إلى سنة ٧٥٠ ، أن عصر الفرنجة قد كثر فيه كبار الملاك والممتلكات الواسعة المساحات. كما تكشف هذه الوثائق أن القرية كانت بيد مالك dominus أو سيد lord . ويتلخص نظام الدومين فى أن الأرض الزراعية كانت تنقسم الى قسمين رئيسين ، ينتفع المالك =

لقد كان كل من الدولة والملك سيان فى ذلك الحين : وإذا كان الإثنان فى حاجة إلى حكومة شديدة المراس ؛ فقدكانا أيضا فى حاجة إلى أكبر عدد ممكن من الأشخاص التابعين مباشرة للسلطة المركزية . وكان ذلك ينم عن

خريطة رقم (٢)



= بأحدهما ، ويوزع الثانى حصصا مبعثرة بين الفلاحين مقابل ما يؤدونه للسيد من خدمات فى أرضه . وكان الأفراد الذين يعيشون فى الدومين يتبعون السيد تبعية تامة ، وازدادت مع الزمن سلطة هذا السيد حتى أصبح حائلا بين أهل الدومين وبين الحكومة المركزية . وأصبح بيده الحل والعقد، فهو الذى يفرض الضرائب، وبيده أيضا القضاء والحكم والإدارة المحلية . وبقيت آثار هذا النظام أثناء العصر الاقطاعى . وتمثل هذا فى تقسيم الأرض بين السيد المتبوع واتباعه . فكان هناك الدومين المحلى والدومين الملكى والدومين الامبراطورى . أنظر كوبلاند وفينوجرادوف : الاقطاع والعصور الوسطى فى غرب أوربا ، ص ١٠—١٤ . المترجم .

« خلعة نبيلة » . وكان هذا النبل فى الخدمة هو الوسيلة الوحيـــدة الممكنة للرقابة على القوى المحلية لصالح الملكية . وكان من الممكن الاحتفاظ بعدد من أولئك الرجال فى البلاط الذى يصرف عليهم من نتاج الدومين الملكي . ومع ذلك فان مثل هؤلاء الرجال الذين كلفوا بتمثيل الملك فى القرى والضواحى ، والذين كان حضورهم الشخصى غير مطلوب بصفة دائمــة ، كان يتعين مكافأتهم بعطايا من الأرض بصورة أو بأخرى . ويجوز أن تأخـــذ مثل هذه العطايا شكل هدايا ، كما هو الحال فى عهد الأسرة الميروفنجية (١) ،

---

(١) امتد حكم الأسرة الميروفنجية من سنة ٤٨٦ إلى سنة ٧٥١ . ومؤسسها هو الملك كلوفيس (٤٨١ - ٥١١) الذى يرجع إليه الفضل فى مد حـــدود الفرنجة غربا حتى ساحل خليج بسكاى والمحيط الأطلنطى ، وجنوبا حتى جبال البرانس . وكان كلوفيس هذا بعيد النظر ، إذا أدرك أن خير وسيلة لضمان الاستقرار التام داخل حدود الدولة الرومانية لن يتأتى إلا بالتقـــرب من البابوية فى روما . ولهذا نراه يعتنق المسيحية على المذهب الكاثوليكى فى سنة ٤٩٦ . وحذا حذوه أتباعه ورجال الطبقة الأرستقراطية . وترتب على ذلك الامتزاج بين شقى الشعب ، ونعني البرابرة والرومان المقيمين فى غالة . كما أصبحت الوحدة الروحية التي تجمعهما أساساً ثابت الدعائم لدولة كلوفيس . كذلك شجع قيام المصاهرة بين الرومان والفرنجة "imparia matrimonia" ، وهدفه أن يجعل من هذين الجنسين المتباينين جنسا واحدا يكون أمة واحدة ، وهذه الأمة تكون مملكة واحدة يكون هو على رأسها . وفى عام ٥٠٨ وقع حدث هام عندما أنعم الامبراطور البيزنطى على كلوفيس بلقب « حاكم غالة الرومانية » ، مما عزز مركزه ، إذ كان اعتراف بيزنطة به بمثابة اعتراف العالم الخارجى بتأسيس دولته الجديدة وهى الدولة الميروفنجية . وكانت هذه الدولة تنقسم إلى قسمين هما القسم الشرقى ويسمى اوسترازيا Austrasia =

وأيام اللمبارديين [والانجلوسكسون] (١). كما كان ممكنا تسليم الأرض باعتبارها اقطاعا. وفى كلا الحالين اختلفت قطعا طبيعة العلاقات التي نشأت بين الملك ورجاله عن تلك التي نشأت بين السلطة المركزية ورجالها المدنيين المأجورين. وفيما يتعلق بعملية الدفع النقدى، فقد كان يتعين موالاة الدفع

=وتغلب عليه الصبغة الجرمانية، والقسم الغربى ويسمى نويستريا Neustria ويغلب عليه الطابع الرومانى القديم. وكانت عملية التوحيد بين هذين العنصرين بطيئة مستمرة. وقد تولى إدارة كل قسم وزير خاص يحمل لقب « أمير القصر ». وكلما توغلنا فى التاريخ الميروفنجى كلما لمسنا ضعف خلفاء كلوفيس، واشتداد ساعد أمراء القصر وقيام الخلاف والمنازعات بينهما. وانتهى هذا الصراع بتوحيد الوزارة فى القسمين سنة ٦٨٧ فى شخص رجل واحد هو بين هريستال الذى أخذ يسلب الملوك الميروفنجيين الضعاف اختصاصاتهم. وخلفه ابنه شارل مارتل (٧١٤ — ٧٤١). وكان آخر وزراء الميروفنجيين هو بين القصير الذى كانت له الكلمة العليا فى البلاد، بينما غدا ملوك الميروفنجيين مجرد الصورة. ولذلك نراه فى أواسط القرن الثامن ينقل التاج من آخر الملوك الميروفنجيين العاطلين وهو شيلدريك الثالث، ويؤسس أسرة جديدة هى الأسرة الكارولنجية. أنظر وهيب ابراهيم سمعان: الثقافة والتربية فى العصور الوسطى، ص ١٧-١٨، وكذلك La Monte, op cit., 46—6, 65—6, 153—5; Sullivan, op. cit., 39-42; Dill, Roman Society, 13-4 — المترجم.

(١) تعرضت الجزيرة البريطانية للغزو الانجلوسكسونى فى الفترة من سنة ٤٥٠ إلى سنة ٨٥٠. ولا تمدنا المصادر المعاصرة إلا بالنزر اليسير عن عملية الغزو وتفاصيلها. والانجلوسكسون من العناصر الجرمانية التي تقطن عند الساحل الشمالى الشرقى لنهر الراين وفى شبه جزيرة جوتلاند. وقد عبروا=

فى فترت منتظمة : ولم يكن للبيروقراطي المأجور أية رقابة شخصية على موارد دخله ؛ إذ كانت الأرض وسكانها تؤول عن طريق الهبات الإقطاعية إلى سيطرة الحائز الجديد ، ولو بصفة مؤقتة على الأقل . ولذلك تدل كافة الهبات التي تمنح فى شكل اقطاعيات على الاتجاه إلى سحب تلك الإقطاعيات

= البحر إلى بريطانيا كقراصنة أو مستوطنين بقصد الاستقرار فيها . وساعدتهم الظروف على احتلال الجزيرة عندما انسحبت آخر حامية رومانية منها فى أواسط القرن الخامس ، فى وقت كان فيه العالم الرومانى فى طور الاحتضار . ومرت عملية الغزو بدورين رئيسيين : الأول ويمتد من سنة ٤٥٠ إلى سنة ٥٥٠ ، والثانى من سنة ٥٥٠ إلى سنة ٨٥٠ . ونعرف من الوثائق التاريخية أن الوافدين الجدد أسسوا فى أول الأمر سبع ممالك فى الجزيرة البريطانية هي : كنت وسسكس واسكس ووسكس ونورثمبريا ومرسيا وايست انجليا . ولكنها أصبحت آخر الأمر ثلاث ممالك فقط هي نورثمبريا ومرسيا ووسكس : ومرت هذه الممالك بعدة عوامل إلى أن توحدت في مملكة واحدة فى ظل حكم ملك واحد . ومما يذكر أنه كان لهذا العنصر تنظيمه السياسي والاجتماعى والاقتصادى وحياته وتفكيره وحضارته الخاصة به . ومن أشهر ملوك السكسون الفريد الكبير ملك وسكس الذى تعرضت البلاد فى عهده لاغارات الدانيين ، وابنه الملك ادوارد الذى وقف هو الآخر فى وجه الموجات الدانية المبكرة : وانتهى حكم السكسون سنة ١٠٦٦ بالفتح النورمانى للجزيرة البريطانية على يد وليم الفاتح. أنظر عن ذلك نظير سعداوى : تاريخ انجلترا وحضارتها فى العصور القديمة والوسطى (١٩٥٨)، ص ٢٧ وما بعدها ، ا . ل . راوس : التاريخ الانجليزى (١٩٤٦) ، ص ١٧ وما بعدها ، وكذلك D. Whitelock, The Beginnings of English Society(1954)); G. M. Trevelyan, A Shortened Hist. of England (1960), 37 ff.; E.L. Woodward, Hist. of England (1957) 10 ff. ـ المترجم

بصفة مستمرة من حيازة الملك وسلطته : ومن ثم فان كل اقطـاع يتم نزعه يستتبع بالتالى خسارة للسلطة الملكية ، حيث أن الصرف من دخل الضرائب، والذى كان يتجدد بصورة دورية ، لا يضير القوى الجديـدة . ولما كانت الأرض التى فى حيـازة الملك محدودة ، فلا شك أنها استهلكت بعـد فترة معينة بسبب تلك العطايا . وعندما تحقق ذلك ، أصبـح نهـاية الأسرة الحاكمة والانفصال عن الدولة أمرا لا مفر منه ، مالم تملأ الضرائب من جديد الخزانة الملكية .

وتكشف هذه الحقيقة الأساسية عن الصعاب المتتابعة التى أثرت على السياسة الخارجية ، والتى أعاقت التطور الاجتماعى الداخلى للدول الغربية فى القرون الوسطى المبكرة . وما أن تم توزيع الأراضي التى تنفق عليها الخزانة الملكية، حتى كان على المملكة الاتجاه نحو غزو خارجى . وكان النجاح في هـذا الميدان يؤدى إلى حيازة أراض جديدة يمكن بواسطتها كسب أتباع جدد لتعزيز السلطة الملـكية . ومن الامثلة الواضحة على ذلك انهيار الملـكية الميروفنجية ، أو ما أطلق عليه شارل مارتل (١) « تحويل ممتلكات الكنيسة إلى

---

(١) لم يترك الوزير الميروفنجى بين هريستال عند وفاته سنة ٧١٤ أبناء شرعيين يخلفونه فى الوزارة . وكان أحفاده صغيرى السن بحيث لم يكن من السهل تحملهم أعباء الحكم . وهكذا خلفه ابنه غير الشرعى شارل مارتل . وقد واجهته بعض الصعاب فى سبيل تعزيز سلطته . واشتهر فى التاريخ بانتصاره على العرب فى موقعة بواتييه سنة ٧٣٢ عندما نجح فى وقف توغلهم فى أوروبا إلى ما وراء جبال البرانس . أما عن موقفه من الكنيسة فقد قام بمصادرة الكثير من أراضيها للإنفاق على حروبه ضد العرب : وبهذا جلب عليه نقمة =

السلطات العلمانية » ، وكذلك الدوافع المختفية وراء التقسيم المتكرر للامبراطورية الكارولنجية. (١) وبوسعنا الإشارة إلى القوى التي جاءت بأسرات جديدة فى القرن العاشر ، وإلى اهتمام ملوك المانيا وفرنسا وايطاليا بأمر الدومين الملكى . وفى الحقيقة أدت تلك السياسة المتعلقة بالدومين الى معاودة غزو ممالكهم ذاتها . ويعزى إلى نفس هذه الأسباب عودة اللمبارديين الى سياسة توسعية اقليمية تحت قيادة ليوتبراند (٢) Liutprand الطموح،

= رجال الدين . وكان خلال السنوات الأربع الأخيرة من حكمه هو الحاكم الأوحد بلا منازع . وعند وفاته قسم أراضيه بين ابنيه كأى ملك ميروفنجى؛ فأعطى القسم الشرقى إلى ابنه ببن القصير، والقسم الغربى الى ابنه كارلمان . ولكن التنافس بين الأخوين هدد أمن الدولة . وفى سنة ٧٤٧ تنازل كارلمان عن صلاحياته لأخيه مؤثرا الحياة داخل الدير . وبذلك أصبح الجو خاليا لأخيه ببن القصير . أنظر عن ذلك La Monte, op. cit., 154; Crump & Jacob, op. cit., 467; Tayler, Med. Mind, I. 197—8, 209, 332, II. 302; Sullivan, op. cit., 58-9 - المترجم

(١) من أهمها تقسيم فردان Verdun سنة ٨٤٣ وتقسيم ميرزن Meersen سنة ٨٧٠. انظر Shorter Camb. Med. Hist., I, 342 ff.; La Monte, op. cit., 162 ff. - المترجم .

(٢) ليوتبراند هو أحد الملوك اللمبارديين . حكم من سنة ٧١٢ الى سنة ٧٤٣ . وقد استفاد من الحركة اللا أيقونية التي قام بها الامبراطور البيزنطى المعاصر له ليو الثالث الأيسورى ، والتي أدت الى انقسام صريح بين القسطنطينية والغرب . ذلك أن مدينة رافنا التابعة لبيزنطة ، والتى كانت تعانى من المتاعب لسنوات عديدة بسبب مشكلة الضرائب ، استغلت فرصة النزاع اللا أيقونى وأعلنت استقلالها عن الامبراطورية الشرقية، وفتحت أبوابها =

بعد فترة طويلة من السلم والظروف المستتبة المستقرة.فضلا عن عن حملات غزو عديدة فى ايطاليا بقيادة ملوك الشمال (١) .

وكان أشد ما تفتقر اليه الادارة بكامل عناصرها وأجهزتها هو حاجتها الى الاستمرار وعـدم التوقف : وقد وصف العـالم الاقتصـادى ادولف فاجنر (٢) Adolf Wagner تصرفات الدولة البدائية بأنها مستمدة من مبدأ القمع والضغط .وهو ما ينطبق بصفة قاطعة على القـرون الوسطى المبـكرة :

= للملك ليوتبراند فى القرن الثامن : كذلك نجح ليوتبراند فى اخضاع بعض الدوقات المستقلين ، وبخاصة دوق سبوليتو ودوق بنيفنتو : ولكن انتصاراته هذه أثارت مخاوف البابا ، حتى لقد اتجهت روما بأبصارها صوب الفرنجة لمعاونتها ضد اللمبارديين . وتمكن الكارولنجيون فعلا من القضـاء على مملكة لمبارديا .أنظر عن ذلك La Monte , op. cit., 128, 153; Shorter Camb. Med. Hist., I, 159, 221-2 -وجدير بالذكر أن ليوتبراند هذا غير ليوتبراند أسقف كريمونا المشهور الذى عاش فى القرن العاشر الميلادى ـ المترجم :

(١) تقوم هذه الفقرة كلهـا بصفة أساسية على تحايل هارتمان للمجتمع اللمباردى .أنظر Geschichte Italiens im Mittelalter, II,2, cap. I,1 ff.

(٢) كان ادولف فاجنر استاذا للاقتصاد السياسي ، وحيث أنه تخصص فى شرح وتفسير عقائد الدولة الاشتراكية ، فقد تمتع بنفوذ كبير فى جامعة برلين فى الربع الأخير من القرن التـاسع عشر ومستهل القرن العشرين — المؤلف ـ وله عدة مؤلفات من أهمها : A. Wagner, Die unteritalischen Normannen und das Papstthum, von Victor III bis Hadrian VI (1086 — 1156) , Breslau, 1887 ـ المترجم .

فلم يكن بوسع الدولة فى هــذه الحقبة من الزمن المحافظة بصفــة دائمة على القانون والنظام ، لأنه لم يكن ثمة أجهزة متوفرة تستطيع العمل دون توقف فى كافة أنحـاء البلاد . وكان عمل الدولة قاصرا على التدخل الفـردى فى بعض الحالات الخاصة التي تتعلق بقمع الاضطرابات والعمل على إعادة النظام إلى ما كان عليه من قبل . ويلقى التشريع المعاصر لتلك الحقبة الضـوء على ذلك بصورة واضحة . ويتضمن هذا التشريع مجموعة كبيرة من مختلف المخالفات والعقوبات الخاصة بهـا ، بينما كانت القوانين السارية المفعول قليلة نسبيـا : وكانت بعض كتب القانون مجرد قوائم بالغرامات التي توقع على المخالفات التي يقترفها الموظفون الملكيون عن قصد أو عن غير قصد (١) . وتبعـــا لذلك لم يكن فى الدولة الجرمانية فى القرون الوسطى المبكرة قانون منظم لتحقيق العدالة، كما لم يكن لها حكومة أو إدارة كما هو مفهوم فى دولة بيروقراطية [مثل الدولة البيزنطية] أو كما هو الحال فى العالم الحديث . وقد انبثقت أوجــه النشاط القضائى الذى قامت به محاكم المائة من القضاء الشعبى فى العهد القبلى . وقامت السلطات المحلية بتشكيل تلك المحاكم . هذا . بينما ظل نفوذ السلطة المركزية محدودا . ولأسباب سبق تفسيرها ، أصبـــح الكونت [الذى تولى الرئاسة بوصفه مندوبا عن الملك [بمرور الزمن أقل كفاءة ومقدرة باعتباره وكيلا للسلطة الملكية . وتمت هذه المرحلة بسرعة أكبر بالنسبة لذوى الامتيازات ، واقتصر تدخل الدولة على بعض الحـالات الخاصة تطبيقا لأحكام القضـاء فى المحكمـــة الملكية ، أو عن طريق ممثلى السيد المالك missi dominici الذين

---

(١) Geschichte Italiens, III, cap. I, 1. ff.

كانت أوجه نشاطهم التافهة العارضة ،على أية حال،صورة طبق الأصل لهذا النوع من التدخل (١) .

كان ذلك هو عين النقص فى النظام الذى وضعته الدولة ، والذى مكن الكنيسة من القيام بنشاط واسع النطاق تم ممارستهفى أوقات مختلفةوبدرجات متفاوتة . فقد كان معروفا أن الكنيسة لم تكن تقل عن الدولة فى ارتباطها بالاقتصاد الطبيعي القائم ، وفى خوفها الدائم من خطر ضياع ما تملكه من

---

(١) تحدثنا الكاتبة دوروثى هوايتلوك فى مؤلفهـا « بدايات المجتمع الانجليزى - عصر الانجلوسكسون » عن نظام القضاء لدى هذا العنصر الجرمانى ، وهو شبيه لما أورده هارتمان : فقد كانت الدعاوى القضائية ترفع أمامهيئة عامة أطلقت عليها القوانينالمبكرة اسم محكمةالشعب ، وكانت تجتمع مرة كل أربعة أسابيع برئاسةمندوب من قبلالملك . وأحكامها تستأنف أمام الملك مباشرة باعتباره السلطة العليا فى البلاد . وفى القرن العاشر أعيد تقسيم الأرض إلى قطع متساوية سميت كل وحدة منها باسم « مائة » ، ولها محكمة تجتمع مرة واحدة فى الشهر . وعرفت تلك المحاكمباسم « محاكم المائة» : كما وجدت محكمة أخرى أعلى منمحكمة المائة ، عرفت باسم«محكمةالمقاطعة»، وهى تنعقد مرتين فى العام . وبوسع الفرد استئناف الأحكام التي تصدرها محكمة المائة أمام محكمة المقاطعة . ويحتمل أن محاكم المائة قد حلت محل المجالس الشعبية القديمة ، وورثت عنها وظائفهاواختصاصاتها . وأما المحاكم الملكية فقد اختصت بالنظر فى كافة المسائل والشئون الخطيرةالمتعلقة بالأمن العام والسياسة العليا للدولة . واستهدف هذا التنظيم الجديد تنسيق القانون وحسن تطبيقه فى البلاد حتي يستتب الأمن وتسود العدالة. أنظر

Whitelock, Beginnings of English Society, 137- 9 - المترجم

الأراضى التابعة لها لصالح صاحب الاقطاعية أو لصالح جيران جشعين أقوياء : وهكذا كان وضع الكنيسة يشبه وضع المملكة نفسها . هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد استفادت الكاتدرائيات والمدارس الكنسية والأديرة من كافة التطورات التي أيدت السلطات المحلية على حساب الدولة : بينما ظهر رأى ينادى بقيام سلطة عالمية واحدة ، تتضمن ليس مواطنى بلد واحد فحسب وإنما كافة شعوب الغرب ، الأمر الذى أوجد تفوقا بارزا على الملك الذى غدت سلطته مقيدة داخل حدود اقليمية ضيقة .أما الكنيسة فقد ازداد مركزها قوة ومتانة ، إذ كانت وظائفها الروحية التي لا يستطيع أى فرد آخر ممارستها ، تعتبر بصفة عامة أمرا لا غني عنه من أجل الحصول على الخلاص . بل كانت تلك الوظائف أكثر ضرورة من وظائف الدولة . ثم أن هذه الخدمات الدينية والثقافية كانت تقوم تقويما ماديا وفقا لشروط خاصة . وكان الأثرياء من العلمانيين يتهافتون على الدفع للكنيسة بسخاء فى شكل هدايا [للقديسين حماة الكاتدرائيات والأديرة] .

ولا شك أن كثيرا من الأباطرة والملوك قد نجحوا فى الحد من سلطة الكنيسة واستقلالها . فضلا عن استخدامهم الكنيسة كقاعدة لحكومتهم الذاتية. وهكذا طاب لهم عجز الجهاز البيروقراطى عن القيام بمهمته . ومع ذلك لم تتمكن أى قوة من القوى العلمانية فى الغرب من الاشراف على الكنيسة بوصفها عضوا فى الدولة ، إلى نفس المدى الذى نجح حكام الشرق فى تحقيقه. (١)

---

(١) للمزيد من التفاصيل عن العلاقة بين الكنيسة والدولة فى كل من الشرق =

وتتضح أوجه التباين والخلاف بين الغرب والدولة البيزنطية فى كافة النواحى والمجالات الأخرى . فلم تستطع أية دولة جرمانية فى هذه الحقبة الابقاء على سلسلة من الاستحكامات المخططة تخطيطا دقيقا : إذ لم تتوفر وسائل التمويل وإعداد الحاميات . (١) وهكذا كانت الحال فى ايطاليا بعد الغزوات المجرية . فقد كان على السلطات المحلية تشييد استحكامات جديدة، وإصلاح أسوار المدن الرومانية والدفاع عنها . وقد ترتب على ذلك تقوية السلطات المحلية على حساب النفوذ الملكى . ويعتبر قصور الدولة عن بناء اسطول بحرى أو صيانته أمرا أكثر وضوحا . فلا تستطيع أية حكومة تعتمد على قاعدة تقوم على الاقتصاد الطبيعى أن تغفل ذلك ، لأنها فى حاجة إلى المال للصرف على السفن ودفع أجور لأطقم البحارة الدائمين : وكان أمر الدفاع عن السواحل الذى حاول شارلمان تنفيذه فى نهاية حكمه مقضيا عليه بالفشل : ولم يكن من قبيل المصادفة تعذر الدفاع عن ممالك

= والغرب، أنظر .Cantor, op. cit., 93—7, 112—8; Barker, op. cit 6 ff., 36—42,75 — 6, 90, 92; Baynes & Moss, op. cit., 3 ff., 112—3, 129—32, 274—8; Ostrogorsky, op. cit., 28 ff., 193; Laistner, Thought and Letters in Western Europe, 110 — 11, 315—21; Shorter Camb. Med. Hist., I. 115—6, 124— 7
أنظر أيضا قائمة المراجع المذيل بها هذا الفصل ، وكذلك المراجع المذيل بها الفصل الثالث من بحث باراكلاف — المترجم .

(١) يحتمل أن تكون هذه العبارة مبالغا فيها : وفيما يتعلق باستحكامات وحاميات الملك الفريد، أنظر F, M. Stenton, Anglo—Saxon England (1947),261—3؛ وأما عن حاميات واستحكامات هنرى الصياد فى المانيا، أنظر C. Erdmann, Deutsches Archiv (1943) 59—101

الغرب الأوروبى ضد الغزو الوافد إليها من البحر ، سواء أكان هذا الغزو قادما من جهة الفيكنج (١) فى الشمال أو من ناحية العرب فى الجنوب. (٢)

---

(١) يعرف الفيكنج بالشماليين ، وهم يتألفون من الدانيين والنرويجيين: وكانوا يقطنون فى اسكنديناوه وحوض بحر البلطيق ، ويدينون بالوثنية المتعددة الآلهة مثل اليونان القدماء : وقد ولوا وجههم شطر غرب اوروبا : فنزل الدانيون فى انجلترا وفرنسا وفريزيا ، بينما هاجم النرويجيون شمال اسكتلندا ونورثمبريا وايرلندا . وقد أشاع الفيكنج الفوضى والدمار فى أوروبا. وكانت هجماتهم أشبه ما تكون بالقرصنة ، حيث يقومون بحركات سريعة مفاجئة بقصد السلب والنهب ، ثم الهرب بعد ذلك بمراكبهم محملين بالأسلاب. ولكن إغارات السلب والنهب تحولت فيما بعد إلى حملات منظمة للغزو والاستقرار فى البلاد التي فتحوها . وقد دخل الفيكنج آخر الأمر فى الديانة المسيحية ، وتقبلوا الثقافة المرتبطة باللغة اللاتينية بدلا من حضارتهم المرتبطة بالوثنية . انظر ابراهيم العدوى : المجتمع الاوربى فى العصور الوسطى ، ص١٠٤ وما بعدها ؛ وكذلك Shorter Camb. Med. Hist., I. 312, 345, 351, 354—5, 360—8, 380 —1, 384—5; La Monte, op. cit., 157, 166—9, 185, 196—7, 343; Sullivan, op. cit., 141, 143—5, 153 ـ المترجم .

(٢) يدل المثل الذى قدمه الفيكنج على أنه ، تحت ظل ظروف خاصة ، يستطيع مجتمع من الفلاحين المشاغبين فى مرحلة تطور اقتصادى بدائى حاسم ، أن يرسل الى الخارج بشكل منظم أساطيل كبيرة إلى بلاد بعيدة نائية ، وربما تنعدم مثل هذه المقدرة فى ظل ظروف أكثر استقرارا : ويتضح العجز فى الاستعدادات الحربية فى عهد شارلمان ، وهو ما أشار اليه هارتمان . (ه . ليبشيتز)

بعض المراجع للفصل الثالث

Abdy, J. T., Feudalism : Its Rise, Progress, and Consequences. London, 1890.

Aberg, N.,

1 — Ostpreussen in der Völkerwanderungszeit. Stockholm, 1919.

2 — Die Franken und die Westgoten in der Völkerwanderungszeit. Uppsala, 1922.

3 — Die Goten und Langobarden in Italien. Uppsala, 1923.

Adams, G. B., Civilization during the Middle Ages. New York, 1914.

Arldt, T., Germanische Völkerwellen und ihre Bedeutung in der Bevölkerungsgeschichte von Europa. Leipzig, 1917.

Aschbach, J., Geschichte der Westgoten. Frankfurt, 1827.

Binding, C., Das burgundisch—romanische Königreich von 433 bis 532. Leipzig, 1868.

Bloch, M., Feudal Society. Trans. from the French by L. A. Manyon. London, 1961.

Boissonade, P., Life and Work in Medieval Europe. Trans. by Eileen Power. New York, 1927.

Bradley, H., The Story of the Goths to the End of the Gothic Dominion in Spain. New York, 1888.

Bühler, J., Die Germanen in der Völkerwanderung: nach zeitgenössichen Quellen. Leipzig, 1922.

Bury, J. B., The Invasion of Europe by the Barbarians, ed. by F. J. C. Hearnshaw. London, 1928.

Calmette, J.,

1 — La société féodale. Paris, 1927.

2 — Le monde féodal. Paris, 1937.

Claparède, H. de. Les Burgondes jusqu'en 443. Geneva, 1909.

Coulanges, N. D. F. de, Histoire des institutions politiques de l'ancienne France, ed. by C. Jullian. 6 vols. Paris, 1905—14.

Coulton, G. G., Medieval Village, Manor, and Monastery. New York, 1960.

Cunningham, W., Western Civilization in its Economic Aspects: Medieval and Modern. Cambridge, 1900.

Dahn, F.,

1 — Urgeschichte der germanischen und romanischen

Völker. 3 vols. Berlin, 1880—89.

2— Die äussere Geschichte der Westgothen. Würzburg, 1870.

3— Die Verfassung der Westgothen. Lepzig, 1885.

Dill, S, Roman Society in Gaul in the Merovingian Age. London, 1926.

Dopsch, A., Wirtschaftliche und soziale Grundlagen der europäischen Kulturentwicklung aus der Zeit von Cäsar bis auf Karl den Grossen. 2 vols. Vienna, 1920—23.

Duby G., L'Economie rurale et la vie des campagnes dans l'Occident médiéval. 2 vols. 1962.

Eichmann, E., Kirche und Staat. vols, I—II (750—1350). Paderborn, 1912—14.

Eicken, H. von, Der Kampf der Westgothen und Römer unter Alaric. Leipzig, 1876.

Erdmann, C., Deutches Archiv. 1943.

Eyre, E. (ed.), European Civilisation : Its Origin and Development. Vol. III : The Middle Age. London, 1935.

Fongeron, H. P., Les bénéfices et la vassalité au IXe siècle. Rennes. 1868.

Freeman, E. A.,

1 — Western Europe in the Fifth Century: An Aftermath. London, 1904.

2 — Western Europe in the Eighth Century and Onward: An Aftermath. London, 1904.

Giudice, P. del, Sulla questione dell'unità o dualità del diritto in Italia sotto la dominazione ostrogota. Milan, 1913.

Gummere, F. B., Founders of England. New ed. with Notes by F.P. Magoun. New York, 1930.

Gutsche, O. and Schultze, W., Deutsche Geschichte von der Urzeit bis zu den Karolingern. 2 vols. Stuttgart, 1894—96.

Haddon, A. C., The Wanderings of Peoples. Cambridge, 1911.

Halphen, L., Les barbares, des grandes invasions aux conquêtes turques du XIe siècle. Paris, 1930.

Hartmann, L. M.,

1 — Geschichte Italiens in Mittelalter. 4 vols. Leipzig, 1897-1915

2 — Das italienische Königreich. Gotha, 1923.

Hodgkin, T.,

1 — Italy and Her Invaders. 8 vols. in 9. Oxford, 1880-99.

(2 nd ed., of vols. I—VI, Oxford, 1892—1916).

على الرغم من عنوان الكتاب الجديد ، فهـــو يعتبر بمثابة تاريخ عام لاوروبا من القرن الرابع الى القرن التاسع .

2 — Theodoric the Goth. London,1923.

Hofbauer, S., Die Ausbildung der grossen Grundherrschaften im Reiche der Merowinger. Vienna, 1927.

Hutton, E., Attila and his Huns. New York, 1915.

Jahn, A., Geschichte der Burgundionen und Burgundiens bis zum Ende der I Dynastie. 2 vols. Halle, 1874.

Katz, S., The Decline of Rome and the Rise of Medieval Europe. New York, 1960.

Kaufmann, G., Deutsche Geschichte bis auf Karl den Grossen. 2 vols. Leipzig, 1880—81.

Kingsley. G., The Roman and the Teuton. London, 1875.

Knight, M. M., Economic History of Europe to the End of the Middle Ages. Boston, 1926.

Kurth, G.,

1 — Etudes franques. 2 vols. Paris, 1919.

2 — Les origines de la civilisation moderne. 2 vols. Brussels, 1923.

ويمتد هذا الكتاب حتى شارلمان.

Laurent, F., Les barbares et le catholicisme. Brussels, 1864.

Lavisse et Rambaud, The Feudal Régime. Trans. by E. W. Dow. New York, 1902.

Leclercq, H., L'Espagne chrétienne (to 711). Paris, 1906.

Loncao, E., Fondazione del regno di Odoacre e suoi rapporti con l'Oriente. Scansano, 1908.

Lot, F., L'impôt foncier et la capitation personelle sous le bas empire et à l'époque franque. Paris, 1928.

Martroye, F.,

1 — L'Occident à l'époque byzantine : Goths et Vandales. Paris, 1904.

2 — Genséric : la conquête vandale en Afrique et la destruction de l'empire de l'occident. Paris, 1907.

Medley, D. J., The Church and the Empire, 1003—1304. New York, 1910.

Miller, W., Mediaeval Rome. New York, 1902.

Munro, D. C. and Sellery, G C., Medieval Civilization New York, 1907.

Oman, C.,

1 — A History of the Art of War in the Middle Ages. 2 vols. London, 1924.

2 — The Art of War in the Middle Ages (A. D. 378 — 1515), New York, 1960.

Ortega y Rubio, J., Los visigodos en Espana. Madrid, 1903.

Pérez Pujol, E., Historia de las instituciones sociales de la Espana goda. 4 vols. Valencia, 1896.

Petrie, W. M. F., Migrations. London, 1906.

ويمتاز هذا الكتاب بأنه يتضمن مجموعة قيمة من الخرائط .

Pfeilschifter, G., Die Germanen im römischen Reich : Theodorich der Grosse. Mainz, 1911.

Pirano, S., Stato e chiesa, 888—1015. Turin, 1908.

Pirenne, H.,

1 — Mohammed and Charlemagne. 1939.

2 — Medieval Cities. Trans. from the French by F. D. Halsey. Princeton, 1948.

3— Economic and Social History of Medieval Europe. Trans. from the French by I. E. Clegg. London, 1961.

Ponchielli, A., Commento all'editto di Teodorico. Milan, 1923.

Prou, M., La Gaule mérovingienne. Paris. 1897.

Richter, G., Annalen des fränkischen Reiches im Zeitalter der Merovinger. Halle, 1873.

Romano, G., Le dominazioni barbariche in Italia, 395-1024. Milan, 1909.

Roth, P.,

1 — Geschichte des Benefizialwesens von den ältesten Zeiten bis ins zehnte Jahrhundert. Erlangen, 1850.

2 — Feudalität und Unterthanenverband. Weimar, 1863.

Salvioli, G., Sullo Stato e la popolazione d'Italia primo e dopo le invasioni barbariche. Palermo, 1900.

Schmaus, J., Geschichte und Herkunft der alten Franken. Bamberg, 1912.

Schmidt, L.,

1 — Geschichte der Wandalen. Leipzig, 1901.

2 — Geschichte der deutschen Stämme bis zum Ausgang der Völkerwanderung. Vols. I—II. Berlin, 1904-11.

3 — Allgemeine Geschichte der germanischen. Völker bis zur Mitte des sechsten Jahrhunderts. Munich, 1909.

4 — Die germanische Reiche der Völkerwanderung. Leipzig, 1913.

Stenton, F. M., Anglo—Saxon England. 1947.

Stephenson, C., Mediaeval Feudalism. New York, 1942.

Sullivan, R. E., Heirs of the Roman Empire. New York, 1960.

Tardif, J., Etudes sur les institutions Politiques et administratives de la France : époque mérovingienne. Paris, 1881.

Thierry, A., Récits de l'histoire romaine au Ve siècle. Paris, 1860.

Thompson, J. W., Economic and Social History of the Middle Ages (300—1300). New York, 1928.

Villari, P., The Barbarian Invasions of Italy. Trans. by Linda Villari. 2 vols. London, 1902.

Waitz, G., Über die Anfänge der Vassalität. Göttingen, 1856.

Wiart, R., Essai sur la precaria. Paris, 1894.

Wietersheim, E. v., Geschichte der Völkerwanderung. 2nd ed., by F. Dahn. 2 vols. Leipzig, 1880—81.

Wilser, L., Die Germanen. vol. I. Leipzig, 1913.

الفصل الرابع

سياسة اباطرة الغرب حيال ايطاليا

ليس بوسعنا أن نفهم فهما تاما الكيان العسكرى للولايات الجرمانية ، والمشكلة الكبرى الخاصة بالعلاقة بين ايطاليا والامبراطورية الغربية ، إلا عن طريق هذا التحليل للنتائج التى طبعها الاقتصاد الطبيعى على سياسة هذه الحقبة من الزمن .

وربما قيل إن كل حملة فردية على روما من قبل أى ملك المانى ، لم تكن تعني أقل من غزو جديد لايطاليا . فالواقع أنه لا يوجد أثر لإدارة دائمة فعالة فى ايطاليا من جانب الحكومة الامبراطورية . فبعد أن قام شارل العظيم بغزو ايطاليا ،أدخل فيها كثيرا من الفرنجة بوصفهم أتباعا وموظفين. وحذا خلفاؤه حذوه ونهجوا سبيله . وكان نسل اولئك الفرنجة ، وأتباع الملوك الفرنجة والبرجنديين المتأخرين ، هم أسلاف كبار الأسر الذين أصبحوا فيما بعد حكام ايطاليا الحقيقيين . ولكنهم فقدوا بهذا التصرف صلتهم بوطنهم الأصلى : ووجدوا أنفسهم مضطرين للقدوم إلى أوطانهم لاثبات أن مصالحهم الخاصة أصبحت ترتبط بممتلكاتهم الجديدة . ومن ثم كفوا عن أن يظلوا أداة للملكية التى كانت قد أوقفت عليهم الهبات ، وأصبحوا يشكلون قلب المعارضة المحلية ؟

ولهذا السبب لم يكن يوجد روتين إدارى مستمر . فلم يكن بوسع

الأباطرة ممارسة رقابة ثابتة أثناء تغيبهم فى الشمال . حتى إذا حدث فى حالات استثنائية أن نزاعا قانونيا عرض للبت فيه أمام المحكمة الامبراطورية فى المانيا ، أو حدث أن أوفد الامبراطور بين وقت وآخر رسلا من قبله مزودين بسلطة تنظيم الأمور فى ايطاليا . ومن ثم اضطر الأباطرة ، الذين كانوا فى حاجة إلى سلطة تنفيذية منظمة ، إلى تكوين فريق من رجال كانوا يمثلون شكلا أو آخر من أشكال النفوذ المحلى أو الاجتماعى ، ويمكن إغراؤهم بالمجاملات لتكييف أنفسهم وفق السياسة الامبراطورية . وكان مثل هؤلاء الأنصار يجندون أحيانا من طبقة كبار رجال الكنيسة ؛ وأحيانا أخرى من أصاغر النبلاء العلمانيين . ولم يكن الامبراطور فى موقف يسمح له بالحكم بصفة فعالة ، إلا عندما يكون هو شخصيا فى ايطاليا وتحت إمرته جيش من المقاتلين .

وعلى أية حال ، فقد كان من المتعذر ، وفقا للنظام العسكرى الاقطاعى ،(١) على أى جيش فرنجى أو ايطالى البقاء فى ميدان القتال الا لفترة زمنية قصيرة ، وهى الفترة العادية وقدرها حملة مرسمية واحدة . وترتب على ذلك أن الرقابة الامبراطورية لم تتأكد إلا بصورة متوترة ، فى شكل نوبات من تدخل نشط

---

(١) كان الجيش الاقطاعى يتألف من الفرسان وهم من المقاتلين الذين ينحدرون من أصل عريق . وكان يشمل أحيانا فرقا من رماة السهام والمشاة . وكانت شجاعة الفارس نوعا من المغامرة الهوجاء ، وولاؤه هو ولاء التابع للسيد المتبوع . كما كانت مصالحه الخاصة لها اعتبارها ، لا سيما إذا تعلق الأمر بالغنائم والأسلاب وفديات الأسرى . وتميزت الحروب الاقطاعية بأن كل فارس كان يتصرف حسبما يحلو له وتعتمد النتيجة النهائية على سلسلة من المبارزات التى يحددها عامل الشجاعة الفردية كما تميز القتال فى ذلك =

تسبقها وتعقبها فترات من التكاسل والتراخي : وطبق نفس هذا التحـــديد الزمني على حملات الأباطرة ضد الأعداء الخارجيين . إذ بات ممكنا كسب المعارك دون الإفادة منها ، ضد عدو بوسعه السيطرة على جيش قائم متأهب للقتال(١) :

= العصر بشن الغارات على أراضي العدو بقصد السلب والنهب ، أو قيـــام المناوشات بين جماعات قليلة العدد من الفرسان ، أو المنازلات والمباريات الفردية ، أو المعارك المتعلقة بحصار المعاقل والحصـون . لذلك كانت الحروب بمعناها الواسع المألوف نادرة الوقوع فى اوروبا الاقطاعية : وإذا ضربنا صفحا عن الفارس الاقطاعى ، فقد كان قـــوام الجيش الاقطاعى وعموده الفقرى هم الأتباع الفلاحين الذين يعملون فى خدمة السيد اللورد . إذ كان هؤلاء الأتباع يؤدون الخدمة العسكرية اذا طلب منهم سيدهم ذلك. فيساعدونه بالقتال فى صفوفه كلما نشبت حرب بينه وبين غيره من الأعـداء . ثم يعودون إلى حقولهم عندما تنتهى الحملة أو الاغارة . وبهذه الطريقـــة كانت تتكون الجيوش الاقطاعية فى اوروبا فى العصور الوسطى ، انظر
Stephenson, Med. Feudalism, 27—31, 67—8 — المترجم.

(١) استكمل هارتمان الفكرة التي تقوم عليها هذه الفقرة فى المجلد الرابع (١٩١٥) من مؤلفه عن تاريخ ايطاليا . إذ تناول فى الفصل الثانى (ص٢٩-٦٧) أسس الحكم فى عهد اوتو وخلفائه . كما تكشف عباراته عن أهمية ايطاليا تحت حكم أسرة اوتو . انظر عن ذلك G. Barraclough, The Origins of Modern Germany (1946), 57—64, 69 —71 (هـ . ليبشيتز) .

وقد تعرض باراكلاف فى بحثه « امبراطورية العصور الوسطى » لما تقدم فى شيء من التفصيل والايضاح . انظر الفصل الثالث من بحث باراكلاف المترجم فى هذا الكتاب ـ المترجم .

بعض المراجع للفصل الرابع

Barraclough, G., The Origins Of Modern Germany. 1946.

Bäseler, G., Die Kaiserkrönungen in Rom und die Römer von Karl dem Grossen bis Friederich II (800—1250). Freiburg, 1919.

Browning, O., Guelfs and Ghibellines: A Short History of Mediaeval Itály from 1250—1409. London, 1893.

Cotterill, H. B., Mediaeval Italy during a Thousand Years (305—1313). London, 1915.

Hartmann, L. M., Geschichte Italiens im Mittelalter. 4 vols. Leipzig, 1897—1915.

Henderson, E. F., A History of Germany in the Middle Ages. London, 1894.

Kroener, A., Wahl und Krönung der deutschen Kaiser und Könige in Italien (Lombardei). Freiburg, 1901.

Lanzani, F., I comuni, da Carlomágno al Henrico VII. Milan, 1880.

Richter, G. and Kohl, H., Annalen der deutschen Geschichte im Mittelalter von der Gründung des fränkischen Reichs bis zum Untergang der Hohenstaufen. 4 vols. Halle, 1873—98.

Stubbs, W.,

1 — Germany in the Early Middle Ages (476—1250) . London and New York, 1908.

2 — Germany in the Later Middle Ages. Ed. by A. Hassall. London and New York, 1908.

Tout, T. F., The Empire and the Papacy, 918 — 1273. London, 1909.

Villari, P., Mediaeval Italy from Charlemagne to Henry VII. Trans. by C. Hulton. London, 1910.

يعتبر مؤلف فيلارى من أحسن ما كتب بالانجليزية عن تاريخ ايطاليا فى العصر الوسيط.

Zeller, J., Histoire d'Allemagne. 7 vols. Paris, 1872—92.

يتناول تاريخ المانيا منذ البداية حتى لوثر . ويهمنا منه الجزء الثالث ، وهو عن الامبراطورية الألمانية والكنيسة فى العصور الوسطى .

الفصل الخامس

إيطاليا بين البابوية والدولة البيزنطية

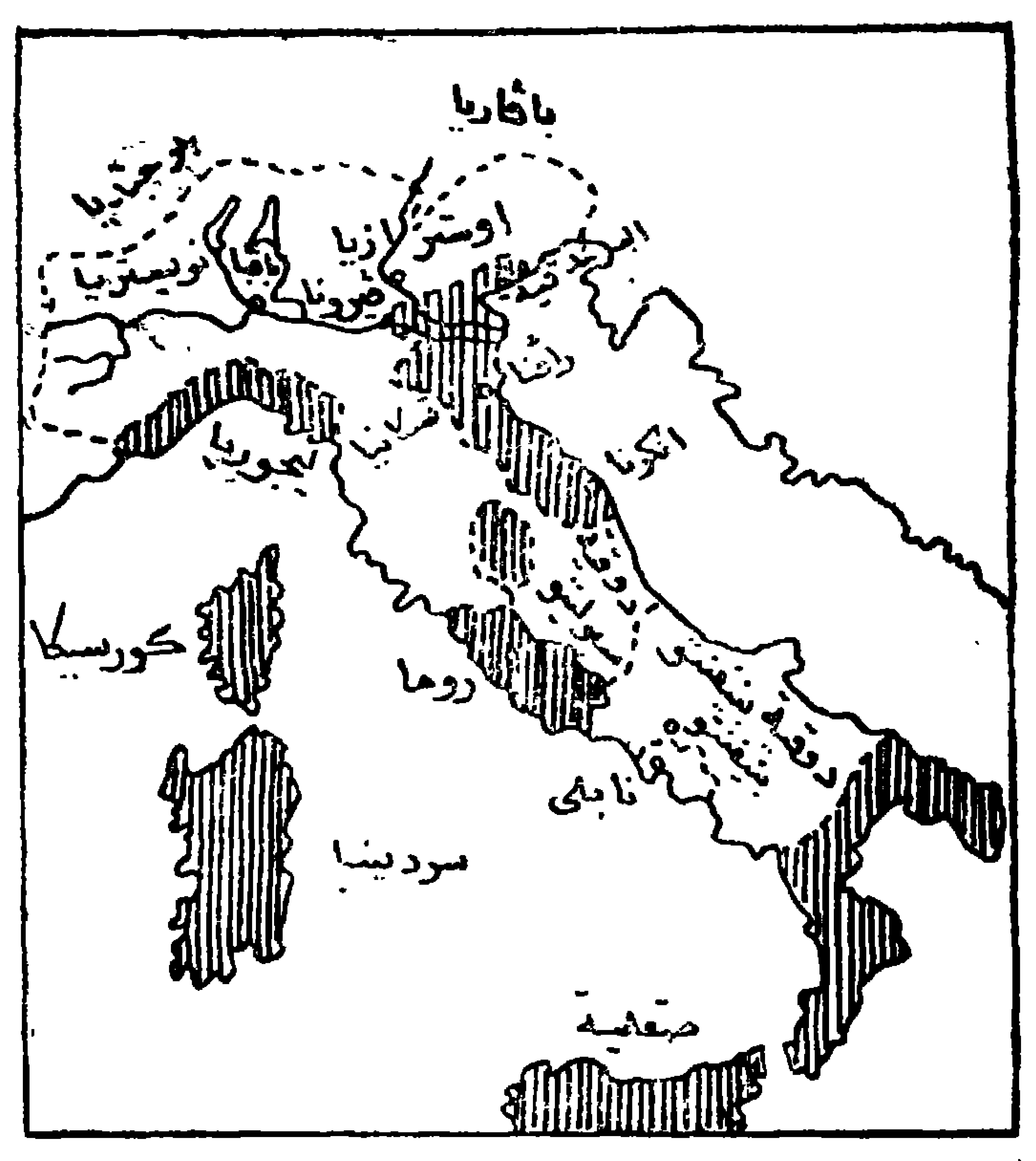
حد فاصل بين الشرق والغرب

تمدنا الأجزاء الإيطالية التي كانت أقل تأثرا بالنفوذ الجرماني بصورة واضحة فيما نحن بصدده . فقد وجدت هناك سمات مجتمع بيروقراطي التنظيم مندمج مع معالم نظام يخضع للاقتصاد الطبيعي : وبوسعنا تلخيص التاريخ الادارى للأقاليم الايطالية التابعة لبيزنطة ابتداء من القرن السادس حتى القرن الثامن باعتباره تجنيد للمقاطعات الكبيرة وحصر للوحدات العسكرية فى دائرة محدودة : وقد دلت البحوث الأخيرة على أن ذلك كان نتيجة للتراجع الاقتصادى ، واختفاء رأس المال ، ثم قيام حياة اقتصادية نشطة فى هذه الأقاليم الايطالية . ولم يسفر إعادة فتح جستنيان لايطاليا (١) عن شيء

---

(١) كان جستنيان فى سياسته الخارجية يستهدف إعادة مجد الامبراطورية الرومانية القديمة بفتح ايطاليا وافريقية واسبانيا وكل الولايات التي كانت تدخل فى نطاق تلك الامبراطورية. وقد شجعه نجاح حملته ضد مملكة الوندال فى افريقية الشمالية سنة ٥٣٣ على الاتجاه صوب مملكة القوط الشرقيين فى ايطاليا التي كانت فى حالة ضعف وتفكك ، ويحكمها ملك غير محبوب من رعاياه يسمى ثيودوهات (٥٣٤ — ٥٣٦) . وتم ذلك فى سنة ٥٣٥ . هكذا كانت الظروف مهيأة لأن يحرز جيش جستنيان بقيادة بلزاريوس نصرا كبيرا فى ايطاليا . فبعد أن استولى القائد البيزنطى على صقلية عبر البحر إلى ايطاليا ، وسقطت نابلي وروما فى قبضته سنة ٥٣٦ . وفى تلك الأثناء ثار القوط على=

خريطة رقم (٤)



ايطاليا فى أواخر القرن السادس

= زعيمهم وذبحوه واختاروا ملكا آخر ايسمي وتجز Witigis (٥٣٦-٥٤٠).
فتوجه على رأس جيش قوطى كبير فى محاولة فاشلة لاسترداد روما . وكان بليزاريوس قد تلقى مددا جديدا من بيزنطة ، فاتجه بجيشه نحو رافنا عاصمة القوط التي استسلمت له سنة ٥٤٠ ، ووقع وتجز أسيرا فى قبضته . واعتقد القائد البيزنطي أنه أتم مهمته فى ايطاليا ، وقفل عائدا إلى =

سوى قيام اتصال واهن ضعيف بين تلك البلاد النائية وقلب الامبراطورية البيزنطية . كذلك لم تفلح الحكومة الامبراطورية على الاطلاق فى إعادة كل من البيروقراطية العسكرية والبيروقراطية المدنية في الأقاليم التابعة لها فى ايطاليا الى نفس المستوى الذى كانتا عليه فى الشرق . وقد أسفرت الثورة الايطالية ضد بيزنطة فى عهد ليو الايسورى (١) (٧١٧ - ٧٤٠) عن التمازج بين ممثلى الادارة البيزنطية المحليين وطبقة ملاك الأرض ، بحيث انحصر

= القسطنطينية بعد أن ترك لرجاله مهمة القضاء على آخر بقايا المقاومة القوطية هناك . وكانت بعض المدن لا تزال فى قبضة القوط مثل بافيا وفيرونا : وسرعان ماتطورت الأمور لصالح القوط الذين وجدوا لهم ملكا فى شخص يسمى توتيلا Totila (٥٤١ - ٥٥٢) الذى أحرز عدة انتصارات على قوات جستنيان . وأخذت مدن ايطاليا الوسطى والجنوبية تسقط فى قبضة القوط . كذلك وقعت نابلى سنة ٥٤٣ ، وانتهى الأمر بوقوع روما نفسها سنة ٥٥٠ بعد أن عجز الجيش البيزنطى عن انقاذها . ولكن جستنيان جمع جيشا كبيرا على رأسه قائده المشهور نارسيس Narses الذى تمكن من استعادة روما ثانية من القوط وإعادة ايطاليا إلى حكم الامبراطورية الشرقية . أنظر عن ذلك اومان : نفس المرجع . ص٦٤-٧١ ، وكذلك Ostrogrosky, op. cit., 65; La Monte, op. cit., 54 — 7 - المترجم .

(١) شغل ليو الايسورى الوظيفة الامبراطورية فى وقت كانت فيه البلاد مسرحا للفوضى فى الداخل والخارج . وقد بدأ حكمه بصد الهجوم العربى على القسطنطينية سنة ٧١٧-٧١٨ . ولكن عهده اشتهر بصفة خاصة بحملته على الأيقونات سنة ٧٢٥ عندما أمر بإزالة الصور والتماثيل من الكنائس والأديرة فى العاصمة البيزنطية . وانقسمت الدولة ما بين مؤيد للحركة ومعارض لها : وعلى العموم فقد كان الجيش والمثقفون فى صف ليو ، بينما ثار ضده =

نطاق البيروقراطية البيزنطية الأصلية فى أضيق الحدود ، شأنها فى ذلك شأن شبكة واسعة تنتشر خيوطها المتفرعة فوق أقطار شاسعة : وكانت بعض الوحدات العسكرية فقط تحت رئاسة القائد الأعلى فى المراكز الرئيسية ، بمثابة جند عاملين بيزنطيين . بينما جمعت معظم كتائب حاميات الامبراطورية من القوات غير النظامية [المجندة من بين المستأجرين التابعين] تحت رئاسة الترابنة (١) tribuni الذين غدوا أعضاء فى طبقة ملاك الارض الايطاليين . وقد واظبت مختلف المقاطعات على دفع مبالغ محددة لمحصلى الضرائب الامبراطوريين الذين كانوا يطالبون بها مرة واحدة فى السنة . ومن المحقق أن

= العامة ورجال الدين : واستخدم ليو القوة فى تنفيذ سياسته ليس فى القسطنطينية فقط وإنما فى كافة أرجاء الدولة . وقاومت الولايات الاوروبية ، وبخاصة ايطاليا ، إجراءات الامبراطور . وكان من أهم الآثار التى ترتبت على تلك الحركة فى ايطاليا أن ضعفت سلطة بيزنطة فيها ، وأصبح ممثل الامبراطور البيزنطى فى روما مجرد شبح لا قيمة له . واستغلت البابوية فى روما تلك الظروف لتدعيم نفوذها واستقلالها على حساب القسطنطينية . فقاومت حركة تحطيم الصور مقاومة عنيفة اتخذت لها أكثر من مظهر يبدو فيما طرأ على العلاقات بين شقى العالم المسيحى وقتذاك . وكيفما كان الأمر فقد توفى ليو سنة ٧٤٠ بعد حكم دام قرابة ربع قرن ، تاركا العرش ومشكلة الحركة اللا أيقونية لابنه قسطنطين الرابع . أنظر ابراهيم العدوى : الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية (١٩٥١) ، ص ٦٦ وما بعدها ، السيد الباز العرينى : الدولة البيزنطية ، ص ٥٨ وما بعدها ، وكذلك Ostrogorsky, op. cit., 142 — 4, 146 — 7; Sullivan, op. cit., 99—102; Runciman, Byzantine Civilsation, 44 — المترجم

(١) الترابنة هم مندوبو العامة فى روما القديمة ، ومجال عملهم مجلس الشعب =

أقاليم وسط ايطاليا لم تسدد أية مبالغ من ضريبة الارض سواء للطبقة البيروقراطية أو للخزينة البيزنطية . ويبدو أنه قد تم توزيع اقطاعيات الدومين الامبراطورى بقصد مساعدة كبار الموظفين الذين احتفظوا بطابعهم البيزنطى .

وكانت البابوية هي وريثة الإدارة البيزنطية فى وسط إيطاليا (١) . فقد ضمت إليها بقايا البيروقراطية البيزنطية وهي فى مرحلة التدهور والانهيار . وكانت لا تزال هناك وظائف يتم التعيين فيها سنويا عن طريق « أوامر تكليف » praecepta actionis ، وكانت التزاماتها المالية حيال الخزانة

= Comitia tributa . وكانت وظيفة التربيون مخصصة أصلا للدفاع عن حقوق الشعب . وبمرور الزمن تزايدت قوتها حتي فاقت سلطة الوظائف الأخرى . وهكذا أصبحت وظيفة للشعب الرومانى بأسره لمواجهة مجلس السناتو ، على الرغم من أن الترابنة لم يكن لهم صلة بشئون الحكم والإدارة ولكن كان لهم حق الاعتراض على القوانين والقرارات التي يصدرها أى موظف عام . ولهم كذلك السلطة على جميع المواطنين الرومان . وكانوا دائما بحكم القانون ، من أفراد الطبقة العامة . وقد كانوا فى البداية أثنين ، ثم أصبحوا خمسة . وفى سنة ٤٥٧ ق.م زاد عددهم الى عشرة ، وظلوا هكذا حتى نهاية تاريخ الامبراطورية الرومانية . وأشخاصهم لا يجوز التعدى عليها ، أنظر
Cary, Hist. of Rome, 77, 80, 84, 116—7, 119, 121, 246, 291,340, 364, 368, 390, 739; Smaller Classical Dict , 522 - المترجم

(١) اهتمت البابوية بتكوين ملك دنيوى لها وسط ايطاليا نتيجة للظروف والأحداث الذى ألمت بنهاية التاريخ القديم وبداية العصر الوسيط ، وبخاصة غزوات الجرمان التي قضت على الامبراطورية الرومانية والمسيحية التي قضت =

تسوى بمبلغ معـلوم ، ويطلق على هذه الطريقة لفظ «حق الانتخاب» (١) suffragium : فضلا عن وجود إدارة بابوية تتولى شئون إقطاعيات الكنيسة إرث القديس بطرس : كما كانت توجد وظائف بالمحكمة البابوية فى روما مختصة بشئون الإدارة الكنسية . ويمكن تلخيص التاريخ الداخلى للدويلات

= على الوثنية وعبادة الامبراطور : وكان ملكها يشمل بصفة عامة المنطقة الواقعة بين البحرين الأبيض والأدرياتيكي : ومن أهم المشاكل التي واجهت الدويلات البابوية وأدت فى نهاية الأمر إلى ضعفها وانهيار حكومتها وتغلغل الفساد فى جهازها الكنسى ، هو انغماس البابوات فى صراع عنيف مع القوى الزمنية الأخرى حول المسائل العلمانية ، ومحاولتهم السيطرة على إيطاليا بأية وسيلة ـ كل هذا أضعف من هيبة البابوات ونفوذهم فى أواخر العصر الوسيط ، وأوجد فى شبه الجزيرة الايطالية حالة من الفوضى والاضطراب ، حتى باتت القوى الخارجية ، وبخاصة فرنسا وأسبانيا والنمسا ، تطمع فيها ، الأمر الذى أعاق تكوين الوحدة الايطالية حتى أخريات القرن التاسع عشـر . أنظر كولتـون : عالم العصـور الوسطى ، ص ٣٩ ، وكذلك La Monte, op. cit., 391-4 ; Baldwin, op. cit., 46-58, 76-81 - المترجم :

(١) استخدمت هذه الطريقة فى المقاطعات البيزنطية خلال القرن الخامس عندما كان حاكم المقاطعة يشترى منصبه بمبلغ معين من المال يذهب بعضه للامبراطور والبعض الآخر للوالى البريتورى . وما أن يتسلم الحاكم مهام منصبه الجديد حتى يسعى إلى تعويض ما دفعه بل وأكثر منه ، مما يغتصبه من الضرائب المحلية . أنظر Runciman, Byzantine Civilisation, 86 ، وترجمته العربية « الحضارة البيزنطية » ، ص ٩٥ ـ المترجم

البابوية ، بعد أن أدت « هبـــة ببن » (١) Pepin's donation ، إلى تعزيز استقلالها السياسى عـن بيزنطـــة ، بأنه كفـــاح فى سبيـل السلطة بين البيروقراطية البابوية ومـــلاك الأرض الذين احتفظوا لأنفسهم بمراكز

---

(١) تنسب هذه الهبة إلى ببن القصير الذى كان آخر وزراء الميروفنجيين وأول ملوك الأسرة الكارولنجية . وكانت كلمة ببن هذا هى الكلمة العليا فى الحكومة الميروفنجية ، فى حين كان ملوك الدولة لا حول لهم ولا طول . لذا قرر ببن فى أواسط القرن الثامن الاستيلاء على التـــاج الميروفنجى بالوسائل السياسية والدبلوماسية وليس عن طريق القوة . فأرسل بعثة من قبـــله إلى البابا زكريا (٧٤١—٧٥٢) فى روما يستفتيه إن كان من الأصـوب أن يظل التاج الفرنجى على رأس من لا قوة له ، أو على رأس من بيده الحل والعقد وإن كان لا يحمل لقب الملك . وكان البابا زكريا سياسيا حـــكيما ، إذ أدرك أنه لا فائدة ترتجى من التمسك بملوك ضعاف ، خاصة وقد علم أن ببن كان عازما فعلا على الاستيلاء على التاج . ووجد أن من الأصوب ممالئته وكسبه إلى جانبه . وكان أن أجابه إلى طلبه . فبادر ببن على الفور بنقل التاج من آخر ملوك الميروفنجيين العاطلين وهو شيلدريك الثالث سنة ٧٥١ ، ذلك التاريخ الذى يعتبر بداية الدولة الكارولنجية . وفى سنة ٧٥٤ قدم البابا استيفن الذى خلف زكريا إلى غالة حيث توج ببن ملكا على الفرنجة : وهـكذا تم تأسيس البيت الكارولنجى بمساعدة الكنيسة الرومانية ومباركتها . وفى نفس تلك السنة نزل ببن فى إيطاليا والحق الهزيمة باللمبارديين ، ومنح أرخونيـة رافنا إلى بابوية روما . وفى هذا الوقت أصدر ببن الهبة المعروفة باسمه ، ومؤداها أنه قد وهب البابوية ، بالإضافة إلى كيانها الروحى ، جميع إيطاليا لتكون ملكا لها . أنظر ابراهيم العدوى : المجتمع الأوربى فى العصور الوسطى ، ص ٧٤ - ٩٧ ؛ وكذلك La Monte, op. cit., 155. - المترجم

هامة فى الإدارة الاقليمية . (١) وتمثل إمارة البريك (٢) Alberic فى القرن العاشر انتصار طبقة ملاك الأرض : وبقدر ما كانت البابوية سلطة اقليمية فى قلب إيطاليا ، شأنها فى ذلك شأن جيرانها ، كذلك كان انزلاقها إلى الاقطاعية ، ولكن باعتبارها سلطة عالمية لم يكن نطاق نفوذها وموارد دخلها قاصرين على الدويلات البابوية والأراضي المملوكة فحسب . اذ احتفظت البابوية البيروقراطية لنفسها بامكانيات للعمل فى مجال لا سبيل للفكاك منه ؛ وذلك عن طريق تطبيق النظام الاقطاعى.وكان هـذا المجال يبشر بآمال طيبة للمستقبل.

وقد أدى إعادة تأسيس الادارة البيزنطية فى جنوب ايطاليا فى نهاية القرن التاسع ، بعد الكارثة التي حلت بلويس الثانى (٣) ، وبعد معاودة الغزو

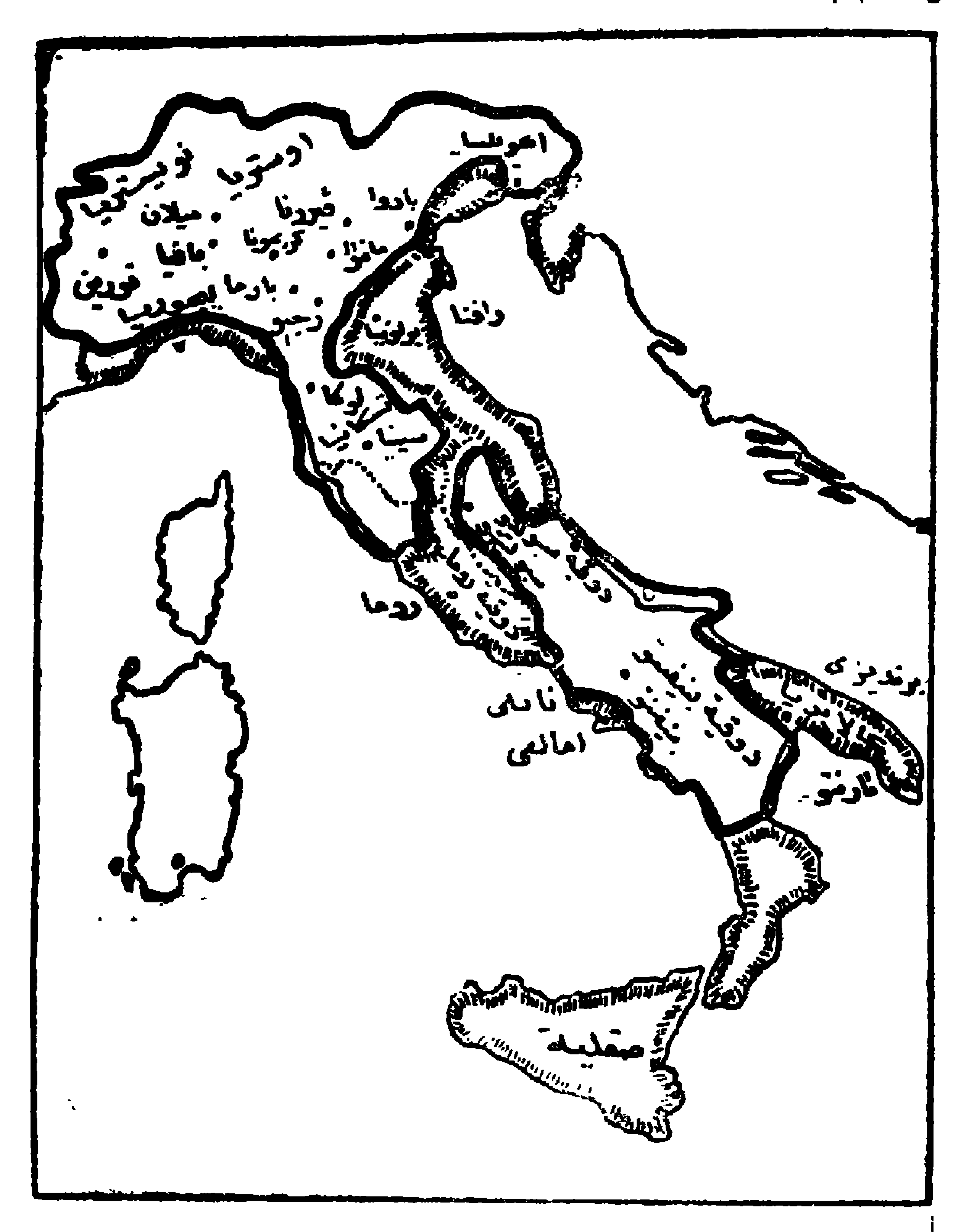
---

(١) فيما يتعلق بالبيروقراطية والأرستقراطية مالكة الأرض فى الدويلات البابوية ، أنظر Geschichte Italicns, III, 2, cap. I, 1-12

(٢) فيما يتعلق بالبريك سناتور روما ، أنظر La Monte, op. cit., 174-5 المترجم .

(٣) بعد موت شارلمان خلفه على العرش الكارولنجى ابنه لويس الأول المعروف باسم لويس الصالح (٨١٤ - ٨٤٠) الذى قسم دولتـه بين أبنائه الثلاثة سنة ٨١٧ . وبعد موته نشبت حرب دامية بين أبنائه انتهت بمعاهدة فردان سنة ٨٤٣ التى انقسمت الامبراطورية بمقتضاها إلى ثلاثة أقسام : القسم الغربى ويشمل فرنسا ، والشرقى ويشمل ألمانيا ، والثالث عبارة عن ممر طويل بين القسمين الآخرين ويشمل مقاطعات فريزيا ولوثارنجيا وبرجنديا وبروفانس ولمباردیا وبقية ايطاليا من بحر الشمال إلى البحر المتوسط

خريطة رقم (٥)



حدود مملكة لمبارديا حوالى سنة ٦٠٠

حدود اكسرخية ايطاليا حوالى سنة ٦٠٠

حدود الدويلات البابوية حوالى سنة ٧٩٠

ايطاليا خلال القرنين السابع والثامن

بقيادة الامبراطور المشهور نقفور فوكاس (١) ، أدى إلى قيام نموذج مغاير

=وقد حل الحاكم على هذا القسم الأخير وهو لوثير (٨٤٠ - ٨٥٥) نقب الامبراطور . وانقسمت بموته مملكته بين أبنائه الثلاثة لويس الثانى (٨٥٥- ٨٧٥) وتركت له ايطاليا ، ولوثير (٨٥٥ - ٨٦٩) وتركت له أراضى الشمال حتى الألب أى اللورين ، بينما كانت بروفانس من نصيب شارل (٨٥٥ - ٨٦٣) . وقد آل اللقب الامبراطورى الى لويس الثانى . وكانت هذه هى فترة تدهور الامبراطورية الكارولنجية وذهاب أملاكها الى ممثلى الأسرتين الباقيتين . وتظل الأحوال غير مستقرة بعض الوقت إلى أن تقوم أسرة كابيه بفرنسا (٨٨٨ — ١١٢٧) وأسرة السكسون فى ألمانيا (٩١٩ - ١٠٥٦) . وبقيام الأسرة السكسونية تنبعث الفكرة الامبراطورية من جديد فى وقت كان قد اشتد فيه ساعد البابوية . ويكون هذا فى الواقع بداية عصر جديد ، يتميز بالكفاح المرير بين البابوية والامبراطورية على المسائل العلمانية . أنظر ا.ا. فازيلييف : العرب والروم ، ص ٢٣١ والحواشى ؛ وكذلك La Monte op. cit., 162-6; Sullivan, op. cit., 141 — 2; Shorter Camb. Med. Hist., I, 342 ff. — المترجم.

(١) حكم نقفور فوكاس من سنة ٩٦٣ إلى سنة ٩٦٩ . وقد بادر فور توليه الحكم بالزواج من أرملة سلفه المسماه ثيوفانو حتى يضفى على حكمه صبغة شرعية . وهكذا أصبح امبراطورا ووصيا على طفلى سلفه القاصرين بازيل وقسطنطين . وعارضت الكنيسة أمر زواجه ، فانتقم منها ومن رجالها . ولعل أهم ما يميز حكمه هو حروبه الخارجية ضد العرب . أما عن موقفه من الغرب ، فقد رفض الاعتراف بفتوحات امبراطور الغرب أوتو الثانى فى جنوب ايطاليا سنة ٩٦٨ . وجدير بالذكر أن تلك الفترة التى تميزت بالتوسع=

بقصد إيجاد التوازن بين طبقة ملاك الأرض والطبقة البيروقراطية. وهنا أوجد

= الخارجي للامبراطورية البيزنطية، قد شاهدت كذلك تجديد الامبراطورية الغربية. وكان أن ثارت من جديد عوامل المنافسة بين هاتين الامبراطوريتين: وهي منافسة لها وجهان: أحدهما نظري والآخر سياسي. وإذا تحدثنا مع الناحية النظرية، تمكن القول بأن الفكرة الامبراطورية كانت تقوم على وحدة الامبراطورية، أي على وجود امبراطورية واحدة. ومع ذلك فقد وجدت امبراطوريتان، كل منهما تدعي أنها وريثة روما القديمة. ومن الناحية السياسية تمكن القول بأنه كان لكلا القوتين مصالح متشابكة في جنوب ايطاليا. ففي سنة ٩٦٨ أرسل أوتو الكبير، الذي توج امبراطورا في روما قبل اعتلاء نقفور فوكاس العرش بسنة واحدة، والذي أخضع معظم ايطاليا لحكمه، سفارة إلى القسطنطينية للوصول إلى اتفاق ودي حول موضوع تملك الأجزاء الايطالية التي لم تكن قد خضعت له بعد. وقد عرض مبعوث أوتو، وهو الأسقف ليوتبراند أوف كريمونا، على الحكومة البيزنطية مشروعا يقوم على أساس زواج المصاهرة بين ابن أوتو الأول وبين احدى الأميرات البيزنطيات يكون صداقها أملاك بيزنطة في جنوب ايطاليا. واعتبر هذا العرض في بيزنطة مثارا للسخرية، وتم رفضه باحتقار. وأحس الحاكم البيزنطي أن مكانة امبراطوريته ومصالحها قد أهينت بسبب تلك الأحداث التي كان الغرب مسرحا لها. ومما أثار ضغينته حصول أوتو على التاج الامبراطوري، وسيادته على روما، والكنيسة الرومانية، وهيمنته على ايطاليا، وتحالفه مع أميري كابوا وبنيفنتو، وهما من الأفصال التابعين للامبراطورية البيزنطية. وبلغ به الأمر أن هاجم مدينة باري البيزنطية. كل هذا أثار حقد الامبراطور البيزنطي الذي أحس أكثر من من أي وقت مضى بقوته، خاصة بعد النجاح الباهر الذي حققته عملياته الحربية في الشرق. وعلى أية حال، فإن كل ماخرج به مبعوث أوتو، الذي عومل كسجين في القسطنطينية، هو أن سيده ليس امبراطورا =

البيزنطيون وحدتين إداريتين يطلق على كل منهما لفظ « ثيماتا » (١) Themata أى ألوية الثغور. كما أدخلوا نظام البيروقراطية العسكرية بكامل أجهزتها بما فى ذلك المزارع البيتية للجند الذين تحملوا عبء الخدمة العسكرية . ومع ذلك لم يكن من الميسور الحيلولة دون استتناء قيام طبقة ملاك الأرض بمهام السلطة الإدارية فى المناطق الخاضعة للنفوذ اللمباردى (٢) .

ولم تكن الاقطاعيات الكبرى هى وحدها التى تركت دون مساس بوصفها وحدات إدارية فى حوزة الملاك اللمبارديين ، بل كانت معفــاة أيضا من الضرائب المباشرة حسبما تؤكد المصادر التى تحت أيدينا . وكان الموظفون المحليون ، على الرغم من ألقابهم البيزنطية ، يجنــدون من بين صفوف طبقة النبلاء اللمبارديين ولم يكن كبار القادة الاقليميين «Strategoi» يتقـاضون مرتباتهم من خزينة الضرائب الامبراطورية ، وإنما تركت لهم مهمة تحصيل دخلهم الخاص من الوحدات الإدارية (ألوية الثغور) . وكان ذلك تحولا كبيرا عن مبدأ المركزية . وهذا يعني أنه كان يتعين عليهم أن يعيشوا بصفة أساسية على الدخل الذى يتقاضونه من أملاك الدومين المحلى .

= ولا هى رومانيا ، وإنما مجرد مالك المانى فحسب، وأنه لا مجال للتبــاحث فى مسألة زواج المصاهرة بين ابن حاكم من البرابرة وبين أميرة بيزنطية . أنظر السيد الباز العرينى : الدولة البيزنطية ، ص ٣٧٦ وما بعدها . راجع أيضـا L. Bloy, Constantinople et Byzance (1917), 11-76; Ostrogorsky, op. cit., 253—9 ـ المترجم .

(١) فيما يتعلق بالثيماتا ، انظر ص ٩٤-٩٥ ح١ من هذا الكتاب ـ المترجم .

(٢) وهى الأراضى التى كانت تكون بصفة أساسية دوقية بنيفنتو ، ذلك اللمباردى الكبير ، وتكتنفها من كل جانب مناطق جنوبى ايطاليا .

هذا من ناحية ،ومن ناحية أخرى فقد كانت الحكومة البيروقراطية أمراً واقعا فى الأراضي التابعة لبيزنطة فى جنوب إيطاليا . ويتضح عملها فيما كان يجرى من الروتين اليومى للادارة المدنية تحت رقابة موظفين مرسلين من قبل القسطنطينية . وقد اختصت السياسة العسكرية بإقامة الاستحكامات والعمل على صيانتها والمحافظة عليها . كما اختصت بنشاط الأسطول البحرى . كذلك وجدت الألقاب البيزنطية طريقها إلى الإمارات اللمباردية السابقة؛ ولكن لم تكن توجد فيها ادارة بيزنطية .

لقد كان الإحساس بالتباين والاختلاف بين هذين النموذجين للدولة ، ونعني الدولة الشرقية أو البيزنطية ، والدولة الغربية أو الجرمانية ، شديد الأثر على الفكر والعمل عندما التقى ممثلو الجانبين . وعبر عن ذلك الأسقف ليوتبراند اوف كريمونا (١) فى تقاريره العليلة عن سفارته إلى

---

(١) عاش ليوتبراند أسقف كريمونا فى القرن العاشر . وهو من الشخصيات البارزة فى إيطاليا ، كان أبوه يعمل فى السلك الدبلوماسي ، وقد زار العاصمة البيزنطية كمبعوث من قبل ملك هيوج . ولم يمض وقت طويل على وفاة الأب (حوالى سنة ٩٢٧) ، حتى أرسل ليوتبراند ، وهو لا يزال صبيا صغيراً إلى بلاط بافيا لتلقى العلم . وكان ليوتبراند لا يزال فى البلاط بعد سقوط هيوج واعتلاء برنجار الثانى العرش . وفى سنة ٩٤٩ أرسله برنجار فى مهمة رسمية إلى الامبراطور البيزنطى قسطنطين السابع . ولكنه تعرض بعد عودته لاضطهاد برنجار وزوجته ويلا Willa ، فلجأ إلى أوتو الكبير الذى ضمه إلى حاشيته. وفى سنة ٩٦٠ أصبح أسقفا على كريمونا. وقام بدور بارز فى الاتصالات التى تمت بين أوتو والرومانيين. كما قام سنة ٩٦٣ بترجمة الخطبة التى ألقاها الامبراطور الألمانى فى روما بعد تتويجه . وفى السنة التالية عكف على تدوين =

القسطنطينية. (١) وكان ذلك أيضا هو سبب الرهبة المشوبة بالاعجاب من جانب العالم الغربي حيال الجمهورية res publica في الشرق. (٢) وهو ما أوحى أيضاً بالشعور بالتفوق الذى تميزت به الدبلوماسية الامبراطورية فى بيزنطة، فيما يتعلق بتعاملاتها مع الغرب المفلس الذى ساد الاعتقاد أنه من السهل رشوته بالمال؛ بمعنى أنه كان واقعا تحت قوة إغراء المال فى القسطنطينية. ولقد واجه

= تاريخ رحلة أوتو إلى إيطاليا. وفى سنة ٩٦٨ ذهب ثانية إلى القسطنطينية مبعوثا من قبل أوتو للاتفاق مع الامبراطور نقفور فوكاس على موضوع زواج المصاهرة بين ابنة الامبراطور المسماة ثيوفانو و بين أوتو الصغير. وبعد حياة حافلة توفى ليوتبراند سنة ٩٧١ أو ٩٧٢ . لقد عاش هذا الرجل حياة مليئة بالأحداث الهامة التي عاصرها وكان شاهد عيان لها. كان مثقفا ثقافة طيبة، يجيد اللاتينية واليونانية إجادة تامة . وكان يستخدم فى كتابته اسلوبا روائيا رائعا جعله محببا للقراءة. كما كان على صلة بكبار رجال عصره، وموضع ثقة الكثيرين منهم : وأبدى مقدرة هائلة فى الشئون السياسية : وقام بتسجيل ذلك كله فى عدة كتب وأبحاث منها مؤلفه المعنون « تاريخ اوتو الأول » ، وتقريره المشهور عن سفارته إلى بيزنطة سنة ٩٦٨ : هذا : ولا تخلو كتاباته من القدح والدعابات الفكاهية. ونجد مثلا واضحا لأهاجيه عندما تعرض لبرنجار فى كتابه المسمى « Antapodoses » الذى يتناول تاريخ ايطاليا والامبراطورية الغربية فى الفترة من سنة ٨٨٧ إلى سنة ٩٥٠ . وأما عن دعاباته وتعليقاته اللاذعة فنجد مثلا لها فى تعرضه لأباطرة بيزنطة وبخاصة ليو بن بازيل. أنظر عن ذلك La Monte, op. cit., 245—6; W. P. ker. The Dark Ages (1955), 180—5 — المترجم :

(١) Relatio de Legatione Constantinopolitana, cap. 53-55
وقد قام المؤرخ ف. ا. رايت F. A. Wright بترجمة مؤلفات ليوتبراند اوف كريمونا — أنظر ص ٢٦٦—٢٦٩ .

(٢) المقصود بذلك الامبراطورية البيزنطية — المترجم .

البيزنطيون نشاط الغرب الذى لا يكل ، كما واجهوا هزائمهم المتكررة ، بشعور من الإباء جدير بهم . وبدا لهم « امبراطور الرومان الجديد » كما لو كان صورة كاريكاتورية للملك البيزنطي الذى عرف باسم باسيليوس (١) basileus ، أى ملك الملوك ؛ وليس كشريك الند للند فى المفاوضات السياسية الدائرة بين الطرفين . وحتى عندما كانت الاتفاقات تنتهي إلى نتيجة ما ، كانت عادة تنتهى بقيام سوء التفاهم بينهما . هذا وينطوى الخطاب الشهير (٢) الذى وجهه الامبراطور لويس الثانى إلى بازيل الأول ، (٣) والذى دافع فيه عن أصالة الامبراطورية ، على ما يثير الاهتمام . وكان الاسطول البيزنطى قد

---

(١) « باسيليوس » هو الاسم الاغريقي القديم لملك الملوك : وقد استخدم هذا اللقب لأول مرة كلقب يحمله الامبراطور البيزنطى فى عام ٦٢٩ بعد أن الحق هرقل هزيمة ساحقة بالفرس فى حروبه المضادة ضدهم . فأصبح الامبراطور عادة يلقب منذ ذلك التاريخ باسم « باسيليوس » ، ومما يذكر أن بيزنطة رفضت أكثر من مرة منح الاباطرة الالمان هذا اللقب . وقد أطلق اسحق انجيلوس على الامبراطور فردريك بارباروسا لقب « ملك المانيا » « rex Alamanniae » ، وإن دل هذا على شيء فانما يدل على إصرار أباطرة بيزنطة على أنه ليست هناك سوى امبراطورية واحدة ، يحرسها الله ويرعاها ، تلك هى الامبراطورية الرومانية التي يمثلها الامبراطور البيزنطى . أنظر رنسيمان : الحضارة البيزنطية ، ص ٦٤ ، وكذلك Baynes & Moss, op. cit., 273 — المترجم .

(٢) الخطاب المذكور منشور فى مجموعة Monumenta Germaniae Historica Scriptores, III, 521—7.

(٣) حكم بازيل الاول من سنة ٨٦٧ الى سنة ٨٨٦ : ولم تكن البلاد هادئة تماما عندما اعتلى العرش ، ومع ذلك فقد عرف كيف يمهد لها سبل الاستقرار . وقد =

ظهر أمام مدينة بارى لمساعدة لويس الذى لم يكن يملك اسطولا يحاصر به تلك المدينة الساحلية المحصنة التي كانت بيد العرب : وحوالى هـذا الوقت تم تسريح الجيش الفرنجى — اللمباردى المحاصر للمدينة ، فيما عـدا قوات المراقبة . وكانت الحملة قد طال بها المدى ، بحيث تم ترحيل الجند إلى ديارهم، طبقا للعرف الجارى : وقد أدت العادة المتبعه الخاصة بتخزين المؤونة ، إلى إعاقة حملة طال مداها . وأما بازيل وقائده : اللذان اعتادا قيـادة القوات النظامية ، فقد اتهما لويس بالخيانة ، وقالا بأنه السبب فى عدم انتظار الجيش الفرنجى لحلفائه البيزنطيين . وحاول هذا الأخير ، المرة تلو الأخرى ، أن يعلل عبثا أسباب انسحاب القوات حسبما كان يراها من وجهة نظره .

= اتجه أول ما اتجه نحو الدولة العربية التي كانت تعانى من الضعف والتفكك وقتذاك . فأحرز عدة انتصارات من كيليكية إلى أرمينية . وترتب على ذلك أن أصبحت جميع المنافذ التى اعتاد العرب الزحف منها إلى آسيا الصغرى فى قبضة البيزنطيين . كذلك صاحب التوفيق بازيل فى غربى البحر المتوسط حيث كان المغاربة قد استولوا على كريت وصقلية وتارنتوم ، وضيقوا على تجارة بيزنطة فى تلك الجهات . وأصبحت سيادة العرب على البحر المتوسط فى أواخر القرن التاسع سيادة فعلية ، وكانت سفنهم تهاجم أملاك البابوية فى وسط ايطاليا . ولم يكن بوسع البابوية أو الدولة الكارولنجية دفع العرب بسبب المنازعات القائمة فى البيت الكارولنجى وأخطار الشماليين . لذلك لم يتردد كل من البابا الرومانى وامبراطور الدولة الكارولنجية فى طلب المساعدة من بازيل ضد العرب . وكان طبيعيـا أن يرحب الامبراطور البيزنطى بتلك الفرصة التى اتيحت له لاستعادة النفوذ البيزنطى فى ايطاليا وفى غربى البحر المتوسط ،وهكذا تدخل فى شئون ايطاليا سنة ٨٧٦ . وأجلى =

وبعد جيل من ذلك التاريخ كانت نظرة الامبراطور ليو العاقل (١) إلى

=العرب عن تارنتوم بعد ذلك بأربع سنوات. وأنشأ اقليمين بيزنطيين فى أملاك الدولة الكارولنجية التي بادرت إلى مساعدته والانضواء تحت لوائه. وبانتهاء الدولة الكارولنجية وقيام عدة دول مستقلة فى الغرب، وهى فرنسا والمانيا وبرجنديا وايطاليا، خلا الجو لبيزنطة لتحقيق أطماعها القديمة فى ايطاليا بل وفى اوروبا كلها : هذا عن سياسة بازيل الخارجية، أما فيما يتعلق بسياسته الداخلية فقد وفق فيها إلى حد بعيد، حتى أنه طلب من لويس الثانى امبراطور الغرب أن تكون هناك امبراطورية واحدة كما كان الحال فيما مضى، وتلك الامبراطورية هى الدولة البيزنطية دون سواها. وقد توفى بازيل فى ظروف أليمة سنة ٨٨٦ دون أن يحقق آماله الواسعة العريضة. أنظر عن ذلك
Diehl, L'empire byzantin, 98; Barker, op. cit., 20, 89 ff.; Ostrogorsky, op. cit., 207 ff. - المترجم.

(١) حكم ليو السادس المعروف بليو العاقل من سنة ٨٨٦ إلى سنة ٩١٢. وقد نشأ فقيها يقرض الشعر. ولعل أهم ما يميز حكمه مسألة التنظيم الإدارى ومشكلة وراثة العرش. إذ تطورت فى عهده مسألة إيجاد وريث للعرش إلى تعزيز الحق الشرعى لأبناء الأباطرة. وهكذا تم ربط أبناء البيت المقدونى بالدولة البيزنطية ربطاً متيناً، بعد أن جعل ليو لمبدأ الوراثة مكانته فى التشريع البيزنطى وقد امتد نشاط ليو الى التأليف فى شئون الدولة وأنظمتها. ومن أهم مؤلفاته كتاب «المحتسب البيزنطى» وكتاب «البروتوكول الامبراطورى» وثالث فى فن الحرب، وآخر عن التنبؤات، ومؤلف عن مستقبل بيزنطة. ونشاطه واضح فى ميدان التشريع. اذ أشرف على جمع مجموعة من القوانين الامبراطورية منذ جستنيان. وهى تقع فى ستين مجلدا. أنظر عن ذلك
Barker, op. cit., 9, 99–100; Hussey, op. cit., 93–4, 121, 132, 148; Baynes & Moss, op. cit., 112, 208 المترجم.

طابع النظام العسكرى لدى اولئك البرابرة الغربيين تتميز بكونها أكثر عمقا.(١) فقد كشفت تقارير قواده أن قوات الغرب لم تكن مسلحة على نسق واحد، ولم تكن متجمعة فى تشكيلات حربية منظمة . كذلك لم تكن هناك خطط منسقة للقتال ، ولم تكن القوات تحتل مواقع محصنة بالاستحكامات . وكان يتم قيادة تلك القوات دون أى نظام ، ودون بعد نظر . كما كان الجند يتفرقون عندما يطول بقاؤهم تحت السلاح . وأدرك الامبراطور تفوق الاسلوب البيزنطى فيما يتعلق بالتدريب العسكرى والنظام والتكتيكات الحربية ، وفى إعداد استراتيجية جديرة بالتخطيط لها مقدما (٢) . وكان للمال ، من وجهة نظر الامبراطور ، مزايا إضافية تتمثل فى مدى تأثيرة على معنويات العدو ، وفى حيازة اسطول قائم .

---

(١) فيما يتعلق بتكتيكات ليو الحربية، أنظر Migne, Patrologia Graeca, vol. 107, col. 965 D.

(٢) أنظر كلمة المترجم ، ص ٦-٨ من هذا الكتاب — المترجم .

بعض المراجع للفصل الخامس

Baldwin, M. W., The Mediaeval Church. New York, 1960.

Barry, W., The Papal Monarchy from St. Gregory the Great to Boniface VIII (590—1303). London, 1902.

Blasel, K., Die Wanderzüge der Langobarden. Breslau, 1909.

Bury, J. B., The Naval Policy of the Roman Empire in Relation to the Western Provinces from the Seventh to the Ninth Centuries. Palermo, 1910.

Cantu, C., Histoire des Italiens. French trans. by A. Lacombe. 12 vols. Paris, 1859—62.

Capasso, B., Le fonti della storia delle provincie napolitane dal 568 al 1500. Re-edited by E. O. Mastrjani. Näples, 1902.

Cappelletti, L., Storia d'Italia. Vol. I (476—1559). Milan, 1917.

Cipollä, C., Pubblicazioni sulla storia medioevale itäliana. Venice, 1914.

Cohn, W., Die Geschichte der normannisch-sicilischen Flotte, 3 vols Breslau, 1910-26.

Dopffel, H., Kaisertum und Papstweschel unter den Karolingern. Freiburg, 1889.

Duchesne, L., Les premiers temps de l'état pontifical. Paris, 1912.

Egidi, P., La storia medioevale. Roma, 1922.

ويتضمن هذا الكتاب بيانا بالمؤلفات التي طبعت فيما بين عامي ١٩٠٦ و ١٩٢٠، والتي تتناول الفترة من منتصف القرن الخامس حتى نهاية القرن الخامس عشر.

Freeman, E. A., Historical Essays. 4 Series in 4 vols. London, 1871 ff.

Gabotto, F., Storia dell'Italia occidentale nel medio evo, 395—1313. 1912 ff.

Gay, J.,

1 — L'Italie méridionale et l'empire byzantin, 867—1071. Paris, 1904.

2 — Les papes du XIe siècle et la chretienté. Paris, 1926.

Gregorovius, F., History of the City of Rome in the Middle Ages. Trans from the German by Annie Hamilton. 8 vols. in 13. London, 1894—1902.

Guldencrone, D. de, L'Italie byzantine. Etude sur le haut moyen-âge, 400-1050. Paris, 1914.

Halphen, L., Etude sur l'administration de Rome au moyen âge (757—1282). Paris, 1907.

Hartmann, L. M.,

1 — Untersuchungen zur Geschichte der byzantinischen Verwaltung in Italien (540—750). Leipzig. 1889.

2 — Geschichte Italiens im Mittelalter. 4 vols Leipzig, 1897—1915. Cf. Vol. I : Das italienische Konigreich, Gotha, 1923.

وهو يعتبر حتى الآن أفضل مرجـــع موثوق به عن ايطاليـا فى العصـــر الوسيط .

Haskins, C. H., The Normans in European History. New York, 1959.

Heimbucher, M., Die Papstwahlen unter den Karolingern. Augsburg, 1889.

Hodgkin, T., Italy and her Invaders. 8 vols. in 9. Oxford. 1880—99. (2 nd ed., of vols. I—VI, Oxford, 1892-1916).

Jamison, E. M. and others, Italy, Mediaeval and Modern: A History. Oxford, 1917.

Manfroni, C.,

1 — Storia della marina italiaina dàlle invasioni barbariche al trattato di Ninfeo (1261). Leghorn, 1899.

2 — Storia della marina italiana (1261—1453) . 2 vols. Leghorn, 1902.

Mathew, A. H., The Beginnings of the Temporal Sovereignty of the Popes. London, 1908.

Maycock, A., The Papacy. London, 1928.

Mckilliäm, A., A Chronicle of the Popes from St. Peter to Pius X. London, 1912.

Moss, H. St. L. B., The Birth of the Middle Ages, 395—814. London, 1937.

Pace, B., I barbari e i Bizantini in Sicilia : studi sulla storia dell'isola dal sec. V al IX. Palermo, 1911.

Schwartz, C., Die Feldzügė Robert Guiscard's gegen das byzantinische Reich. Fulda, 1854.

Sismondi, J. C. L. S. de, History of the Italian Republics in the Middle Ages. English Trans. by W. Boulting. London (ca. 1905).

وهو عبارة عن تاريخ عام لايطاليا فى العصور الوسطى .

Tafel, G. L. F., Komnenen und Normannen. Part II. Stuttgart, 1870.

Troya, C., Storia d'Italia del medio evo. 17 vols. Naples, 1839-59.

ويشغل الفترة من سقوط الامبراطورية الرومانية فى الغرب حتى نهاية مملكة اللمبارديين. والكتاب له أهميته وقيمته من الناحية التاريخية .



خاتمة

التطور الاقتصادى والتباين الادارى

لقد ميز هذا البحث بين شكلين للدولة عاشا معا خلال الألف سنة الأولى من المسيحية ، فى حضارات تتألف من عناصر اغريقية ورومانية ومسيحية وجرمانية . وكان أحد الشكلين ، وهو الطراز الشرقى ، يتميز باستمراره على العمل فى نطاق أجهزته الادارية . بينما ظل النشاط السياسى فى الغرب رهنا بالظروف وفى حالة من التوتر : وكان النشاط الحكومى فى الشرق أشد وأقوى مما هو فى الغرب : كما كان يتميز بالمركزية . هذا ، بينما أصبح الحائزون على الاقطاعيات الكبرى فى الغرب ملاكا مستقلين يتمتعون بوظائف عامة : أما فى الشرق فقد كانت الإقطاعيات الكبرى ، طالما ظلت باقية ، خاضعة للدولة . ومن ثم يعزى الاختلاف بين هذين الشكلين للدولة إلى التباين الاقتصادى ، بين اقتصاد اقطاعى ذى كفاية ذاتية وبين اقتصاد نقدى . ويمكن استخدام المال كوسيلة للتعامل عندما يكون هناك تخصص فى الانتاج . وهذا افتراض مقدم تقتضيه الضرورة ، فضلا عن أهميته بالنسبة لكل نظام ضرائبى يهدف إلى الدفع الفورى .

وليس باستطاعة أى هيئة من المأجورين المتخصصين ومن المستخدمين المدنيين الموضوعين تحت رقابة دقيقة ، أداء عمل ما إلا على هذا الأساس ؛ بينما كان يتعين على المجتمع فى ظل ظروف أكثر بدائية أن يعتمد إما على العمل الاجبارى عن طريق سكان يقومون بأداء الخدمات المحلية ، أو على العمل المستقل الذى تؤديه الوظائف العامة بفضل كبار موظفى للدولة ،

وإن توفر الاقتصاد النقدى يؤدى إلى تمكين الدولة من جمع الدخول التى تسمح بإقامة جهاز دائم والعمل على صيانته . وبخاصة ما يتعلق بتدرج الموظفين العموميين ، وتشييد استحكامات مزودة بحاميات مستديمة . وإعداد أسطول بحرى يصحبه طاقم مدرب من البحارة . ويمكن مقارنة هذه الأنظمة بالاستثمارات التى تؤدى إلى زيادة الانتاج عن طريق رأس المال الخاص ، وهو مالا يتسنى تحقيقه إطلاقا دون توفر الاقتصاد النقدى .

هذا فى الشرق ، أما فى الغرب فلم يتغير طابع الدولة إلا تغيرا تدريجيا : وتم هذا التغيير ، فى المرتبة الأولى ، فى تلك الجهات التى تطور فيها الاقتصاد النقدى . ولقد كانت البندقية ، نظرا لمركزها الجغرافى الخاص [ولحاجتها إلى الموارد الزراعية] ، مضطرة إلى الأخذ بنظام الاقتصاد النقــدى . ومن ثم جمعت أسطولا فى وقت لم تستطع فيه الامبراطورية الغربية الاحتفاظ بسفينة واحدة فى الخدمة . وقد ظل كل من الأسطول البحرى والدولة تحت رقابة الدوج (١) Doge ، طالما كان صاحب هذا المركز الكبير يؤدى دورا بارزا

---

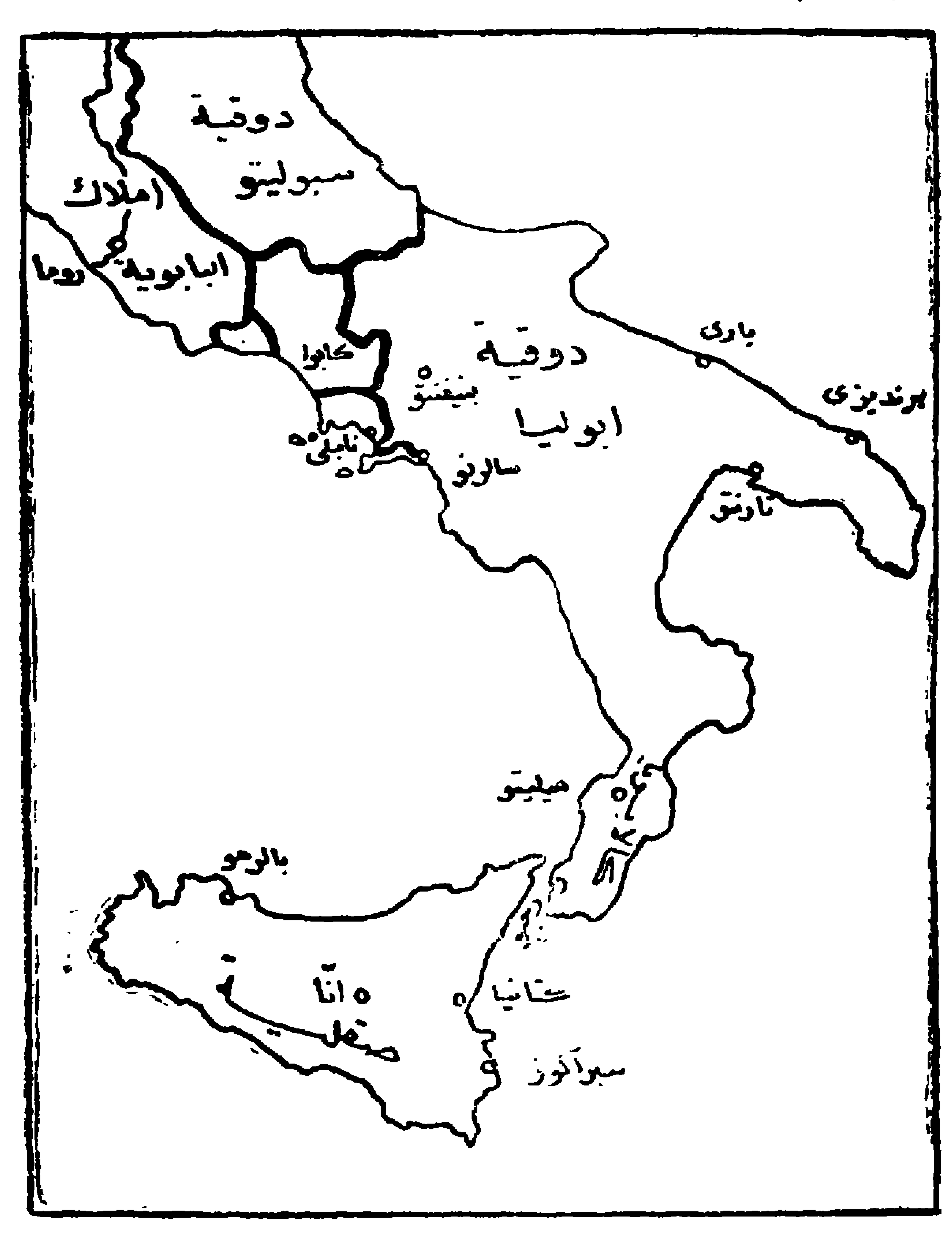
(١) الدوج هو حاكم البندقية . والبندقية هى إحــدى المدن البحرية الايطالية التى كان لها نشاط تجارى كبير مع بيزنطة ومع كل من الشرقين الأوسط والأقصى فى الفترة الوسيطة من التاريخ : ويرجع ذلك إلى موقعها الجغرافى الممتاز . فهى تقع على رأس البحر الأدرياتى الذى كان يعتبر أعظم طريق بحرية لتجارة العصور الوسطى . ثم هى فى موقع متوسط بين الشرق والغرب ، فضلا عن كونها ميناء من موانى البحر المتوسط . كل هذا أكسبها ميزات حسدتها عليها كثير من الدول وقتذاك . وقد لعبت البندقيــة دورا هاما فى فترة الحروب الصليبية التى وجدت فيها فرصتها العظيمة للربح =

فى التجارة . وبعد ذلك آلت السلطة الفعلية إلى أيدى كبار التجار ؛ وحدث مثل هذا التطور ، على سبيل المثال ، فى امالفى .

أما فى شمال إيطاليا ، فقد تطورت المدن تحت تأثير التجارة فى سهل نهر البو . ومعروف جيدا أنه ظهرت فى فلورنسا وكافة المدن الايطالية أنظمة سياسية جديدة ، فى الوقت الذى أخذت فيه الطبقة المتوسطة ، المنظمة

=والاثراء ، حتى أصبح حاكمها الدوج بعد الحملة الرابعة على القسطنطينية هو الحاكم المطلق على أربعة بحار هى البحر الأدرياتى والبحر الايجى وبحر مرمرة والبحر الأسود . فضلا عن أن سفنه كانت ترتع فى البحر المتوسط . أنظر عن ذلك كرلتون : عالم العصور الوسطى ، ص ١٦٦ و ١٦٨ و ١٨٩ ، وكذلك E. Power, Medieval People (1954), 36, 39 — 41, 62, 187 — 8; Heer, op. cit., 56, 57. ويقول المؤرخ شارل ديل إن الدوج كان يرمز إلى أبهة البندقية ، وكان يحاط بمظاهر العظمة فى الحفلات باعتباره الحاكم الأعلى للجمهورية . وهو يأتى فى المكانة والمرتبة بعد البابا والأباطرة والملوك . ومن حقه كذلك استقبال السفراء ورئاسة جميع المجالس فى البندقية ، وهى المجلس الكبير ومجلس الشيوخ ومجلس العشرة ؛ وتوقيع المراسيم باسمه وضرب النقود برسمه : ومع ذلك فقد كان الدوج فى الحقيقة يملك ولا يحكم . إذ كان مستشاروه يراقبون عمله ، وكان من الممكن عزله بقرار يصدره مجلس الشيوخ . ويلخص ديل ما سبق بقوله « ولن نجد حكومة دستورية قيدت رئيسها بأكثر مما فعلت البندقية بدوجها » : أنظر ش . ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية (١٩٤٨) ، ص ٨٥ - ٨٦ . المترجم .

خريطة رقم (٦)



النورمان فى جنوب ايطاليا وصقلية

فى شكل نقابات تجارية ومهنية (١) ، فى سلب السلطة والرقابة من حثـالة الريفيين المالكين للأرض : وبنفس هذه الطريقة يمكن كذلك ملاحظة عودة الاقتصاد النقدى إلى الظهور على المسرح الأوروبى وراء قيام سلطة ملكية فى دولة النورمان بجنوب إيطاليا، (٢) التى قامت بوصفها امتداد للنظام الادارى البيزنطى والعربى ؛ وكان المفروض أن يستكمل هذا النظام فيما بعد على يد آل هوهنشتاوفن . وسارت فى نفس الاتجاه محاولات كل من فردريك باربا روسا وفردريك الثانى فى سبيل تحويل حكومة شمال إيطاليا ووسطها نحو السلطة البيروقراطية المركزية. وترجع جذور هذه التطورات فى باقى أجزاء أوروبا الى تذويب حكم صاحب الأرض عن طريق استخدام الاقتصادى النقدى :

(١) فيما يتعلق بنقابات المهن والتجارة بصفة عامة ، أنظر كولتون : نفس المرجع ، ص ١٥١ وما بعدها ، سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى، ج ٢ ، ص ١٠٧-١١١ ، وهيب ابراهيم سمعان : نفس المرجع، ص٤٧-٥٣، وكذلك H. Pirenne, Medieval Cities (1948), 85, 133—4; W. Firebaugh, The Inns of the Middle Ages, Chicago, 1924; C. Gross, The Gild Merchant, 2 vols., Oxford, 1890; G. Renard, Guilds in the Middle Ages, tr. by G. H. D. Cole, London, 1919; G. Unwin, The Gilds and Companies of London, 1908 - المترجم.

(٢) عن دولة النورمان بجنوب ايطاليا ونظمها، أنظر كتابى شارل هومر هاسكنز: C. H. Haskins, The Normans in European History (1959), 192 ff.; idem, Norman Institutions, New York, 1960. — المترجم .

بعض المراجع للخاتمة

Ady, C. M , A History of Milan under the Sforza. London, 1907.

Arias, G., Il sistema della costituzione economica e sociale italiana nell'età dei comuni. Turin, 1905.

Battistella, A., La repubblica di Venezia. Bologna, 1897.

Bent, J. T., Genoa : How the Republic Rose and Fell. London, 1881.

Brichsen, N., The Story of Pisa. London, 1909.

Brown, H. F.,

1 — Venice : A Historical Sketch of the Republic. London, 1895.

2 — The Venetian Republic. New York, 1902.

3 — Studies in the History of Venice. 2 vols. New York, 1907.

Canale, M. G., Nuova storia della repubblica di Genova. Vols. I—IV (to 1528). Florence, 1858—64.

Capponi, G., Storia della repubblica di Firenze. 3 vols. Florence, 1875—88.

Carden, R. W., The City of Genoa. London, 1908.

Caro, G.,

1 — Studien zur Geschichte von Genua, 1190—1257. Strasburg, 1891.

2 — Genua und die Mächte am Mittelmeer, 1257—1311. 2 vols. Halle, 1895—99.

Chalandon, F., Histoire de la domination normande en Italie et en Sicile, 1009—1194. 2 vols. Paris, 1907.

Clarke, M. V., The Medieval City State. An Essay on Tyranny and Federation in the Later Middle Ages. London, 1926.

Cohn, W., Das Zeitalter der Normannen in Sizilien. Bonn, 1920.

Crawford, F. M.,

1 — The Rulers of the South, Sicily, Calabria. Malta. 2 vols. New York, 1901.

2 — Salve Venetia: Gleanings from Venetian History. 2 vols. New York, 1906.

Curtis, E., Roger of Sicily and the Normans in Lower Italy, 1016—1154. New York, 1912.

Cusani, F., Storia di Milano. 8 vols Milan, 1862-84.

Daru, Le Comte, Histoire de la république de Venice. 10 vols. Bruxelles, 1840.

Davidsohn, R., Geschichte von Florenz. 4 vols. Berlin, 1896—1927.

وهو من أهم المراجع عن تاريخ فلورنسا فى العصر الوسيط ، إن لم يكن اهمها على الاطلاق . وله ترجمة بالايطالية :

Delarc, O., Les Normands en Italie, depuis les premières invasions jusqu'à l'avènement de S. Grégoire. Paris, 1883.

Diehl, C., Une république patricienne : Venise. Paris, 1915.

Donower, F., Storia di Genova. Genoa, 1890.

Fanucci, G. B., Storia dei tre celebri popoli marittimi dell'Italia, Veneziani, Genovesi e Pisani. 4 vols. Leghorn, 1853—55.

Formentini, M., Il ducato di Milano. Milan, 1877.

Giannone, P., Storia civile del regno di Napoli. 5 vols. Milan, 1844—47.

Giulini, G., Memorie spettanti alla storia di Milano. 7 vols. Milan, 1854—57.

والكتاب لا يزال يعتبر حتى الآن من أهم المراجع عن تاريخ ميلان :

Hazlitt, W. C., The Venetian Republic: Its Rise, its Growth, and its Fall, 409—1797. 2 vols. London, 1915.

Heinemann, L. v., Geschichte der Normannen in Unteritalien und Sicilien bis zum Aussterben des normannischen Königshauses. Vol. I, to 1085. Leipzig, 1894.

Heyck, E., Genua und seine Marine im Zeitalter der Kreuzzüge. Innsbruck, 1886.

Hodgson, F. C., Venice in the 13th and 14th Centuries (1204-1400). London, 1910.

Kretschmayer, H., Geschichte von Venedig. Vols. I—II (to 1516). Gotha, 1905—20.

McClellan, G. B., The Oligarchy of Venice: An Essay. Boston 1904.

Meo, A. di, Annali critico-diplomatici del regno di Napoli. 13 vols. Naples, 1758—1819.

Molmenti, P. G., Venice: Its Individual Growth from the Earliest Beginnings to the Fall of the Republic. Trans from Italian by H. F. Brown. 6 vols. London and Chicago, 1906—08.

Musatti, E., La storia politica di Venezia secondo le ultimi ricerche. Padua, 1897.

Napier, H. E., Florentine History. 6 vols London, 1846-47.

Noyes, E, The Story of Milan. London, 1908.

Okey, T, Venice and its Story. New York, 1910.

Oliphant, M., Makers of Venice: Doges, Conquerors, Painters, and Men of Letters. London, 1889.

Perrens, F. T.,

1 — Histoire de Florence jusqu'à la domination des Médicis. 6 vols. Paris, 1877—84.

وهو أفضل ما كتب باللغة الفرنسية عن فلورنسا فى العصر الوسيط .

2 — Histoire de Florence depuis la domination des Médicis jusqu'à la chute de la république, 1434—1531. 2 vols. Paris, 1881.

وله ترجمة باللغة الانجليزية .

Richardson, A., The Doges of Venice. London, [1914].

Staley, E., The Guilds of Florence. London, 1906.

Thayer, W. R., A Short History of Venice. London and New York, 1905.

Trollope, T. A., History of the Commonwealth of Florence. 4 vols. London, 1865.

Varese, C., Storia della repubblica di Genova. 7 vols. Genoa, 1853-37.

Verri, P., Storia di Milano. Florence. 1851 ff.

Wiel, A., The Navy of Venice. London, 1910.

البحث الثانى

الامبراطورية فى العصور الوسطى

فكرة وحقيقة

هذه ترجمة البحث التالى :

G. Barraclough, The Mediaeval Empire :

Idea and Reality. [Historical Association

Pamphlet No. 17, London, 1959].

مقـــــدمة

[illegible]

[illegible] باراكلاف

يحتوى هذا المقال المختصر ، الذى يحـاول المستحيل ، على النص الأصلى لمحاضرة أُدخلت عليها تعديلات طفيفة . وقد أُعدت المحاضرة وتم تلاوتها فى الاجتماع السنوى للجمعية التاريخية بلندن فى السادس من يناير سنة ١٩٥٠ ؛ ولم أعمل على طمس معالم الأصل . وسواء أكان هـــذا الأصل صحيحاً أم مشوباً بالخطأ ، فيبدو أنه ليس هناك جديد يمكن إضـافته إليه ، أو أن شيئاً قد انتقص بتحويل المحاضرة إلى مقال .

وسيتضح لجميع القراء أن محاولة نقل مثل هذا الموضوع الهـام الكبير إلى مجرد مقال ، يستلزم إحلال الأمور اليقينية الثابتة محل النقاط موضع الخلاف ، مع التجاوز عن كافة المسائل التي لا ضرورة لهـا فى سياق الحديث ؛ وهنـاك بدون شك اختلاف فى الآراء فيما يمكن اعتباره هاما وضروريا أو العكس ، وإذا كنت قد تغاضيت عن عدد من النظريات الهامة ، فليس هناك داع للقول بأن ذلك لا يرجع إلى عدم معرفتي بها ؛ وأعتقد أنه ستواجه القارىء المتعمق فى هذا الموضـوع بعض الصعاب لإدراك الأمور الخـاصة بمختلف وجهـات النظر التي أعربت عنها . وسوف يدرك ، على سبيل المثـال ، أنني فيما يتعلق بكافة الملاحظـات الشديدة الاقتضاب الخـاصة بشارل العظيم ، قد أسهمت بجهدى مع المدرسة الرومانسية ؛ إذ قمت بشرح وتفسير الحجج والاستنتاجات الهـامة ، ما ضاق نطاقهـا وما اتسع ، والتي عبر عنهـا بصـورة دامغـة وهلم

سيكل (١) Wilhelm Sickel ؛ ولا يسعني في الوقت الحاضر أن أخطو إلى أبعد من ذلك . ولو كنت قد زودت البحث بهوامش خاصة بالمراجع ، لتضاعف حجمه ؛ وقد يكون مع ذلك ضئيل القيمة ؛ وفي الواقع ربما تكون مثل هذه الحواشي مضللة خادعة ، إذا لم أتناول بالدراسة الواعية أسباب تأييد رأي معين وصرف النظر عن رأي آخر . وأعتقد أنه قد يطول بي الزمن قبل أن أكتب بتفصيل وإسهاب في هذه المشكلة المثيرة للإيحاء . ولا شك أنها أعظم مشكلة من نوعها في مجال التاريخ الوسيط قاطبة . وعلى القارىء الذي يجد، لسبب ما ، أنه قد خدع بسبب افتقار المقال إلى الهوامش والمراجع والمناقشات ، عليه أن يترقب ظهور الكتاب الكامل في هذا الموضوع ؛ وأرجو أن يتضمن الكتاب الحجج والأدلة والبراهين التي تعزز وجهات النظر والتأكيدات المعروضة في هذا البحث.

ج. باراكلاف

---

(١) يعتبر البحثان التاليان من أهم ما كتب ولهلم سيكل : W. Sickel, "Die Verträge der Päpste mit den Karolingern," Deutsche Zeitschrift für Geschichtswissenschaft, XI (1894), 301 — 91, XII (1895), 1—43; idem, "Kirchenstaat und Karolinger," Historische Zeitschrift, XLVIII (1900), 389 — 409 - المترجم»

الفصل الأول

برايس و « الامبراطورية الرومانية المقدسة »

يحتل موضوع هذا البحث ، باجماع الآراء ،مكانة بارزة فى تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى . وقد تردد القول بأن مصير تاريخ الامبراطورية يرتبط بمصير تاريخ المسيحية الغربية . ومنذ زمن بعيد ، وصف اللورد برايس (١) الامبراطورية بأنها « مملكة عالمية » « universal monarchy » ، تحتوى على « حكومة انسانية مثالية فى ذروة كمالها » ، مع المحافظة على « شعور الاخاء بين بني البشر ، بوصفهم كتلة واحدة شاملة العالم كله ، الذى ترفعت وحدته الكبرى عن كل تمييز مهما صغر » . وكتب برايس مرة يقول إنه

---

(١) جيمس برايس من كبار المؤرخين الغربيين الحديثين المعنيين بالتاريخ الوسيط : ومن أشهر مؤلفاته كتابه المسمى «الامبراطورية الرومانية المقدسة»
J. Bryce, The Holy Roman Empire, Oxford, 1864
وقد ظهرت له طبعة جديدة مزيدة ومنقحة (طبع لندن ونيويورك، سنة ١٩٠٤). ولبرايس كذلك مقال تحت اسم «ايسلاندا البدائية» Primitive Iceland، وهو منشور فى كتاب من جزءين بعنوان « دراسات فى التاريخ والتشريع » Studies in History and Jurisprudence، طبع اكسفورد سنة ١٩٠١ : وله أيضا بحثين الأول باسم « الامبراطورية الرومانية القديمة والامبراطورية البريطانية فى الهند » والثانى باسم « انتشار كل من القانون الرومانى والقانون الانجليزى فى العالم » ، طبع اكسفورد سنة ١٩١٤ : ومن محاضراته القيمة المحاضرة التي ألقاها فى سومرفيل كوليدج Somerville College باكسفورد فى نوفمبر سنة ١٩٤٥ ، وعنوانها « الحضارة الهللينستية وروما الشرق » « The Hellenistic Civilization and East Rome » : وقامت بنشرها مطبعة جامعة اكسفورد سنة ١٩٤٦ - المترجم .

« منذ أيام قسطنطين (١) حتي أخريات القرون الوسطى، كانت الامبراطورية بالاتحاد مع البابوية يمثلان رأس العالم المسيحي، والمركز المعترف به في هذا العالم»

وإذا كانت هذه الكلمات قريبة من الحقيقة والواقع فى موضوع ما ، فقد يبدو غريبا أن مؤرخا انجليزيا واحدا لم يحاول منذ أيام برايس كتابة تاريخ الامبراطورية بصفة شاملة . ولا يزال القارىء الانجليزى الذى يريد تكوين فكرة ما عن الدور الذى قامت به الامبراطورية فى التاريخ الوسيط ، مضطرا إلى الرجوع إلى كتاب « الامبراطورية الرومانية

(١) قسطنطين الكبير هو مؤسس القسطنطينية عاصمة الامبراطورية الرومانية الشرقية : حكم من سنة ٣٠٦ الى سنة ٣٣٧ . ويتميز عهده باعترافه بالمسيحية كدين رسمى للدولة ، وبكنيستها باعتبارها كنيسة الدولة وعلى رأسها الامبراطور . ولم تعترض المسيحية على هذا الوضع الجديد لما كانت تدين به لقسطنطين من أفضال وتدل تشريعاته وقوانينه على احترامه للنفس البشرية، وعلى رغبته فى الاحتفاظ بوحدة الامبراطورية ، وتنشيط الحالة الاقتصادية فيها . كذلك لجأ إلى عدة إصلاحات فى الناحية المالية بقصد تثبيت العملة المتدهورة ، وفى الميدان العسكرى ، مستهدفا من وراء ذلك توفير أسباب القوة والمنعة للبلاد ، وحمايتها من الأخطار التي كانت تتهددها فى الداخل والخارج وواصل خلال سني حكمه تشجيعه للدين الجديد إلى أن وافته منيته فى ٢٢ مايو سنة ٣٣٧ . وكان قسطنطين يتمتع بشخصية قوية ، وأثبت فى كل عمل أقدم عليه أنه رجل عظيم القدر، شديد الاخلاص، واسع الحيلة والدهاء، رومانى خالص فى قدرته على مواجهة المشاكل والمعضلات وحسم الأمور ، وتوقيت ساعة التحفز والهجوم إذا دعت الضرورة إلى ذلك . أنظر
Jones, Constantine and the Conversion of Europe, ch. VI, 79 ff.; Parker, A Hist. of the Roman World, 238-309; Rostovtzeff, Rome, 289 f.; Ostrogorsky, op. cit., 31-45; Baynes & Moss, op. cit., 169, 274,280; Hussey, op cit., 11 ff. المترجم

المقدسة » لبرايس .(١) وهو كتاب له طابعه الكلاسيكى فى فن التدوين التاريخى : والحقيقة الواقعة أن برايس كان قد تقدم به سنة ١٨٦٣ للحصول على جائزة من اكسفورد لأحسن بحث فى هذا الموضوع. وقد صدرت النسخة الأخيرة المنقحة ، التي ترجع إلى حوالى نصف قرن مضي ، سنة ١٩٠٤ ؛(٢) وكان اهتمام المؤلف قد تحول فى ذلك الحين ، بل ومنذ زمن أبعد من ذلك، إلى مجالات أخرى، وإلى فترات وعهود أحدث من التاريخ المذكور: وليس الهدف نقد كتاب برايس. ومع ذلك فمما يثير الدهشة ،فى مثل تلك الظروف، أن نجد الكتاب المذكور يقف جنبا إلى جنب مع ما توصل إليه العلم الحديث. هذا من ناحيـة ، ومن ناحيـة أخرى فان القارىء لا يهتم بالتفاصيل قدر اهتمامه بالفكرة العريضة عن ماهيـة الامبراطورية والنظام الذى حلت محله .ويعتبر المنهاج السليم الذى اتبعه برايس فى معالجة الموضوع وتفسيره، أكثر أهمية مما تقدم . وهنا يكفي أن نذكر بأنه مهما كانت قيمة الحقائق التي أوردها برايس ، لم يعد تفسيره لها يحظى بالقبول العام . ويمكن القول

---

(١) يبدو أن هذه الكلمات تعكس أهمية كتاب H. A. L. Fisher, Mediaeval Empire. 2 vols., 1898 - ولكن هذا ليس ما أعنيه ، كما أنه ليس فى الواقع لب الموضوع . لقد عالج كتاب فشر مسائل أخرى هى « معرفة كيف كان يعمل جهاز الحكم الامبراطورى » فى كل من ألمانيا وإيطاليا : وأنكر صراحة أى اتجاه فى سبيل تتبع «تاريخ الفكرة الامبراطورية» أو « الوقوع فى الخطأ الذى وضع أساسه السيد برايس » .

(٢) يرجع تاريخ الطبعة الإنجليزية التي قمنا بنقلها إلى العربية فى هـذا الكتاب إلى سنة ١٩٥٩ - المترجم.

عن برايس ، كما قيل منذ زمن غير بعيد عن ستبز Stubbs (١) ، إنه توجد « روحان تعيشان فى صدره » ، إحداهما روح العالم الذى يلاحظ بدقة الدليل الذى أمامه ، والأخرى روح المثالى الذى يبحث فى القرون الوسطى عن دليل ينير له الطريق إلى جيل أنهكه العداء وأرهقته الخصومات القومية المتزايدة. فإذا كانت لدى ستبز « فكرة غامضة عن أصول الدستور الانجليزى » فإن فكرة برايس عن الامبراطورية لا تقل عنها غموضا . ويقول ليفيفر Lefebvre فى نقده لمؤلف ستبز إنه « لا يوجد ارتباط بين استنتاجاته الجزئية المبنية على النصوص الأصلية وبين فكرته العامة » . ويمكن تطبيق هذا الرأى دون تعديل على صاحب كتاب « الامبراطورية الرومانية المقدسة » : ويتميز نفس العنوان الذى أطلقه برايس على كتابه بطابعه الخاص . ومن الواضح أنه اختاره لأنه يلقى الضوء على آرائه التي تنحصر فيما كان يجب أن تكون عليه الامبراطورية فى العصور الوسطى: ولكن اختياره لهذا العنوان يتعارض مع الحقائق الثابتة . إذ كتب يقول : « إنه يتعين تأريخ بداية الإمبراطورية الرومانية المقدسة اعتبارا من سنة ٨٠٠ » . والحقيقة أن أول مرة ظهر فيها اسم « الامبراطورية الرومانية المقدسة » لا يرجع إلى سنة ٨٠٠ كما يفترض البعض، وإنما يرجع الى سنة ١٢٥٤ عندما كانت الامبراطورية فى الواقع قد انتهت لأسباب عديدة متعددة : وقبل ذلك التاريخ كان لدينا اسم « الامبراطورية المقدسة » ؛ كما كان لدينا اسم « الامبراطورية الرومانية » :

---

(١) يعتبر وليم ستبز من كبار المؤرخين الغربيين الحديثين المتخصصين فى تاريخ العصور الوسطى الغربية ، وخاصة تاريخ المانيا . له مؤلفات عديدة منها كتابه « تاريخ القانون الكنسى فى انجلترا » ، و « تاريخ انجلترا الدستورى » ، و « محاضرات فى التاريخ الأوروبى » و « المانيا فى العصور الوسطى المبكرة » و « المانيا فى العصور الوسطى المتأخرة » و « الأدب والتعليم فى بلاط هنرى الثانى » ـ المترجم :

ولكن التسمية الأولى يرجع تاريخها إلى سنة ١١٥٧ فقط ؛ بينما يرجع اسم « الإمبراطورية الرومانية » إلى عهد كونراد الثانى (١) فحسب ، أى إلى سنه ١٠٣٤ على وجه التحديد . وحتى أوتو الثالث (٢) ، الذى كانت « رومانيته » العليلة المحمومة لا تعدو أن تكون أمرا ثانويا فى نظر المدرسة القديمة للمؤرخين، لم يفكر قط فى إطلاق اسم « الامبراطورية الرومانية » على أملاكه .

---

(١) حكم كونراد الثانى فى الفترة من سنة ١٠٢٤ إلى سنة ١٠٣٩ . وهو مؤسس الأسرة الفرنكونية أو السالية التي يعتبرها وليم لانجر فجر العصر الامبراطورى العظيم . وقد واصل سياسة سلفه هنرى الثانى . كما تشدد فى علاقاته مع الكنسية الألمانية . وكان كلما خلت دوقية من الدوقيات لا يعين عليها أحدا ، وإنما يخلعها على ابنه هنرى الذى أصبحت فى يده جميع الدوقيات عندما صار امبراطورا ، فيما عدا دوقيتي اللورين وسكسونيا . كذلك أضعف كونراد الدوقات بتشجيعه مبدأ الوراثة فى الاقطاعات ، وضمن تأييد صغار النبلاء له . وبهذا الاجراء أكد تطبيق النظام الاقطاعي بصفة نهائية فى المانيا . ومما يذكر أن حفلة تتويجه امبراطورا سنة ١٠٢٧ كانت تعتبر من أفخم حفلات التتويج التي شهدتها روما فى العصور الوسطى . انظر لانجر : نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٥٦٥-٥٦٦ ، وكذلك La Monte, op. cit., 178-9 - المترجم .

(٢) حكم أوتو الثالث من سنة ٩٨٣ إلى سنة ١٠٠٢ ، وهو من أباطرة الأسرة السكسونية التي أسسها هنرى الصياد . وكان أوتو هذا فى الثالثة من عمره عندما خلف أباه أوتو الثانى . وحكمت باسمه فى فترة قصوره أمه ثيوفانو باعتبارها وصية عليه فى الفترة من سنة ٩٨٣ الى سنة ٩٩١ ، ثم جدته المسماه أدلهيد ومعها فليجيس رئيس أساقفة ماينز فيما بين عامى ٩٩١ و٩٩٦ . وقد تلقى تعليمه وفقا لما جرت به التقاليد البيزنطية ، وذلك بتأثير من أمه . =

أما والحقائق كذلك ، أليس حتما أن يضللنا كتاب برايس والكيان الهائل الذى يصوره ، بحيث يبعث أثراً خاطئاً غير دقيق ؟ وليس هناك من شك فى أن برايس كان على علم بالحقائق . والواقع أنه جمعها بدقة ، ثم قام بتلوينهـا فى ملحق لكتابه . ولـكنه آثر صرف النظر عنها فى الـكتاب نفسه . ورأى أن يرسم بدلا منها صـورة باهتة غير واضحة ، إذا ما تناولها الفـرد بالدراسة والتحليل بعناية ، بجد اقتباسات على نطـاق واسع مستقاة من كتاب أواخر القرنين الثـالث عشر والرابع عشر ، الذين كانت فرص معرفتهم بمـاهية الامبراطـورية ، وما كانت عليه فيما بين عامى ٨٠٠ و ١٢٥٠ ، من الضآلة بحيث تقل عن الفرص المتاحة لنا . وليس هناك داع للتحدث عن افتقارهم إلى المقدرة على النقد ، فضلا عن الاهتمام بالحقيقة التاريخية :

وفيما يلى السؤال الذى يخطر لنـا ، وهـو بحق السؤال الوحيـد الذى سأتناوله هنا : هذا السؤال هو : ماذا كانت الامبراطورية الغربية فى القرون الوسطى ، إن لم تكن هى « الامبراطورية الرومانية المقدسة » ؟ ويجب علينـا أن ندرك على الفور أنه لا يمكن فعـلا اعتبار اصطـلاح « الامبراطورية الغربية » الذى استخدمته توا ، أو اصطلاح «امبراطورية العصور الوسطى» الذى كان باستطاعتى استخدامه ، أدق من ذلك الذى استخدمـه برايس .

= وقام أوتو بحملتين فى ايطاليا ، الأولى سنة ٩٩٦ والثانية سنة ٩٩٨ ، بهدف القضاء على المناوئين له هناك . وفى حملته الثانية عين أوتو مؤدبه المسمى جربرت أورياك بابا باسم سلفستر الثانى . وحرص البابا المذكور على استمرار قيام الاتحاد والتعاون بين البابوية والامبراطورية . ومات أوتو سنة ١٠٠٢ دون أن يترك وريثا يخلفه فى الحكم . أنظر لاجر : نفس المرجع ، ج٢ ص ٤٤٤-٤٤٥ ، وكذلك La Monte, op. cit., 176 —8 - المترجم .

إذ لا يمكن التحدث حقا عن « امبراطورية العصــور الوسطى » ، لأنه كان يوجد عدد من الامبراطوريات خلال تلك الحقبة الوسيطة من الزمن . ففى بداية الأمر كانت هناك الامبراطورية الرومانية ، وكثيرا ما نطلــق عليها الامبراطورية البيزنطية. (١) ولكن هذا الاصطلاح يعتبر كذلك غير تاريخى ومضلل. ويستحسن تجنبه . ويمكن أن نطلق عليها بنوع ما اسم « امبراطورية العصور الوسطى » ، منعــا للخلط بينها وبين الامبراطورية الرومانية . ذلك أن الامبراطورية الرومانية ، ولو أنها ظلت قائمة حتى سنة ١٤٥٣ ، إلا أنه يمكن إرجاعها - بعد كل ما تقدم - فى تاريخ متصل حتى عهــد أوغسطس . ومن ثم لا يمكن وضعها - إذا توخينا الدقة - تحت عنوان « العصــور الوسطى » .

ومع ذلك ، فقــد عرفت القرون الوسطى عــددا من الامبراطوريات الأخرى التى يطلق عليها الاصطلاح المذكور ، ليس كوصف على علاقته

---

(١) عرفت الدولة البيزنطية باسم الامبراطــورية الرومانية الشرقيــة تمييزا لها عن الامبراطورية الرومانية القديمة التى انهارت فى أواخر القــرن الخامس الميــلادى على أيدى القبائل الجرمانية المتبربرة . وظلت الدولة البيزنطية على قيد الحياة حتى أواسط القرن الخامس عشر عندما استولى عليها الاتراك العثمانيون سنة ١٤٥٣ . أى أنها عاشت مدة تقرب من عشرة قرون ، بعد زوال الدولة الرومانية القديمة وتأسيس البرابرة ممالكهم على أنقاضهــا فى الغرب ؛ وذلك باعتبارها الوريثة الشرعية الوحيدة لتلك الدولة والامتداد الطبيعى لها . ومن هنا أثار إحياء الامبراطورية الرومانية المقدسة فى الغرب أيام شارلمان وتجديدها أيام أوتو الكبير ، الكثير من الجدل والنقاش بين الكتاب والمؤرخين المعنيين بالفكر السياسى والفكرة الامبراطورية فى القرون الوسطى - المترجم .

فحسب ، وإنما جريا وراء استعمال ديبلوماسي معاصر . فني الشرق كانت توجد امبراطورية كل من البلغار والصرب. كذلك استخدم اللقب الامبراطوري في روسيا اعتبارا من القرن الثالث عشر . أما في الغرب ، فقد كان ملوك قشتالة هم « أباطرة اسبانيا » . وكان ثمة اللقب الامبراطوري الذي يحمله ادجار(١) وغيره في انجلترا أيام الانجلو سكسون(٢) . وكان يوجد أيضا منذ القرن الثالث عشر « أباطرة » في اسكنديناوه .

ووفقا لذلك ، فإن الفكرة الشائعة عن وجود «امبراطورية غربية » ، كما لو لم يكن هناك سوى امبراطورية واحدة في غرب أوروبا ، إنما هي

(١) بعد وفاة الملك الانجلوسكسوني اثلستان (٩٢٤ - ٩٣٩) خلفه أخويه ادموند (٩٣٩ - ٩٤٦) ثم ادرد (٩٤٦ - ٩٥٥) ولم تأت سنة ٩٥٤ حتى استطاع ادرد ملك وسيكس أن ينادي بنفسه ملكا على جميع انحاء الجزيرة البريطانية من بحر المانش إلى الكليد . وعند موته حكم ولداه ادويج (٩٥٥ - ٩٥٩) ثم ادجار (٩٥٩-٩٧٥) الذي بلغت وسيكس في عهده ذروة مجدها وعظمتها . واستمر حكمه لمدة ستة عشر عاما لم تتخللها أية حروب ، حتى أنه عرف باسم « ادجار المحب للسلام » . وجدير بالذكر أنه خلال الصراع بين الانجلو سكسون والغزاة الدانيين تمت تدريجيا عملية التمازج بين هذين العنصرين . وقد قطعت تلك العملية شوطا كبيرا في عهد الملك ادجار : وساعد على ذلك الهدوء الذي عم المملكة خلال فترة حكمه . كذلك وجه ادجار عنايته إلى الكنيسة ، فأعاد تنظيمها وإصلاحها ، واعتني بأمر الأديرة وقام بتنظيمها من جديد وكان دنستان Dunstan رئيس اساقفة كانتربري من كبار مستشاري هذا الملك ومعاونيه. أنظر Whitelock, op. cit., 52 ff.; Trevelyan, op. cit., 80 ff. – المترجم :

(٢) فيما يتعلق بالانجلوسكسون ، انظر ص ١١٢ - ١١٣ ح ١ من هذا الكتاب ـ المترجم.

فكرة مضللة حتما : ويتزايد هذا التضايل إذا أخذنا فى الاعتبار أن اصطلاح « الامبراطورية الغربية » « occidentale imperium » لم يستخدم قط بصفة رسمية ، اللهم إلا إذا استثنينا مناسبة واحدة عام ٨١٣ سأتناولها بالمزيد من التفصيل فيما بعد : وهكذا يتكرر السؤال : ماذا كانت تلك الامبراطورية التى اعتزم الكتابة عنها ؟ وليست هناك سوى إجابة واحدة ، وهى إجابة قريبة من الحقيقة والصواب : ونعنى بذلك أن الامبراطورية لم تكن مجرد حدث واحد على الاطلاق ، وإنما كانت سلسلة من الأحداث تختلف باختلاف العصور والأزمان : وتنطوى معظم الخلافات الظاهرة تحت التغيرات التى ألمت بهذا الاصطلاح الذى أشرت إليه باختصار . ومن الأخطاء الفادحة التى وقع فيها المؤرخ (١) وأخشى أن تكون كثيرة ، أنه كان يرى الاتصال مستمرا ممتدا فى كل مكان ، متناسيا — حسبما لاحظ ذات مرة المرحوم الاستاذ هيرنشاو (٢) Hearnshaw — بأن « الاستمرار ليس هو بحال وجه التاريخ الاكثر وضوحا » . ومن السذاجة أن نرى ،قضاء وقدرا،تاريخ الامبراطورية الرومانية المقدسة حتى عام ١٨٠٦ ، وقد كشف عن ذاته فى حفل تتويج شارل العظيم فى روما عام ٨٠٠ : وفى الحقيقة ان قصة الامبراطورية التى عرفت فيما بعد باسم الامبراطورية الرومانية المقدسة ، إنما هى قصة متقطعة

---

(١) المقصود برايس ـ المترجم .

(٢) من أهم انتاج هيرنشاو F. J. C Hearnshaw (ed.), The Social and Political Ideas of Some Great Mediaeval Thinkers, London and New York, 1923 ; idem (ed.) Medieval Contributions to Modern Civilization, London, 1921. وهو يحتوى على سلسلة من المحاضرات التى ألقيت فى كينجز كوليدج King's College بجامعة لندن. المترجم .

غير متصلة أو ممتدة . فقد عنت أحداثا مختلفة لرجال مختلفين فى نفس الوقت، وأحداثا مختلفة لرجال فى عصور مختلفة . والواقع أنها كانت عبارة عن أحداث مختلفة وقعت فى أزمنة مختلفة . وذلك ما حمل برايس على محاولة إبداع صورة متكاملة « لمجموعة من الآراء والأفكار التى ارتكزت عليها الامبراطورية » ، وعدد من « القواعد الأساسية » التى « ظلت فى جوهرها على ما كانت عليه طيلة القرون الوسطى » . ومن ثم تعين فشلها ، لأنها بكل بساطة ليست حقيقة أو أمرا واقعا . إن ما « يصدق على القرن العاشر » ، كان يعتبر حقيقيا كذلك « بالنسبة للقرن الرابع عشر » . ولكن على العكس من ذلك ، فقد كانت الامبراطورية فى القرن الرابع عشر فى جوهرها ومضمونها شيئا يختلف عن الامبراطورية فى القرن العاشر ؛ تماما مثلما كانت امبراطورية اوتو الأول (١) أو اوتو الثالث شيئا مغايرا فى جوهرها وطبيعتها عن امبراطورية شارل العظيم .

---

(١) بعد موت هنرى الأول أول ملوك الاسرة السكسونية ، حكم ابنه أوتو الأول (٩٣٦ ٩٧٣)، وهو المعروف باسم اوتو الكبير . وقد واصل سياسة أبيه فى النواحى الداخلية والخارجية والحربية . فأخمد أنفاس الدوقيات الكبرى التى كانت دائمة الثورة على ملوكها . ولكن أهم حادث فى تاريخ اوتو هو تجديده للامبراطورية الرومانية المقدسة التي أسسها شارلمان، وذلك عن طريق التدخل فى الشئون الايطالية . وقد ترتب على تجديد الامبراطورية اهتمام الأباطرة الألمان بالشئون الايطالية ، واصطدام مصالح المانيا بمصالح الكنيسة والبابوية ، وما أثير من آراء ونظريات قامت حول الكفاح بين البابوية والامبراطورية . أنظر فشر : تاريخ اوربا فى العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ١٣٩ — ١٤٢ ،وكذلك La Monte, op. cit., 173-5 المترجم .

ومن ثم يبدو أنه من المفيد بيان الأدوار الرئيسية فى تاريخ الامبراطورية منذ عام ٨٠٠ حتى مجيء آل هابسبورج (١) باختصار . أى أن نرسم صورة مجملة واضحة للتغير التاريخى ، تساعدنا على أن نزن وأن نتعمق فى الاستنتاجات المتعارف عليها عن الامبراطورية فى العصور الوسطى . وقد تكون مثل هذه الصـــورة ، نظرا لضيق المساحة ، حاسمة قاطعة ومبسطة للغـــاية . ذلك أن امبراطورية العصور الوسطى تعيش اليوم بمثابة قوة فى أذهان النـــاس ، حيثما وحينما تجرى مناقشات حول الأفكار والمبادىء والمثل السياسية ، وذلك بسبب التعميات التى قامت حولها . فمن منا لا يستعيد آراء جـــيركه (٢) Gierke

---

(١) فى سنة ١٤٣٨ انتقل تاج الامبراطورية الرومانية المقدسة إلى النمسا التى كانت دولة ألمانية وإن لم يكن لها حق انتخاب الامبراطور ، وذلك عندما تضـــافر عـــدد من الأمراء كانـــوا يعتبرون الفـــوضى فى الدولة أحسن ضمان لاستقلالهم . وتم انتخاب ألبرت النمساوى امبراطورا فى ذلك العام وكان هذا هو بداية حكم أسرة هابسبورج وبقى تاج الامبراطورية وراثيا فى تلك الأسرة منذ ذلك التـــاريخ حتى سقوط الامبراطورية الرومانية المقدسة عام ١٨٠٦ عقب معركة اوسترليتز التى انتصر فيها نابليون بونابرت . والواقع أن الأسرة المذكورة لم تخدم سوى مصالحها الخاصة ، دون أن تعمل شيئا لتوحيد ألمانيا نفسها . وقد تم هذا فى عهد أسرة ألمانية أخرى هى أسرة هوهنزولرن البروسية فى أخريات القرن التاسع عشر . أنظر عن ذلك المراجع التالية :
R Lodge, A. History of Modern Europe (1885), 15; A. J P. Taylor, The Course of German History (1961), 12ff.; D. Thomson, World History (1958), 23,73; Waugh, op. cit., 314 ff. — المترجم.

(٢) من أشهر مؤلفات أوتو جيركه كتابه المعنـون : O. Gierke, Das deutsche Genossenschaftsrecht, 4 vols., Berlin, 1868 — 1911
وقد قام ميتلاند بترجمة القسم الخاص بالعصور الوسطى من الجزء الثالث من =

اللامعة حسبما ترجمها وفسرها ميتلاند (١) Maitland ؟ ولكن كم عدد الذين أخذوا بآرائه وطبقوها على نظرية المجتمع وفلسفة التاريخ ، قد كفوا عن تصحيحها في ضوء الحقائق المستقرة بفضل الدراسات التاريخية المضنية ؟

ولقد وضعت مجموعة ضخمة من المؤلفات حول تاريخ الامبراطورية لم تتناولها تناولا شاملا ، وذلك منذ أن كتب برايس وجيركه مؤلفيهما . ويمكن القول ـ إذا لم أكن حقا مخطئا في معلوماتي ـ ان عددا قليلا من تلك البحوث، إن وجد واحد منها ؛ قد تسرب إلى الكتب التي في متناول أيدينا في انجلترا بقصد الدراسة والتعليم . إننا نشبه رجلا يحاول أن يعمل على ضوء مصباح غاز مضطرب يرجع إلى عهد الملكة فيكتوريا ، في الوقت الذي تتوفر فيه المصابيح الكهربائية : حقيقة إن أحدا لم ينشر ، حسبما أعلم ، تاريخا جديدا عن الامبراطورية يتضمن كل شيء عنها على منوال برايس وطريقته المسهبة : وثمة عيب آخر في الجيل الحالي للمؤرخين ، وهو أنه يكافح في تردد وحذر

= مؤلف جيركه سالف الذكر تحت اسم « النظريات السياسية في العصور الوسطى » O. Gierke, Political Theories of the Middle Ages, trans. by F. W. Maitland, Cambridge, 1900 - وهو عرض مختصر للاتجاهات الرئيسية في الفكر السياسي الوسيط : والكتاب مذيل بقائمة كاملة بالمصادر والمراجع والملاحظات الهامة القيمة ـ المترجم .

(١) من أحسن إنتاج المؤرخ ف. و. ميتلاند بحثه المعنون « لغة القانون الانجلو فرنسية » ، و« تاريخ القانون الانجليزى قبل عهد ادوارد الأول » بالاشتراك مع ف. بولوك F. Pollock . فضلا عن ترجمته لقسم من الجزء الثالث من كتاب جيركه المشار إليه في الحاشية السابقة ـ المترجم .

شديدين أمام الأعمال والمؤلفات الكبرى. وكان من نتائج تقدير تلك الأعمال أنه لم يعد هناك سبب للتساؤل عما يحول دون محاولة معالجة الموضوع معالجة واعية شاملة. لذا فإن ما سأقوم به، دون الادعاء لنفسي بآراء أصلية، هو أن أضع أمامكم الحقائق الخاصة المناسبة متضمنة ما أمكن استيعابه من النتائج التي توصل اليها البحث الحديث. وسأحاول، قدر ما يسمح به حيز هذا المقال، أن أعرض بعض التعديلات فيما يتعلق بالشروح والتفسيرات التي تشغل أذهاننا، أو التي تحتاج معرفتنا بالحقائق إليها :

بعض المراجع للفصل الاول

Birot, J., Le saint empire du couronnement de Charlemagne au sacre de Napoléon. Paris, 1903.

Bryce, J., The Holy Roman Empire. London and New York, 1904.

وهو يعتبر من أفضل المراجع التى تناولت تاريخ الامبراطورية الرومانية المقدسة فى العصور الوسطى ، ان لم يكن فى الواقع أفضلها على الاطلاق.

Fisher, H., The Medieval Empire 2 vols. London, 1898.

ويتناول تاريخ الامبراطورية ابتـــداء من اوتو الأول حتى نهاية أسرة هوهنشتاوفن .

Ficker, J., Das deutsche Kaiserreich in seinen universalen und nationalen Beziehungen. Innsbruck, 1861.

Gibbon, E., The History of the Decline and Fall of the Roman Empire. Ed. by J. B. Bury. 7 vols. London, 1896—1900.

Gierke, O., Das deutsche Genossenschaftsrecht. 4 vols. Berlin, 1868—1914.

Giesebrecht, W. v., Geschichte der deutschen Kaiserzéit. 5 vols. Brunswick and Leipzig, 1855—88.

وقد ظهرت طبعات فردية مستقلة لمختلف أجزاء الكتاب .

Guglia, E., Die Geburts—, Sterbe— und Grabstätten der römisch—deutschen Kaiser und Könige. Vienna, 1914.

Hahn, L., Das Kaisertum. Leipzig, 1913.

Stengel, E. E., Den Kaiser macht der Heer: Studien zur Geschichte eines politischen Gedankens. Weimar, 1910.

Wright, R. H., The "Sancta Respublica Romana," A. D. 395—888. London, 1891.

Zeller, J., L'empire germanique et l'église au moyen âge (Vol. III of "Hitstoire d'Allemagne"). Paris, 1884.

Zeummer, K., Heiliges römisches Reich deutscher Nation, Weimar, 1910.

Zeydel, E. H., The Holy Roman Empire in German Literature. New York, 1918.

الفصل الثانى

امبراطورية شارلمان

فى ليلة عيد الميلاد من عام ٨٠٠ ارتفع الستار فى حركة تقليدية عن مشهد لحفل رائع فى كنيسة بطرس الرسول فى روما . وبرز على الفور السؤال التالى: هل تعتبر نقطـة البداية التقليدية هـذه صحيحة ؟ وهل حقا كان تتويج شارل العظيم - حسبما كتب برايس - هو بداية « الامبراطورية الرومانيـة المقدسة » ؟ إن الجواب على ذلك - فى اعتقادى - هو الآتى : لاشك أن هذا المشهد التقليدى قد أوجد شريطا متحركا من الأحداث التي ترجع إلى ماقبل التاريخ المذكور . ولقد قيل بحق إن امبراطورية شارل العظيم « قد ذهبت معه إلى القبر » . فهو لم يؤسس الامبراطورية الغربيـة فى القرون الوسطى . كما أن امبراطوريته لم يتم « احياؤها » أو « تجـديدها » أيام أوتو الأول حسبما قيل مرارا وتكرارا :

ومنذ زمن غير بعيد اعتبر تتويج شارل العظيم « أهم وأعظم أحجية مثيرة للحيرة طوال التاريخ الوسيط » غير أنه بوسعنا أن نقول اليوم ، بحق ، بأن تلك الأحجية قد تم حلها وفك رموزها . ونحن نعرف ، دون شك ، أن تتويج شارل كان نتيجة لسلسلة عجيبـة من الأحـداث والدسائس والخلافات داخل روما ذاتها ، وفى القسطنطينية أيضا ، والتي لا ترجع إلى أبعد من سنة ٧٩٨ . ونعرف كذلك أن أحداث ليلة عيد الميـلاد لسنة ٨٠٠ قد جرت ضمن إطار الامبراطورية الرومانية القائمة التي كانت روما لاتزال جزءا أساسيا منها . وهذه الامبراطورية هى التي كثيرا مانطلق عليها، عرضا واتفاقا، اصطلاح « الدولة البيزنطية » .

إن كل ما اتجهت النية إليه ، وكل ما تم عمله ، هو انتخاب امبراطور جديد فى ذات الامبراطورية القائمة . (١) ولم تكن هناك أية فكـــرة نحـو خلق امبراطورية جديدة فى الغرب، أو « إعادة » أو إحياء السيادة الرومانية هناك ؛ تلك السيادة التي كانت قد انتهت قبل ذلك التاريخ بمدة قرون بقيام الممالك الجرمانية. (٢) ولم يتجه التفكير إطـــلاقا نحو « نقل » أو « تحويل » (٣) الامبراطورية القائمة من الشرق إلى الغرب . وانحصر الخلاف كله فى شخص الامبراطور دون الامبراطورية . وليس هناك وراء أحداث عام ٨٠٠ أى تفكير أو أية فكرة تتعلق بحمل اللقب الامبراطورى باعتباره «أفضل وأنسب

---

(١) كتبت هذا الكلام قبل معرفتى بالعبارة التي تم اكتشافها فى مخطوط عثر عليه بمدينة كولونيا . وقد وردت العبارة المذكورة تحت أحداث عام ٩٨ . ونصها « كانت هذه هى نفس السنة ... التي قدم فيها رسول من بلاد اليونان لتسليم السلطة إليه ، [أى إلى الامبراطور الغربى] . وباللاتينية "Ipse est annus, quando missi venerunt de Graecia, ut tradererent ei imperium" — وهذا الكشف غير المتوقع فى حاجة إلى مزيد من العناية والاهتمام ، وخاصة فيما يتعلق بمدى علم شارل نفسه باحداث ليلة عيد الميلاد لسنة ٨٠٠ . وإذا أخذنا تلك العبارة كمصدر ثقة ، فمن الواضح أنها تمدنا بمعلومات بالغة الأهمية فيما يختص بوجهة النظر المعروضة فى النص أعلاه .

(٢) انظر فى هـذا الكتاب ، الفصل الثالث من بحث هارتمان وعنوانه « الدول الجرمانية فى الغرب » ص ١٠٣-١٣٠ . المترجم .

(٣) يطلق عليها باللاتينية لفظ translatio imperii — أنظر عن ذلك **Lewis, Med. Political Ideas, II, 435, 438 f., 441, 447 f., 460 f., 463, 500-2, 517** — المترجم .

لتعبير » عن السلطة « العالمية » التي تمتعت بها مملكة الفرنجة . ولم يكن التاج الامبراطورى ـ حسبما أكد برايس ـ هو « الهدف الذى اتجهت إليه سياسة ملوك الفرنجة لعدة سنوات ».

ويبدو بجلاء أن الخطوة الأولى التي اتخذت عام ٨٠٠ قد أتت من جانب البابا . ولم يكن هذا العمل المنظم تتويجا على يد البابا ، بل انتخابا من قبل الشعب الرومانى . (١) وغير صحيح الرأى القائل بأن البابا عندما توج شارل قد خلع المنصب الامبراطورى على الأسرة الكارولنجية ، أو حتى على شارل نفسه فقط . لقد كان التتويج احتفالا جميلا يمتاز بالوقار. كما أنه رفع من قدر الاجراءات والمظاهر الاحتفالية، وأحاطها بهالة دينية. ولكن هذا التتويج لم يكن بحال ضرورياً لتنصيب امبراطور ما بصورة قانونية. هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن الانتخاب. ولو أنه أدى إلى منح اللقب الامبراطورى ، إلا أنه لم يؤد إلى نقله إلى أسرة ما . ذلك أن منصب الامبراطور لم يكن قط متوارثا . وعلى الرغم من أن شارل قد أصبح امبراطورا فى عام ٨٠٠ ، إلا أنه لم يكن هناك حق فى أن يخلفه ابنه أو ابناؤه من بعده :

وبناء على ذلك ، فإن كل ما حدث فى عام ٨٠٠ هو أن شارل ، الذى كان فعلا ملكا على كل من الفرنجة واللمبارديين ، قد أصبح امبراطورا رومانيا فى نظر الذين انتخبوه . ولم يصبح بطبيعة الحال الامبراطور الاوحد . فغالبا ما كان هناك امبراطور آخر يفوقه فى المكانة والمرتبة فلم يكن ثمة رأى يقول بأن امبراطورا واحدا يستطيع أن يحكم الممتلكات الرومانية فى وقت واحد : ولا شك أنه لم يتمكن من أن يصبح امبراطورا افرنجيا . إذ لم يوجد إطلاقا مثل هذا الشخص ، وليس هناك مثله . وكانت كل من مملكتيه الفرنجية

(١) أنظر كلمة المترجم ص٣١-٣٢ من هذا الكتاب ـ المترجم :

واللمباردية . خارجة عن نطاق امبراطوريته وقد بقيتا كذلك . ولم يكن هناك غير هذا الوضع، لأن الامبراطورية التي طالب شارل بأن يكون امبراطورا عليها إنما كانت الامبراطورية الرومانية (١) القائمة فعلا .

وكانت كل تلك المطالب والادعاءات حسنة جدا . ولكن كيف توضع موضع التنفيذ ؟ كان طبيعيا ان ترفض الحكومة الامبراطورية فى القسطنطينية الاعتراف بالامبراطور الجديد ، الذى بدا فى نظرها مدعيا ومغتصبا وتافها وسخيفا . وبكلمة مختصرة ، فقد كانت احداث عام ٨٠٠ انقلابا سياسيا فاشلا . وكان شارل نفسه فى مأزق مثير للحيرة ، ذلك لأن آخر شيء كان يريده هو معاداة الحكومة الامبراطورية ، مما قد يؤثر تأثيرا سيئا على مركزه باعتباره ملكا على لمبارديا وبوسعنا أن نتبين مدى اضطرابه وارتباكه ؛ ذلك أنه كان لا يزال يستخدم فى حرص وحذر لقبه الملكى القديم ، على الرغم من مضى ثلاثة أشهر على تتويجه . وقد عمد أخيرا ، بعد انقضاء خمسة اشهر على حفل التتويج ، إلى صياغة عبارة مبهمة غير دقيقة ليس لها مثيل . ولاشك أنه كان يأمل ألا تسبب مثل تلك العبارة ضررا، ما دامت قد تجنبت بحرص تجربة البروتوكول الامبراطورى . فأطلق على نفسه لقب «شارل، اوغسطس(٢) الشديد

(١) المقصود الدولة البيزنطية - المترجم .

(٢) اوغسطس لقب رومانى للتشريف، والمقصود به العظيم أو المعظم . وكان اول ما خلع فى يناير سنة ٢٧ ق . م على جايوس يوليوس قيصر اوكتافيانوس. وقد رفع من مركزه وقدره ، لأن لفظ اوغسطس كان يعنى شيئا خصص وكرس لخدمة الآلهة ، وليكن معبدا او آنية خاصة بالطقوس الدينية او طقسا مقدسا . وبذلك احاطه هذا اللقب بهالة ترتفع به عن مستوى البشر ، إن لم تكن تضفى عليه صفة الألوهية . واستمر اللقب المذكور منذ ذلك الحين يحمله الأباطرة الرومان ليس فى عصر الامبراطورية الرومانية القديمة فقط ، وإنما فى تاريخ اوروبا الوسيط أيضا . أنظر عن ذلك تشارلز وورث :الامبراطورية الرومانية ، ص ١٨ ، وكذلك كتاب Rostovtzeff, Rome, 283 - المترجم .

الوقار ، المتوج بفضل الله ، الامـبراطور العظيم ، المحب للسلام ، حاكم الامبراطورية الرومانية » . ويبدو أنه قد استمتع حقاً بمنصبه الجديد بعد ذلك بأشهر قليلة ، أى فى الفترة من مايو سنة ٨١١ إلى نهـاية سنة ٨٠٢ : وربما يكون قد أحس بأن هذا المنصب إنما يعبر عن دعوة إلهية . ولكن لم يلبث أن أعقب ذلك خيبة الأمل . فسرعان ما أدرك أنه كان مخطئـا عندما اعتقد أنه بتجنبه لقب الحاكم الشرعى سوف يبعد شبهات الحكومة الإمبراطورية وشكوكها .

ولن أشغلكم بسرد الأحداث التاليـة حتى وفاة شارلمان عام ٨١٤ : ويكفى القول بأنها استلزمت قيام حربين باهظتي التكاليف فضلا عن منح عظيمة من الأراضى ، وضياع سنوات فى مفاوضات مرهقة ، قبل أن تقرر الحكومة الامبراطورية فى بيزنطة بصفة نهائية الاعتراف بلقب شارل الامبراطورى . وما كانت فى الواقع لتوافق على ذلك ؛ ولكنها أقدمت على اتخاذ هـذه الخطوة بسبب ما عانته من هزيمة دامية على أيدى البلغار . فقد اضطرت إلى انجاز ارتباطات قليلة الأهمية وبأسرع ما يمكن حتى يتسنى لها تركيز كل جهودها ضد الخطر البلغارى . وإذا كان شاثام (١) Chatham قد فاز بالامبراطورية البريطانية على ضفاف الراين ، فقد كسب شارل امبراطوريته فى مضايق جبال البلقان الوعرة . وربما كانت الحال كذلك ، فى الغالب ، لو كانت معاهدة الصلح التى أبرمها شارل فى الرابع من ابريل عام ٨١٢

---

(١) أنظر عن ذلك Trevelyan, op. cit., 368 - المترجم .

مع الامبراطور ميخائيل الأول (١) قد وضعت موضع التنفيذ . ذلك أن السفراء الامبراطوريين الذين بعث بهم ميخائيل إلى مدينة آخن (٢) فى الرابع من ابريل عام ٨١٢ للوصول إلى تسوية ، قد خاطبوا شارل بوصفه «امبرطورا وملكا» « emperor and basileus » .

ولنا أن نتساءل : على أى شيء كان شارل امبراطورا ؟ والجواب أنه كان امبراطورا على لا شيء . حقاً إن شارل نفسه كتب فى عام ٨١٣ خطابا مفعما إلى ميخائيل الأول ، يعرب فيه عن اغتباطه بأن السلام قد حل أخيرا بين الامبراطوريتين « الشرقية » و « الغربية » . ولكنه كان فى ذلك يجاوز نطاق سلطته : إن فكرة وجود امبراطورية « غربية » لم يكن لها محل فى المفاوضات الرسمية . لقد كان مفروضا ان يكون شارل « امبراطورا وملكا » ، وهو لقب شخصي . ولكنه لم يكن امبراطورا على بلد ما ، وأبعد

---

(١) الامبراطور ميخائيل الأول من الأسرة الأيسورية ، تولى العرش من سنة ٨١١ إلى سنة ٨١٣ . كان حاكما ضعيفا واقعا تحت تأثير شخصيات أقوى منه . وقد ثارت ضده معظم طوائف الشعب بسبب سياسته السيئة غير الحكيمة . وكان ، بعكس أعضاء أسرته ، من المناوئين لحركة تحطيم الصور والأيقونات التي بدأها مؤسس الأسرة الامبراطور ليو الثالث. ولذلك أثار ضده غضب الجيش البيزنطى والمثقفين من الشعب عندما أبعد أنصار تحطيم التماثيل عن الوظائف العامة ، وعندما أبدى عطفا على الرهبان . وقد ذهب ميخائيل ضحية ثورة عسكرية دبرها القائد ليو الأرمني الذى اعتلى العرش بعده تحت اسم ليو الخامس . أنظر Ostrogorsky, op cit., 185 — 8 المترجم .

(٢) المقصود مدينة اكس لاشابل الألمانية ـ المترجم .

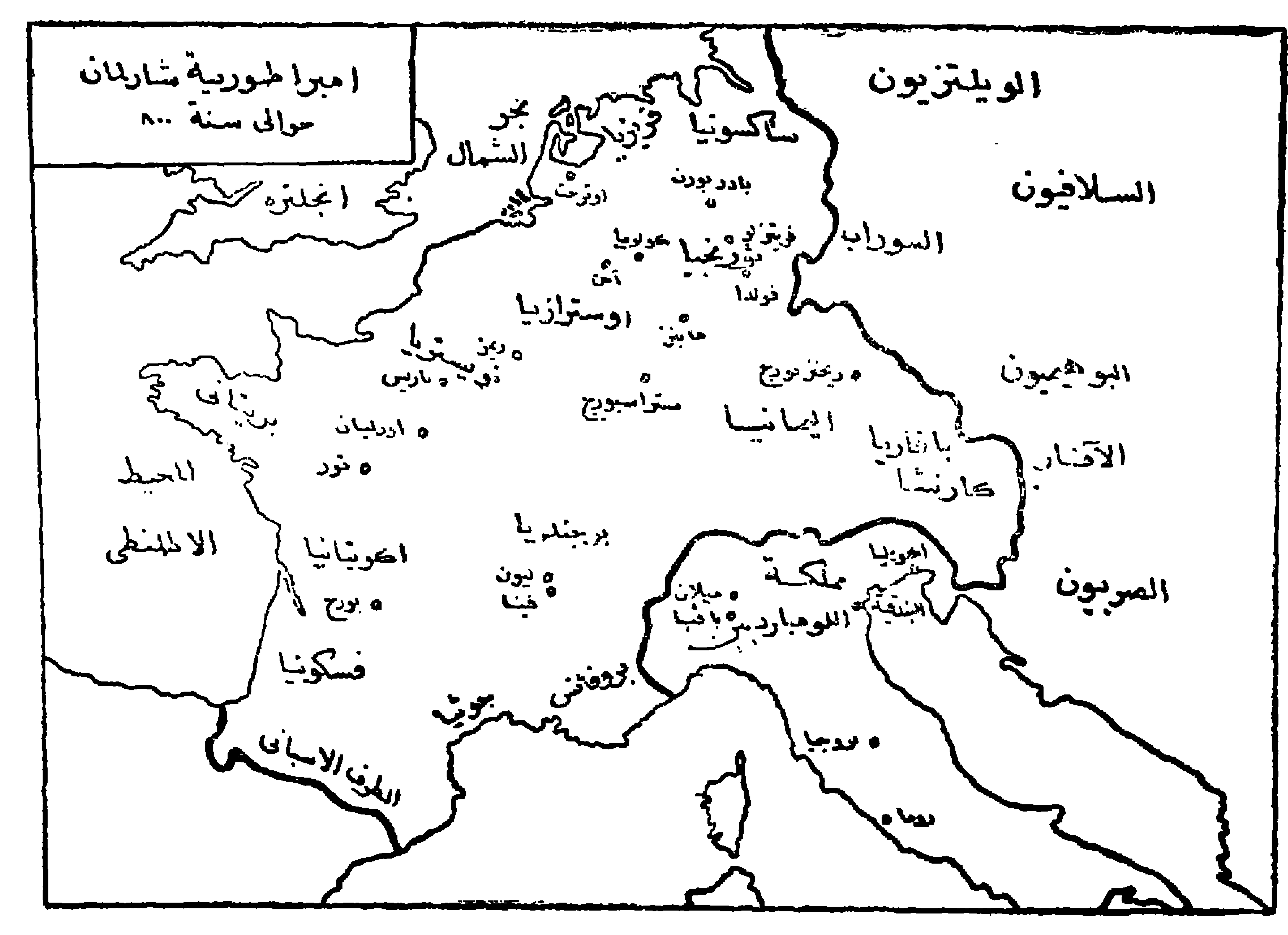
ما يكون امبراطورا رومانيا . ومنذ ذلك التاريخ أسقط هو نفسه ، بحكم طبيعته ، من لقبه الصيغة العجيبة « حاكم الامبراطورية الرومانية » . ومن الواضح أن بعض الثمن قد دفع فى سبيل تلك التسوية . ولسنا بحاجة للتدليل على ذلك .

وحتى اولئك المؤرخين الذين أدركوا بحق أن عام ٨١٢ وليس عام ٨٠٠ هو التاريخ الهام ، قد استنتجوا فى الغالب أنه اعتبارا من عام ٨١٢ كان يوجد فعلا انقسام فى الامبراطورية الرومانية إلى شرقية وغربية ، وأنه بعد ذلك التاريخ استمر تاريخ الامبراطورية فى الغرب . ولكن الحقيقة خلاف ذلك . فلم يفكر قط أحد من الكارولنجيين ـ باستثناء حالة لويس الثانى لأشهر قلائل ـ ، كما لم يفكر اوتو الأول الذى جاء بعد ذلك ، فى استخدام لقب « الامبراطور الرومانى » Roman emperor ؛ هذا اللقب الذى لم يكن لهم فيه أى حق حسبما كانوا يعلمون جيدا . فلم تكن الامبراطورية الرومانية ملكا لهم . لقد كانت هى الامبراطورية الخاضعة لأباطرة الشرق . ومع ذلك فليس هذا كل شيء . لقد غمرت شارل السعادة لما وصلت اليه مفاوضات عام ٨١٢ . لذا بادر على الفور إلى اتخاذ خطوة لم يكن باستطاعته القيام بها من قبل من الوجهة القانونية . ففى عام ٨١٣ انتخب ابنه لويس بوصفه شريكا للامبراطور . وكان ذلك أمرا سابقا لأوانه . وعلى اثر سلسلة عجيبة من الأحداث ، التى اعتقد أنه لا يوجد غيرها ، توفى شارل قبل التصديق على معاهدة عام ٨١٢ التي لم توضع فى الواقع موضع التنفيذ .

وهكذا لم يصبح شارل قط امبراطورا معترفا به رسميا ، على الرغم من كل ما بذل من جهود وما قدم من تنازلات . ذلك أن الثمن الذى دفع سنة ٨٠٠ ، والذى كان يهدف بصورة مؤقتة إلى تقليده اللقب الامبراطورى ،

لم يسفر عن أية نتيجة. ولم يبد شارلمان أى اهتمام بذلك. فقد كان يراوده هو نفسه الشعور بالتراجع عن هدفه. ولم تكن مفاوضات عام ٨١٢ مقنعة أو كافية كي تضمن له لقب امبراطور غير رومانى. غير أنه لم يلبث ، تحت تأثير سوء فهم حقيقى ، أن وجد ابنه لويس وقد ارتفع إلى العرش ، مما جعله آمنا مطمئنا إلى أن اللقب لن يموت معه. وكان ذلك بطريق الصدفة فى الغالب. وقد انتهت هذه الحلقة كلها ، التى كان شارل راغبا عنها دائما ، الى لا شيء.

خريطة رقم (٧)



امبراطورية شارلمان
حوالى سنة ٨٠٠
الويلتزيون
السلافيون
السوراب
البوهيميون
الآفار
الصربيون
ساكسونيا
فريزيا
بحر الشمال
انجلتره
بادربورن
فرانكونيا
اوستراسيا
نويستريا
باريس
بريتانى
اورليان
تور
المحيط الاطلنطى
اكويتانيا
بورج
فسكونيا
برجنديا
ليون
فينا
ستراسبورج
اليمانيا
ريجنزبورج
بافاريا
كارنثيا
مملكة اللومبارديين
ميلان
بافيا
البندقية
اكويليا
بروفانس
سبتمانيا
الطرف الاسبانى
رومه

بعض المراجع للفصل الثانى

Abel, S. and Simson, B. v., Jahrbücher des fränkischen Reichs unter Karl dem Grossen. 2 vols. Leipzig, 1883-88.

Baxmann, R., Die Politik der Päpste von Gregor I bis auf Gregor VII. 2 vols. Elberfeld, 1868—69.

Bréhier, L., La querelle des images. Paris, 1904.

Brosien, H., Karl der Grosse. Leipzig, 1885.

Bulfinch, T., Mythology ... Legends of Charlemagne. New York, 1913.

Cooper, A. J., Le pélerinage de Charlemagne. Paris, 1925.

Davis, H. W. C., Charlemagne (Charles the Great): The Hero of Two Nations. London and New York, 1899.

Gasquet, A., Etudes byzantines : l'empire byzantin et la monarchie franque. Paris, 1888.

Harnack O.,

1 — Das karolingische und das byzantinische Reich in ihren politischen Beziehungen. Göttingen. 1880.

2 — Die Beziehungen des fränkisch—italischen zum

byzantinischen Reiche unter der Regierung Karls des Grossen und der spätteren Kaiser karolingischen Stammes. Göttingen, 1880.

Heldmann, K., Das Kaisertum Karls des Grossen. Weimar, 1928.

Himmelreich, L., Papst Leo III und die Kaiserkrönung Karls des Grossen im Jahre 800. Munich, 1919.

Hodgkin, T., Charles the Great. London, 1897.

Hoffmann, H., Karl der Grosse im bilde der Geschicht—schreibung des frühen Mittelalters. Berlin, 1919.

Huyskens, A., Karl der Grosse und seine Lieblingspfalz. Aachen, 1914.

Kampers, F. Karl der Grosse. Mainz, 1910.

Ketterer. J. A., Karl der Grosse und die Kirche. Munich and Berlin, 1898.

Kleinclausz, A., L'empire carolingien: ses origines et ses transformations. Paris, 1902.

Lilienfein, H., Die Anschauungen von Staat und Kirche im Reich der Karolinger. Heidelberg, 1902.

Macherl, P.. Karl der Grosse : ein Lebensbild. Graz, 1912.

Martin, H , Charl magne et l'empire carlovengien. Paris, 1893.

Mombert, J. I., A History of Charles the Great. New York, 1888.

Müntz, E., La légende de Charlemagne dans l'art du moyen—âge. Paris, 1885.

Munz, P., The Origin of the Carolingian Empire. 1960.

Mystakidis, B., Byzantinisch-deutsch Beziehungen zur Zeit der Ottonen. Stuttgart, 1891.

Ohr, W.,

1 — der karolingische Gottesstaat in Theorie und Praxis. Leipzig, 1902.

2 — Die Kaiserkronung Karls des Grossen. Tübingen, 1904.

Ostermann, A., Karl der Grosse und das byzantinische Reich. Luckau, 1895.

Pfister, C., Le personage et l'oeuvre de Charlemagne. Metz, 1914.

Rauschen, G., Die Legende Karl des Grossen im 11 und 12 Jahrhundert. Leipzig, 1890.

Servière, J. de la, Charlemagne et l'église. Paris, 1904.

Tiede, C., Quellenmässige Darstellung der Beziehungen Carls des Grossen zu Os -Rom Rostock, 1892

Vétault, A., Charlemagne Tours, 1908.

Wells, C. L., The Age of Charlemagne New York 1898.

Weston. J , The Romance Cycle of Charlemagne and his peers. London, 1905.

أنظر أيضا المراجع المذيل بها الفصل الاول من هذا البحث .

الفصل الثالث

الامبراطورية فى عهد اوتو وخلفائه

تلك كانت المقدمة . وهى إحدى القصص غير المتوقعة أو المرغوب فيها ، وهى كذلك من القصص بعيدة الاحتمال ، حتى بالنسبة لأنشط خيال مبدع. إنها قد تساعد على إيضاح السبب فى أن مؤرخا فرنسيا معروفا وصف ذات مرة أحداث عام ٨٠٠ باعتبارها « مسرحية فكاهية مرتجلة بمعرفة حفنة من رجال الكنيسة المتزمتين »

وننتقل الآن إلى الدور الأول الذى دام مائة وعشر سنة كاملة ، وانتهى بمقتل الامبراطور برنجار (١) عام ٩٢٤ . ولمتسائل أن يقول : أليس الامبراطور برنجار ، الذى هو مجرد نموذج لشخص تافه ، تفسيرا كافيا للمغزى الذى ينطوى وراء تلك الأحقاب الإحدى عشر السابقة ؟ لم تكن هذه الفترة طويلة فى عمر الزمن ؛ ولكنها كانت ، مع ذلك ، طويلة المدى بما يكفى للدلالة على أن اللقب الامبراطورى ، الذى كان مجرد لقب دون أن تكون هناك امبراطورية ، والذى منحه شارل لإبنه

---

(١) الإمبراطور برنجار اوف فريولى هو ابن جيزيلا Gisela من زوجها إبرهارد صاحب فريولى Eberhard of Friuli وقد حكم اعتبارا من سنة ٩١٥، ومات سنة ٩٢٤ . أنظر La Monte, op. cit., 170.175 المترجم .

لويس (١) ، لم يكن له أية أهمية بالنسبة للفرنجة . فضلا عن عجزه وقصوره عن أن يستقر ويثبت فى أرض فرنجية ولا شك أن لويس نفسه قد أرسى أساسا قويا بفضل منصبه الامبراطورى . وجدير بالذكر أن لويس قد تخلى منذ البداية عن اللقبين الملكيين اللمباردى والفرنجى ، اللذين أهتم أبوه بالاحتفاظ بهما . واكتفى بأن أطلق على نفسه لقب « الامبراطور العظيم » « imperator augustus ». ولم يجد السؤال عن مغزى هذا اللقب ودلالته أية إجابة . فلم يكن اللقب المذكور رومانيا أو فرنجيا كما رأينا . ثم أن فكرة امبراطورية « فرنجية » أو « كارولنجية » ما هى إلا اختلاق وخرافة نابعة من خيال المؤرخين الحديثين . وفى الحقيقة ، بدأ الشعراء الكارولنجيون ومؤرخو البلاط ورجال الدين والفلاسفة ، فى السنوات التي أعقبت عام ٨٠٠ ، ينسبون إلى تلك الامبراطورية شتى المعانى المتناقضة ، متأثرين فى ذلك بعظمة هذا المنصب وجلاله . إلا أنه لم يخرج فى الواقع عن كونه مجرد مركز

---

(١) خلف شارلمان ابنه لويس الصالح : وكان حكمه الذى امتد من سنة ٨١٤ إلى سنة ٨٤٠ كارثة على كيان الامبراطورية الغربية ، بسبب سوء تصرفه مع أعوان أبيه . وفى عام ٨١٧ قرر تقسيم امبراطوريته بين أبنائه الثلاثة ، مع اشراك كل منهم معه فى حكومة القسم الخاص به . ولم يقف الأمر عند ذلك ، بل ارتكب خطأ جديدا تحت تأثير زوجته الثانية عندما ضم بعض أجزاء مملكتي ابنيه الأكبرين إلى مالك أبنه الأصغر : وبموت لويس سنة ٨٤٠ قامت حرب أهلية بين أبنائه الثلاثة استمرت ثلاثة أعوام ، وانتهت بعقد معاهدة فردان سنة ٨٤٣ التي انشطرت الامبراطورية بمقتضاها إلى ثلاثة أقسام على كل منها ابن من أبناء لويس الثلاثة شارل ولويس ولوثير : أنظر La Monte, op. cit., 161 - المترجم .

شخصى . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى لم يكن مستغربا أن يحاول لويس الصالح - تحت تأثير التعزيم بعبارات السحر - أن يضفى على هذا اللقب معنى وغاية كان لا يزال فى حاجة إليهما . ولا شك أنه كان قد عقد العزم ، حسبما أعتقد، على تحويل كل أملاكه المشتتة إلى امبراطورية موحدة تقوم على أساس الديانة المسيحية ، وذلك تحت ضغط رجال الدين من أمثال أجوبارد الليونى(١) Agobard of Lyons ، والفكرة الكنسية الهادفة إلى إقامة « امبراطورية مسيحية » .

هذا هو فحوى الأمر الامبراطورى ordinatio imperii الشهير الصادر عام ٨١٧ ، الذى أشار فى سياق الحديث إلى وحدة الامبراطورية . ولكنها كانت خطوة ثورية جامحة يخشى عليها من الاخفاق . وكان رد الفعل على الأمر الامبراطورى سريعا ، ويشتم منه رائحة العداء . ففى سنوات قلائل كان هذا البناء الشامخ الهش قد انهار من أساسه . وأدت الحروب

---

(١) أجوبارد الليونى من كبار علماء النهضة الكارولنجية التى ارتبطت بشارلمان وشخصيته . وهو من قادة الغرب فى الناحية العلمية . وقد اشتهر بنبذه للخرافات والخزعبلات التى كانت منتشرة فى عصره . وتوفى سنة ٨٤٠ . وعند الإشارة إلى اجوبارد يجب أن نذكر معه رجال أسهموا بنصيب ملحوظ فى تلك النهضة ، أمثال جون سكوتوس اريوجينا John Scotus Eriugena ، ولوبوس أوف فريير *Lupus of Ferriéres* ، وسيدوليوس سكوتوس Sedulius Scotus ، وهنكمار الريمى Hincmar of Rheims . أنظر **La Monte, op. cit., 160 , 243; Ullmann, op. cit., 238; Laistner, op. cit., 309 ff.; F. L. Cross, The Early Christian Fathers (1960), 137** - المترجم .

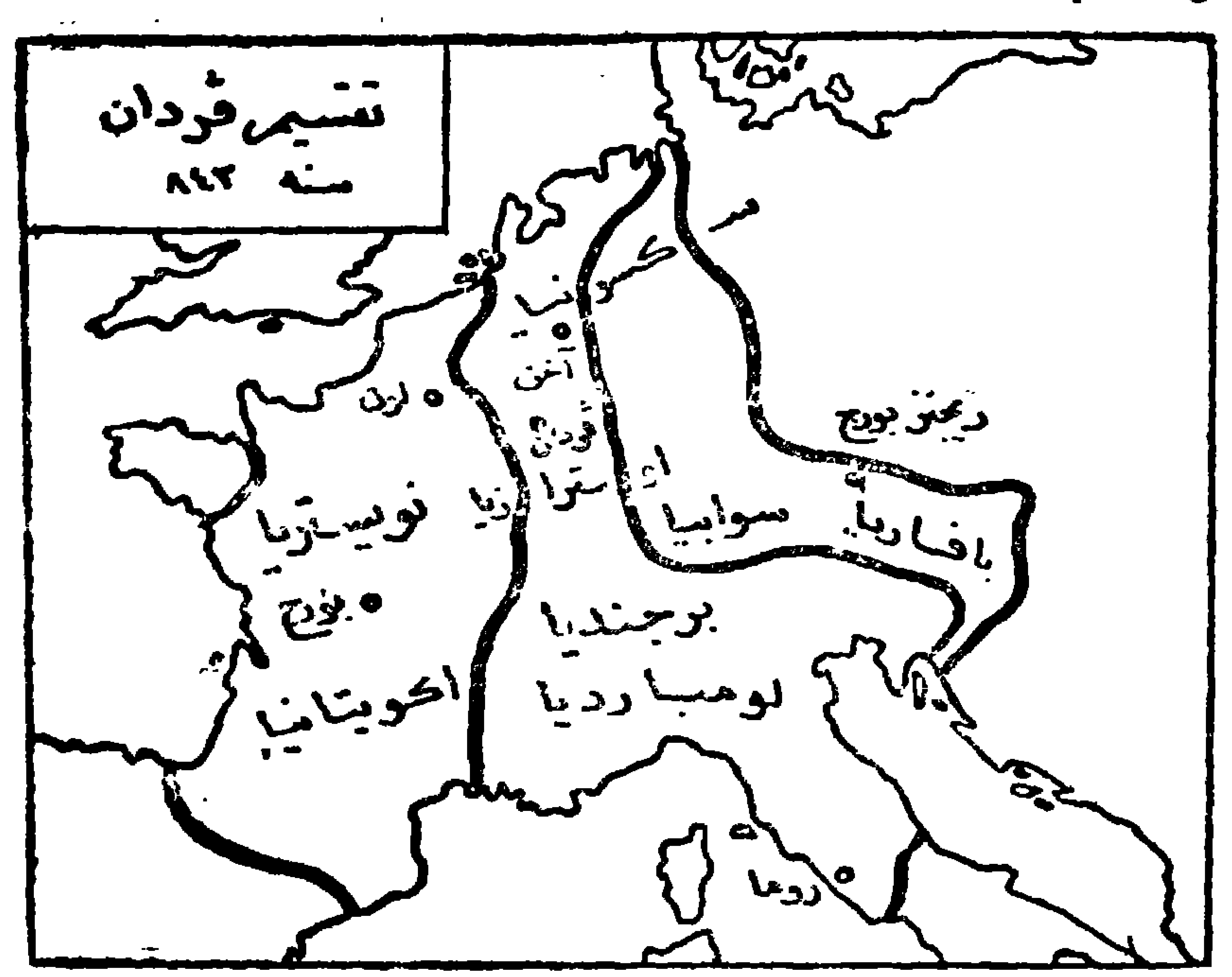
الأهلية التي نشبت فى القرن التاسع ، والتقسيمات المتوالية فى املاك الفرنجة بين أبناء لويس وأحفاده ، إلى انكماش مستمر فى الأراضي التي كان يحكمها الامبراطور ؛ واستمر الحال كذلك إلى أن انكمش اللقب الامبراطورى أيام البابا يوحنا الثامن (١) ، حتي غدا حامله يسيطر على مساحات ضيقة تشمل إمارة إيطالية صغيرة .

هذا ، ولم تسفر عن شيء الفكرة العجولة الخاصة باتحاد الامبراطورية مع الأراضى الفرنجية بهدف التوصل إلى نتيجة إيجابية : وكان للحروب الأهلية والتقسيمات نتيجة ثانية لا تقل عن الأولى فى مغزاها ودلالتها . فقد مكنت البابوية من تعزيز سيطرتها على اللقب الامبراطورى ، تلك السيطرة التي لم تتخل عنها إطلاقا فيما بعد . ولم يكن للبابا يد فى ارتقاء لويس إلى العرش عام ٨١٣. كما لم يكن له دخل عندما أعيد انتخاب لويس بعد وفاة والده فى عام ٨١٤. ولم يكن له أيضا أى دور فى تنصيب لوثير (٢) أكبر أبناء لويس عام ٨١٧. ولكن

(١) جلس البابا يوحنا الثامن على الكرسى البابوى من سنة ٨٧٢ إلى سنة ٨٨٢ - المترجم .

(٢) لوثير هو ابن الامبراطور الكارولنجى لويس الصالح . وكان الأخير قد وجد أن وحدة الامبراطورية معرضة للأخطار بسبب المطامع والتنافس بين ابنائه الثلاثة ، فأصدر فى سنة ٨١٧ مرسوما يقضي بأن يرث أكبر أبنائه وهو لوثير اللقب الامبراطورى والجزء الأكبر من الامبراطورية ، وأن يحكم ابناه الآخران كل على مملكة صغيرة داخل نطاق الامبراطورية وتحت سيادة لوثير نفسه . وكيفما كان الأمر ، فقد خلف اباه لويس بوصفه امبراطورا سنة ٨٤٠ ، وحمل هذا اللقب حتي موته سنة ٨٥٥ . وفيما يتعلق بلوثير والصراع بينه وبين أخريه شارل ولويس ، ومعاهدة فردان سنة ٨٤٣ ونتائجها ، أنظر Sullivan, op. cit., 140—1; Downs, op. cit., 35-6 - راجع أيضا ص ١١٥ ح ١ و ١٤٤ - ١٤٦ ح ٣ و ٢٠٨ ح ١ من هذا الكتاب - المترجم .

خريطة رقم (٨) أ



خريطة رقم (٨) ب



تقسيم امبراطورية شارلمان

الصراع بين أعضاء البيت الكارولنجي الذين كانوا جميعا بطبيعة الحال ينشدون التأييد البابوى ، يسر للبابوات تجديد الصلة بين الامبراطورية وروما ، تلك الصلة التي كانت قد انقطعت فيما بين عامى ٨٠٠و٨٠٢ واعتبارا من عام ٨٢٣ حتي أيام مكسيميليان (١) فى مستهل القرن السادس عشر ، لم يحظ أحد فى الواقع بأن يكون امبراطورا ما لم يكن قد تلقى التاج فى روما على يد البابا . وهكذا يبدو أن الإمبراطورية ، التي أخفقت فى تحقيق معنى وغاية لها على أيدى الفرنجة ، كانت منذ حوالى سنة ٨٥٠ فى سبيل تكييف نفسها كأداة بابوية . والواقع أنه كان قد وضع في تلك السنوات أساس النظرية « البابوية » عن الامبراطورية. وهى ، بطبيعة الحال ، نظرية ليست لها أصول تاريخية، ولا أساس لها فى الحقائق التاريخية ايضا . وقد قدر لها أن تنتشر على نطاق واسع فى أواخر القرون الوسطى ، وإن لم تكن عالمية قط . ومضمون تلك النظرية، التى عبر عنها انوسنت الثالث (٢) فى شكلها النهائى، ينحصر فى أن البابا هو الذى يمنح التاج الامبراطورى ، وله أيضا أن يمنعه إذا ارتأى ذلك مناسبا.

---

(١) مكسيميليان الأول من أباطرة أسرة هابسبورج . تزوج من مارى البرجندية ، وحكم بوصفه امبراطورا من سنة ١٤٩٣ إلى سنة ١٥١٩ . أنظر S. R. Brett, Europe since the Renaissance (1956) I, 39, 71 — المترجم .

(٢) يعتبر انوسنت الثالث من أقوى شخصيات العصور الوسطى. شغل الكرسي البابوى في الفترة الواقعة بين عامى ١١٩٨ و ١٢١٦ . وهو بحق خليفة هيلدبراند الحقيقى . وقد تلقى ثقافة عالية ، وتفوق على كثير من علماء عصره فى الفلسفة واللاهوت والقانون. وعرف بتمسكه الشديد بحقوق البابوية، =

ولكن البابوية فى أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر لم تكن تعرف كيف تتصرف مع الامبراطورية بعد أن وضعتها تحت رقابتها . لقد كانت فى حاجة ماسة إلى امبراطور ، كما تكشف عن ذلك تصرفات البابا يوحنا الثامن . ولكن هذه الحاجة جعلتها فى مأزق لا سبيل إلى الخروج منه . إذ رأت فى امبراطور قوى نذيرا بالخطر . ولكن ما فائدة وجود امبراطور بلغ به الضعف أن غدا عاجزا عن مساعدة البابا على الاحتفاظ باستقلاله ؟ وكان طبيعيا أن يعمل البابوات على ضمان أمنهم وسلامتهم ، وهم يواجهون الاختيار بين أمرين أحلاهما مر . وكانت النتيجة أن جرت البابوية الامبراطورية إلى السقوط والانهيار معها ، وذلك بعد أن عجزت عن تأمين نفسها .

= وله آراء ونظريات واضحة وحاسمة فى هذا الصدد . ولذلك تميز عهده بتجدد الصراع العنيف بين البابوية والامبراطورية حول المسائل العلمانية . وفى زمنه بلغت البابوية أقصى قوتها بعد انتصاراتها على القوى الزمنية فى الغرب وعلى رأسها الامبراطورية . ولكن انغماس البابوية فى الشئون الدنيوية أدى فى نهاية الأمر إلى ضعفها وزوال هيبتها وتشكك الناس فى قدسيتها ، مما هيأ الجو لظهور عصر جديد . أنظر عن ذلك كولتون : عالم العصور الوسطى ، ص ٢٤ ح ٢ و ٢٢٥ و ٢٥٠ ، فشر : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٢٣١ وما بعدها ، وكذلك Baldwin, op. cit. 48—58, 85—9; Cantor, op. cit., 261—4; La Monte, op. cit., 391 ff., 417 ff. ، راجع أيضا كلمة المترجم ص ٤٧-٤٨ من هذا الكتاب — المترجم.

والواقع أن التدخل البابوى لم يكن على الأقل من بين العوامل التي قللت من قيمة اللقب الامبراطورى حتى انتهى به الأمر إلى الافلاس . وفى أعقاب بابوية كل من نيقولا الأول (١) ويوحنــا الثامن ، وقعت البابوية ومعهــا الامبراطورية تحت سيطرة الأرستقراطية الرومانية . واستتبع ذلك تعاقب أباطرة ضعاف لا حول لهم ولا طول وقد وقع الاختيار على البابوات من بين صفوف طبقة النبلاء الايطاليين ، وأولهم جى اوف سبوليتو (٢) Guy of Spoleto عام ٨٩١ . وفى عام ٩٢٤ انتهى أمر اللقب الذى فقد معناه؛ فقد قضى عليه بظهور آل كريسنتيوس (٣) Crescentius الذين وجدوا فيه حجر عثرة فى سبيل جهودهم لاقامة إمارة ثم داخل روما وحواليها . لقد مات اللقب لأنه كان خلوا من أية قوة حيوية دافعة ، بل وخلوا من التعبير عن أى مبدأ فعال . وباختفائه فى عام ٩٢٤ ، لم يترك أى أثر ينسب إليه . ولم يتم

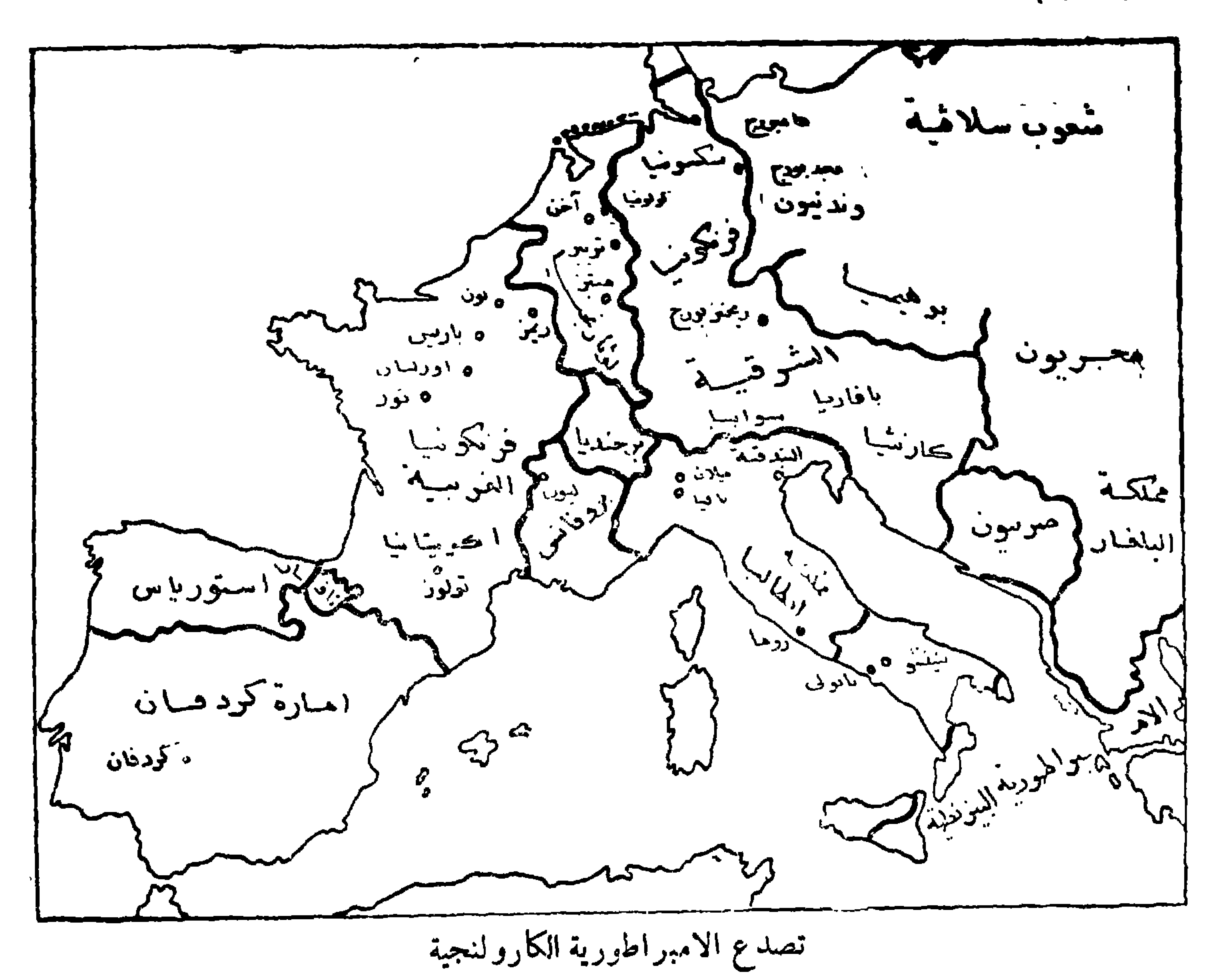
---

(١) شغل البابا نيقولا الأول الكرسي البابوى فى الفترة من سنة ٨٥٨ إلى سنة ٨٦٧ : وفيما يتعلق بآرائه وتصريحاته حول سيادة البابوية على القوى الزمنية فى الغرب ، أنظر كولتون : نفس المرجع السابق ، ص ٢٠١ و ٢٢٤ و ٢٢٧ ؛ انظر ايضا ص ٤٧ من هذا الكتاب ـ المترجم .

(٢) كان البابا فورموزوس Formosus قبل توليه الكرسى البابوى يعرف باسم جى اوف سبوليتو . وقد شغل المنصب البابوى فى الفترة من سنة ٨٩١ إلى سنة ٨٩٦ — المترجم .

(٣) نجد مثلا واضحا لذلك فى تحالف كريسنتيوس السناتور الرومانى مع الامبراطور البيزنطى بازيل الثانى ضد امبراطور الغرب اوتو الثالث فى اواخر القرن العاشر : وللمزيد من التفاصيل انظر La Monte, op. cit., 142, 177 f., 180 المترجم .

خريطة رقم (٩)



تصدع الامبراطورية الكارولنجية

إنجاز شيء فى كافة المجالات المادية والمعنوية ليس بوسع الملكية القيام به : وليس هنـاك شيء يجب أن ننسبه إلى بقـاء اللقب الامبراطـورى وحيازته .

ومع ذلك ، فبعد مضي أقل من أربعين عاما ، استحوذ أوتو الأول على المنصب الامبراطورى الذى كان قد انتهى فعلا غير مأسوف عليه فى عام ٩٢٤ . وبعد ذلك تعاقب الاباطرة طوال ثلاثمائة عام دون انقطاع . ويحق أن نتساءل : هل كان أوتو يتطلـع الى منصب فارغ لا معنى له ، لو أن ما ذكرته كان صحيحا ؟ وردا على ذلك نعود مرة أخـرى إلى الوراء ، وبالتحديد الى أواسط القرن التاسع . لقد عرف الفرنجـة الشيء القليل عن الامبراطورية الرومانية . وكانوا أقل اهتماما بها . إلا أنه كان لهم منذ عام ٨١٣ امبراطور من بينهم : ولم يكن هناك مناص من السعى إلى اضفاء معنى ومغزى على امبراطوريتهم فى عبارات يفهمونها : تماما مثلما فعـل لويس الصالح فى فترة مبكرة ، والبابوات فى أيامهم تلك . وبوسعنا أن نتبين وجهة نظرهم بوضوح فى تلك الفقرات التى حاول فيها كتاب القرن التاسع ـ إرضاء لذواتهم ـ تفسير المنصب الامبراطورى الذى تمتع به شارلمان : لقد اعتقدوا أنه كان امبراطورا لأنه كان حاكما على عدد من الشعوب . ولم تكن نظريتهم ، بطبيعة الحال ، تستند إلى أسس تاريخية ، شأنها فى ذلك شأن النظرية البابوية . وباختصار فقد كانت «امبراطوريته» قائمـة على الغـزو والفتح . وقد أوجد النزاع بين المدعين الكارولنجيين المتنافسين أرضا خصبة لم تلبث أن استقرت فيها مثل هذه الأفكار والآراء .

وقيل إن شارل الجسور (١) كان قد أعلن نفسه «امبراطورا وأوغسطس»

---

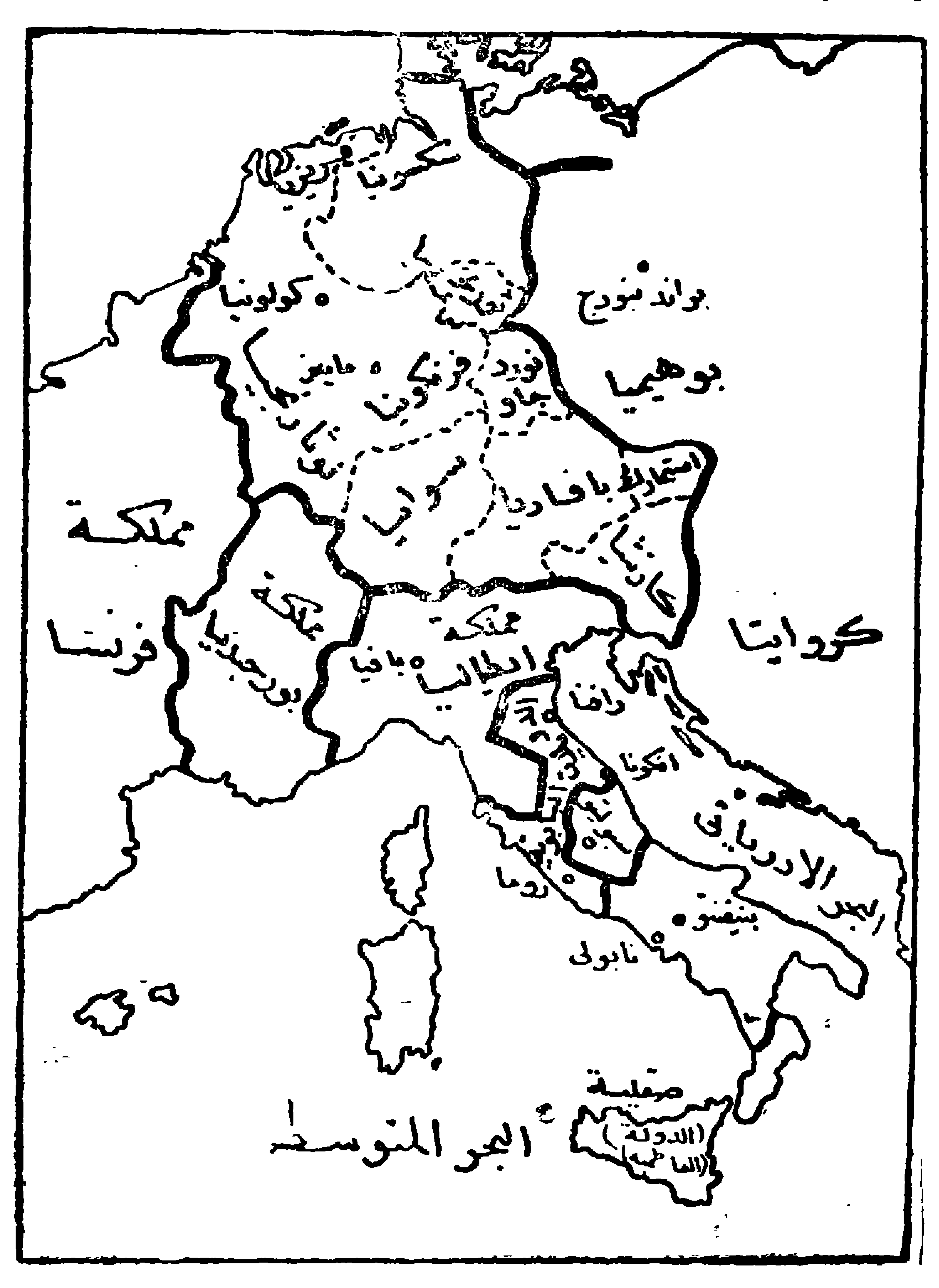
(١) شارل الجسور هو ابن لويس الصالح ، وقد حكم من سنة ٨٤٣ الى سنة ٨٧٧ ـ المترجم .

"emperor and augustus" عندما غزا مملكة اللورين عام ٨٦٩ ، وكان ذلك قبل تتويجه امبراطورا فى روما بست سنوات . والسبب فى هذا أنه كان حاكما على مملكتين . ووجه الشبه واضح بين « السيد الآمر » الانجلو سكسونى الذى كان يعرف باسم «برتوالدا» Bretwalda (١) وبين « أباطرة » أسبانيا واسكنديناوه . إنها فكرة عن امبراطورية لا شأن لها بروما على الاطلاق ، سواء أكانت روما القديمة ، أم الامبراطورية الرومانية التى كانت قائمة فى القرن التاسع ، أم روما التابعة للبابوية . وعندما انهارت الامبراطورية الفعلية التى سلمها شارل ولويس لخلفائهما، عاشت تلك الفكرة أولا لأنها كانت قد تأصلت جذورها فى أذهان الناس ، وثانيا نتيجة لاستمرار الأحوال والظروف السياسية التى أمدتها بالقوة والثبات. وكانت تلك هى الحلقة التى ربطت بين « امبراطورية » القرن التاسع و « امبراطورية » أوتو الأول . ولم يتخل اوتو الأول فى

---

(١) كانت انجلترا حتى الغزو الدانى الكبير (٨٦٥-٨٧٨) مقسمة إلى عدة ممالك : وكانت الممالك الواقعة جنوبى الهمبر ، لفترات طويلة ممتدة ، تحت حكم سيد آمر عرف ، وفقا لمصادر موثوق به يرجع الى القرن التاسع باسم « برتوالدا Bretwalda » ، أى حاكم بريطانيا . ولم يكن هذا مجرد لقب أجوف . فقد كان أتباعه من الملوك يدفعون له الجزية ، ويحضرون مجالسه من وقت لآخر . كما كان عليهم الحصول على موافقته على الهبات التى يمنحونها من الأرض، ويحاربون تحت لوائه زمن الحرب أنظر عن ذلك Whitelock, op. cit., 48 - المترجم .

خريطة رقم (١٠)



الامبراطورية الغربية في القرن العاشر

سياسته قط عن الخطوط التي وضع أسسها الكارولنجيون المتأخرون . لقد امتدت سلطته إلى الشرق والغرب والجنوب . وكان كل ما يعنيـه ، بصفة أساسية ، هو أن يضمن لنفسه نصيب الأسد فى المملكةالكارولنجيـة المشتتة ، وبخاصة أنقاض مملكة اللورين الوسطي . ولا تقدم سياستهفى هذا المجالأى جديد . وهي تطابق سياسة الكثيرين من الملوك الذين كافحـوا فى سبيل الحصول على منصب « رفيع » ، وهم يجمعون فتات الأراضى الكارولنجية . ولم يكن حصوله على روما وعلى المنصب الامبراطورى ، سوى قمة سياسية ضمنت له السيطرة على لوثارنجيا وبرجنديا ؛ كما خضعت لمباردیا تحت حكمه . وتم بذل جهد كبير لإيضاح الدور الذى قامت به الامبراطورية فى سياسة أوتو . وقيل بحق إن النتيجة الوحيدة لذلك هى إبراز « أن مثل هذا الدور لم يكن له وجود فى الواقع » . إن الفكرة القديمة القائلة بأنه كان يسعى إلى إحياء سيادة شارلمان إنما تخالف الحقيقة . لقد ظل القسم الغربي من أراضى الفرنجة ، بصفة دائمة ، خارج نطاق الامبراطورية . ولم يطالب أحد إطلاقا بالسلطة أو السيادة أو حتى بمـركز سام على تلك الأراضى . فلم تـكن امبراطورية أوتو رومانية من حيث النية أو الواقع . لقد كان لقبه التقليدى هو « الامبراطور العظيم » « imperator augustus » ، ولم يرد ذكر روما فيه وكان هذا اللقب مجرد منصب شخصى فحسب فهو لم يؤد إلى توحيد أراضيه بالمرة فى وحدة واحدة ، بأكثر مما فعله اللقب الامبراطورى الذى تمتع به شارل العظيم فى عملية توحيد أراضيه فى امبراطورية واحدة : وبعد عام ٩٦٢ ظل أوتو - كما كان من قبل - ملكا على كل من ألمانيا ولمبارديا. وقد أضفي عليه منصبه الامبراطـورى احتراما ، فضـلا عن حكم دوقية روما الصغيرة . ولكن ليس هناك ما هو أبعد من ذلك . وها نحن الآن نعود

مرة أخرى ، على وجه التقريب ، حيث كان شارل فى عامى ٨١٢ و ٨١٣ . ولكن امبراطوريته كانت فى هذه المرة على أساس اقليمى أكثر انكماشا ، ولم يكن يدخل فى نطاقها القسم الغربى من أراضى الفرنجة وغيرها من الدول النامية فى غرب أوروبا ووسطها .

ولقد أدى تدخل أوتو الأول فى شئون ايطاليا وتتويجه فى روما عام ٩٦٢ ، إلى نتيجة واحدة بالغة الأهمية . إذ جعله هذا التدخل وجها لوجه أمام الامبراطورية الرومانية ، وتم ذلك فى وقت كانت فيه الامبراطورية الرومانية آخذة فى الصعود والاستعداد للتوسع والعودة إلى الغزو تحت قيادة نقفور فوكاس (١) وبازيل الثانى (٢) . ويعتبر الصراع الذى

---

(١) أنظر ص ١٤٦-١٤٨ ح ١ من هذا الكتاب - المترجم.

(٢) بعد موت الامبراطور حنا زمسكيس سنة ٩٧٦ ، قام أبناء رومانوس الثانى وهما بازيل الثانى وقسطنطين الثامن بحكم الدولة مشاركة . وقد اكتفى ثانيهما بأبهة اللقب الامبراطورى ، تاركا الحكم ومسئولياته لأخيه بازيل الذى قضي عهده الطويل (٩٧٦ - ١٠٢٥) فى حروب تكاد لا تنقطع ضد جيرانه الروس والبلغار والعرب ، والتي كانت تنتهى فى الغالب لصالحه. وفيما يتعلق بموقفه حيال ايطاليا البيزنطية ، فقد كان موفقا فى إحداث ما أراد من تغيير في نظم الحكم بها ، فى وقت كانت فيه الامبراطورية الرومانية الغربية مشغولة فى أواخر القرن العاشر بهجمات العرب عليها ، مما حال بينها وبين تحقيق اطماعها الواسعة فى ايطاليا على حساب البيزنطيين . ولكن واجه مركز بيزنطة فى ايطاليا خطر جديد منذ أواخر القرن العاشر فصاعدا، ونعني به الخطر النورمانى . وكان النورمان قد وصلوا إلى ايطاليا كجند مرتزقة يعملون في خدمة أى أمير مقابل المال الذى يغدقه عليهم . ولم يكونوا مصدر خطر على بيزنطة في أول الأمر ، وهي التي كانت تستخدمهم =

ترتب على ذلك حدثا خطيرا فى تاريخ الامبراطورية الغربيـــة إذ كانت هناك عوامل أدت إلى ما نحن بصدده . من ذلك المخــاوف من التـــدخل البيزنطى فى السياسة الرومانية ، والمطالب موضوع الـــنزاع بين القـــوى المتنافسة فى إيطاليا . ثم الرغبة فى انتزاع لقب على الأراضى التي بيد العرب والتي يحتمل معاودة غزوها . كانت هذه هى العوامل التي أدت إلى تحويل الامبراطورية الغربية إلى امبراطـــورية « رومانية » ، بمعني « أرومتها » أى جعلها رومانية الصبغـــة والطابع . ولم يـــكن اوتو الأول أكثر من « الامبراطور العظيم » 'imperator augustus' . ولكى يعزز أوتو الثانى (١) إدعاءاته ضد بازيل الثانى ، فقـــد غدا « الامبراطور الرومانى » " Roman emperor " . وما أن تقلد اللقب المذكور حتى أصبح ملازما له لا يفارقه .

= فى جيوشها للقضاء على العناصر المتمردة . وكان بازيل الثانى يأمل فى أن يذهب يوما ما إلى إيطاليا للقضاء على أطماع الامبراطورية الغربية فيهما ، وإجلاء العرب من البلاد التي استولوا عليها هناك . ولـكنه توفى سنة ١٠٢٥ وهو فى الثامنة والستين بعد حكم طويل حافل بالأعمال الكبيرة فى الداخـــل والخارج ، التى جعلت من بيزنطة دولة عظمى آنذاك . أنظـــر عن ذلك Ostrogorsky, op. cit., 264 ff.; Baynes & Moss, op. cit., 23—4; Diehl, L'empire byzantin, 104 ff.; Bloy, Constantinople et Byzance, 151—201 - المترجم .

(١) أوتو الثانى من أباطرة الأسرة السكسونية ، حكم من سنة ٩٧٣ إلى سنة ٩٨٣ : وهو ابن اوتو الأول ابن هنرى الأول الصياد مؤسس الأسـرة . وقد خرج عليه أثناء حكمه دوق بافاريا ، وتحالف ضده مع دوق بوهيميا وغيره من الدوقات : ولم يتمكن أوتو من إخماد الثورة الا بعـــد خمس =

ولتقدير مدى التسلل البيزنطى ، فقد تبنى اوتو الثالث (١) ، بالإضافة إلى ما تقدم ، الأفكار السائدة بين صفوف الارستقراطية الرومانيـة عن « نهضة » روما بما يتفق ومصالحه الخاصة : وإن ما نعرفه الآن إنما هو المعنى والغاية العملية لسياسة اوتو الثالث « الرومانية » التى صرف النظر عنها ذات مرة بوصفها سياسة خيالية ضعيفة نابعة من عقلية شاب سريع التـأثر سهل الانقياد . ومع ذلك لم تكن الامبراطورية نفسها رومانية حتى فى عهد أوتو الثالث . وفى عهد خلفه هنرى الثانى (٢) ، كنا عنـدما نجـد عبـارة

= سنوات . ومن أهم ما قام به حملته على جنـوب ايطاليا خـلال عامى ٩٨١ — ٩٨٢ بقصـد اجلاء العـرب عنها وإضعاف سلطة بيزنطـة فيها ، وانتهت تلك الحمـلة بهزيمـة شديدة لحقت به . أنظر لانجر : موسوعة تاريخ العالم ، ج٢،ص٤٤٤ ، وكذلك La Monte, op. cit., 175-6 المترجم.

(١) أنظر ص١٨١-١٨٢ ح٢ من هذا الكتاب ـ المترجم .

(٢) هنرى الثانى من أباطرة الأسرة السكسونية بألمانيا . حكم من سنة ١٠٠٢ إلى سنة ١٠٢٤ . وهو ابن هنرى رانجلر دوق بافاريا وابن عم اوتو الثالث وحفيد هنرى الصياد . وتم تتويجه امبراطورا فى روماسنة ١٠١٤ . واشتهر بالزهد والورع والتقوى ، كما كان سياسيا حازما . وقد ركز اهتمامه على النهوض بألمانيا وتعزيز سلطته فيها ؛ فأمر بأن تبقى الاقطاعات الكبيرة وراثية . واعتمد على طائفة رجال الدين لامداده بالمستشارين ورجال الادارة . كما تطلع إلى الكنيسة لتقدم له المساعدات الحربية والمالية اللازمة، ومع ذلك فقد بسط سيطرته وهيمنته عليها . واهتم أيضا باصلاح الأديرة وصبغها بالصبغة العلمانية . أنظر لانجر : نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٤٤٥-٤٤٦-المترجم.

« الإمبراطورية الرومانيـــة » " imperium Romanum " في استعمال رسمي ، ندرك أنها إنمـــا تعني المنصب الامبراطوري فحسب : فليست « الامبراطورية » "imperium" أرضا ، ولكنها مجرد وظائف الامبراطور وسلطاته : وفي عهد الحاكم التالي ، وهـــو كونراد الثـــاني ، (١) بدأ اسم « الامبراطورية الرومانية » في الظهور في المراسيم بمعنى جديد، أي باعتباره اصطلاحا مجملا يتعلق بالأراضي الخاضعة لحكم كونراد .

لقد كان ذلك تجـــديدا عظيما له دلالته في أكثر من ناحية . فهو أولا له مغزاه ، لأنه لم يوجد حاكم في سلسلة الأباطرة ، اعتبـارا من اوتو الأول فصاعدا ، كانت سياسته أكثر حزما وواقعية من سياسة كونراد الثاني وإن تلك التسمية الرومانية التي ظهرت أول ما ظهـرت في عهده ، هي في حد ذاتها دلالة كافية على أنه لم يتبن تلك السياسة للتعبير عن إحياء ادعاءات ومطالب « عالمية » universal تتعلق بروما القديمة ، بل من أجل أسباب عملية خاصة بالدبلوماسية والسياسة الخارجية : ثم أن تلك التسمية لها مغزاها ، من ناحية ثانية ، لأنها تعني أنه منذ عهد كونراد الثاني كانت قد رسخت الامبراطورية أخيرا في شكل كتلة إقليمية . ولم تعد طويلا مجرد لقب أو منصب يمكن انتقاله من حاكم إلى آخر حسب الرغبة ، مثلما عرض على ملك فرنسا أولا ، ثم على وليم دوق اكويتانيا (٢) بعد وفاة هنري الثاني عام ١٠٢٤ .

وعلى العكس من ذلك ، نجد أنه منذ حوالي عام ١٠٢٤ ، أصبحت تلك هي

---

(١) أنظر ص١٨١ ح١ من هذا الكتاب ـ المترجم .

(٢) عن وليم دوق اكويتانيا ، انظر كتاب La Monte, op. cit..193,584 المترجم .

التسمية الرسمية التي تطلق على كافة الأراضي المتعددة الخاضعة لحكم الامبراطور . وهذه الأراضي هي ، المانيا وبرجنديا وايطاليا . ومنذ ذلك الحين أصبحت المانيا وبرجنديا وايطاليا ممالك مستقلة ، لا يربطها ببعضها سوى ذلك الرباط الشخصي لحاكم مشترك لها . وهكذا غدت أجزاء تابعة لامبراطورية واحدة . وكانت هذه الرابطة ، منذ عام ١٠٤٠ ، قد توثقت عراها . وظلت باقية بادخال اللقب الجديد « ملك الرومان » "King of the Romans" بوصفه لقب الامبراطور المنتخب قبل تتويجه ، أو من أجل خليفة الامبراطور المعين .

وقد أدى إقامة « ملك على الرومان » إلى تسوية مسألة التعاقب على الحكم بصفة نهائية . وحال هذا دون قيام أي محاولة أخرى لفصم الصلة بين المنصب الامبراطوري والأراضي المرتبطة به منذ عهد اوتو الأول ، مثلما حدث في عام ١٠٢٤ . لقد ارتبطت الوظيفة الامبراطورية بالأرض للمرة الأولى والأخيرة ، مما إدى إلى وجود خليط من الأراضي . وهكذا سجل حكم هنري الثالث (١) ، في هذا الخصوص ، كما هو الحال في كثير من المجالات الأخرى ، مرحلة حاسمة . وللمرة الأولى خلال قرنين ونصف من الزمان ،

(١) هنري الثالث من الاباطرة السالبين ، حكم في الفترة الممتدة من سنة ١٠٣٩ إلى سنة ١٠٥٦ . وهو يعرف باسم هنري الاسود . وقد بلغت السلطة الامبراطورية أوجها في عهده . كان مصلحا ، واحتفظ بقبضته الصارمة على الكنيسة . ويعتبر في الواقع من أقوى الأباطرة الألمان ، بتأكيده السيطرة على بولندا وبوهيميا والمجر ، وكذلك تأكيد الحق الامبراطوري في التعيين لمنصب البابوية بانتخاب كليمنت الثاني للبابوية . ويعتبر كذلك الأول في سلسلة من البابوات الالمان المصلحين . انظر لانجر : نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٥٦٦ — ٥٦٧ ؛ وكذلك La Monte, op. cit., 179—81 — المترجم .

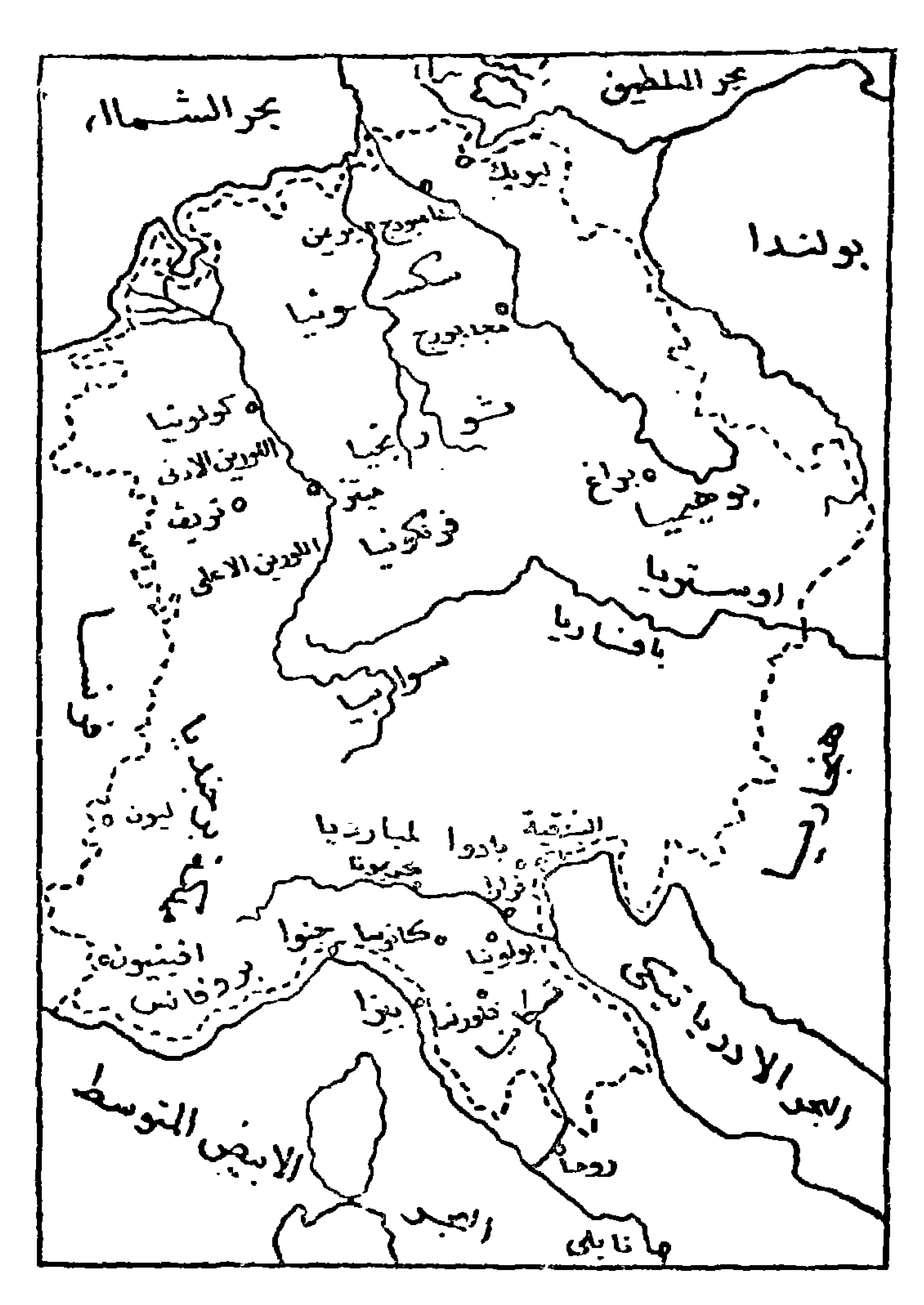
يسدل الستار عند نهاية حكمه على عمل قاطع محدد .

لقد فقدت « الامبراطورية » طابعهـــا المشوش المهزوز ، وحاجتها إلى معنى وغاية محددين ، تركا أثرهما فى تاريخها منذ عام ٨١٢ . وكانت قــد تكفلت بالمعنى الذى احتفظت به منذ ذلك التاريخ حتى نهاية عهــد أسرة هوهنشتاوفن (١) . وأصبح للامبراطورية الآن طابعها المميز . كما أصبح لها سلطة اقليمية حقيقية محددة واضحة المعالم . وهذا هو الوضـــع الذى لا مزيد عليه . ذلك أنهـا لم تمتد فيما وراء حــدود المانيـا وبرجنديا وايطاليا :

---

(١) حكم السكسون ومن بعدهم الساليان ، ثم أسرة هوهنشتاوفن الألمان التى امتد حكمها من سنة ١١٣٨ الى سنة ١٢٦٨ . وقد عرفت الأسرة بهذا الاسم نسبة إلى شتاوفن وهى قلعتها فى سوابيا . وكان آل هوهنشتـاوفن هم آخر الأباطرة الذين قاموا بمجهود جدى فى سبيل حكم ايطاليا ، وإن لم يصادفهم النجاح الذى كانوا يأملونه . فهم بهذا يعتبرون بحق أول الأسر الألمانيـــة الحاكمة التي أدركت ما يتضمنه التقليد الامبراطورى من الناحية التاريخية ، وما يعنيه القانون الرومانى بالنسبة للحق الامبراطـورى : وكان لسياستهم أثرها الواضح فى قيام النزاع مرة أخرى بين البابوات والأباطرة ، والذى كانت ايطاليا ميدانه . ولكنه كان ، فى هذه المرة ، صراعا عنيفا بين فكرتين متنافستين ، وهما الفكرة الروحية والفكرة السياسية . انظر عن ذلك لانجر : نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٤٧٠ ، وكذلك **Lodge, op. cit., 7; Taylor, op. cit., 5 ; H. A. Fisher, A History of Europe, (1960) I, 209, 251, 301, 413** - المترجم .

خريطة رقم (١١)



الامبراطورية الرومانية المقدسة

أيام أسرة هوهنشتاوفن

وليست لدينا فكرة عن مسألة الزعامة أو القيادة الأوروبية ؛ ومعلوماتنا أقل من ذلك فيما يتعلق بمسألة السيادة العالمية ؛ كذلك لم يكن هناك شيء مشترك بين الامبراطورية التي تم تشكيلها فى موكب التطور التاريخى ، وبين الكومنولث المسيحى أو الامبراطورية المسيحية imperium Christianum ، حسبما تصورها المفكرون الكنسيون ، سوى كرسيها فى روما .

هذه هى الحقيقة كاملة ، بما لها من أهمية بالغة فى تحديد مكان الامبراطورية الجديدة فى المجتمع السياسي فى العصور الوسطى ؛ ولعل هذه الحقيقة تفسر كذلك سبب عدم استقرار تلك الامبراطورية ؛ ولو كان هناك « نظام إلهى تتغلغل أسسه فى صميم طبيعة الأشياء وترتيبها » لحظى — حسبما قال برايس — بالرضاء العام فى اوروبا . وكان ذلك فى الغالب نتيجة لسلسلة من الظروف التاريخية الطارئة ، التى لم ترسخ وتستقر بحكم العادة والتقليد العريق . ومن ثم فإنها لم تكد تتكون حتي داهمتها التحديات . ولم يكن لها فى نظر الناس خارج حدودها اى دعوى أو مطالبة قدسية . وحتى فى داخل حدودها ، فقد عنت « الامبراطورية » بالنسبة للألمان الذين أفادوا منها ، شيئا أهم وأكثر مما هى بالنسبة لأهالى برجنديا وايطاليا ، الذين لم يغب عنهم إطلاقا الإحساس الدال على خضوعهم للألمان الغزاة ؛

لقد كانت الامبراطورية رومانية فى معناها الضيق المحدود ، حتى أنه لم توجد أى فكرة تتعلق بتأسيس امبراطورية المانية مستقلة عن روما حسبما كان يرغب الألمان ، لو كان أهالى برجنديا وايطاليا قد أذعنوا لذلك فى سهولة ويسر . ولكنها كانت إمبراطورية المانية فى جوهرها ؛ بمعنى أن تأسيسها يعكس قوة الملكية الألمانية ونفوذها فى اوروبا فى القرن الحادى عشر ، وواضح

أن مثل تلك الامبراطورية إنما كانت إنجازا مبتورا غير متكامل ، إن لم تكن فى الواقع عملا سلبيا ، للأفكار المتعلقة بالامبراطورية التي كانت سائدة فى الدوائر الكنسية ، والتي حددت بوجه عام اتجاه الرأى السائد . ولقد عكست قدرا كبيرا من السلطة السياسية . لكن ليس هناك من سبب يدعو إلى أن تؤدى الامبراطورية إلى تغيير ميزان القوى الذى مهد لها . وبوسعنا حقا ان نرى من موقف سوجر اوف سانت دنيس (١) Suger of St Denis أن « علوم

(١) سوجر رئيس دير القديس دنيس (١٠٨١ - ١١٥١) من كبار مستشارى لويس السادس ملك فرنسا . واستمر نفوذه خلال حكم لويس السابع أيضا . وتم تنشئته داخل الدير الملكى . وأثبت كفاءة عالية ، كما قدم خدماته للامبراطور قبل توليه رئاسة الدير . وبعد أن أصبح رئيسا للدير سنة ١١٢٢ ، قسم وقته وجهده بين واجبه كرجل دين وواجبه كوزير ملكى . وكان سوجر وصيا على العرش عندما قام لويس السابع بالحملة الصليبية الثانية (١١٤٧ — ١١٤٩) . وهو الذى شيد الكنيسة العظيمة الملحقة بدير القديس دنيس . كما أدخل بعض الإصلاحات فى الدير ، وفرض النظام بين الرهبان . وقام فى وقت فراغه بتدوين مذكراته عن فترة إدارته للدير ، وتاريخ حياة كل من لويس السادس ولويس السابع . ولا شك أنه يعتبر من كبار الوزراء الكنسيين فى فرنسا . كما كان خير سلف لكل من مزارين Mazarin وريشيليه Richelieu بعد ذلك بعدة قرون . كذلك كان لسوجر الفضل فى وضع موسوعة تاريخية هامة عرفت باسم « حوليات فرنسا الكبرى » Grandes Chroniques de France التى لقيت الشيوع والرواج فى وقتها ، وهى عبارة عن تجميع للمادة المتعلقة بملوك فرنسا ، التى أعدها وحافظ عليها من الضياع رهبان دير القديس دنيس . وقد بدىء فى إعدادها أيام سوجر ، واستمر العمل فيها حتى نهاية القرن الخامس عشر . انظر La Monte, op. cit., 296, 583 f. - المترجم.

الألمان الامبراطورية فيما وراء المادة ، لم تعد تجد لها مؤيدين فى الغرب » :
وظلت الفكرة القديمة المعارضة للامبراطورية بوصفها لقبا مستقلا عن أى مزيج
من الأراضي الاقليمية التى يمكن نقلها بحرية من حاكم إلى آخر حسبما رأينا ،
باقية حتى عام ١٠٢٤ ؛ ولم تختف اختفاء تاما :

وقد برزت هذه الفكرة من حين لآخر خلال سنى ١١١٢ و ١١٣٩-١١٤١
و ١١٦٣ ، دون أن تكون لها أية نتيجة أو فاعلية أو أهمية ؛ وإنما لتوضح
فى الغالب توضيحا كافيا أن المفهوم « الالمانى » عن الامبراطورية باعتبارها
وحدة اقليمية ، قد قام بواجبه كاملا ، وإن كان ذلك فى شيء من التحفظ :
وحقيقة الأمر أن الامبراطورية ظلت فى عهد فردريك الثانى (١)

---

(١) الامبراطور فردريك الثانى هو ابن هنرى السادس وحفيد فردريك بارباروسا امبراطور الدولة الرومانية الغربية المقدسة . امتد حكمه من سنة ١٢١٥ إلى سنة ١٢٥٠ . وامتاز بعلمه وسعة اطلاعه وتحرره من سلطان الكنيسة وقيودها . وقام بتقسيم أملاكه فيما وراء الألب بين أبنائه . واستقر هو نفسه فى جنوب ايطاليا ، حيث عمل على تعزيز سلطته بالقضاء على نفوذ البارونات ومحاولة إضعاف سلطان الكنيسة . ومما يذكر عن فردريك أنه تأثر بالثقافة المتحررة المتنوعة الأصول التي سادت تلك المنطقة من العالم ؛ وكان معجبا بعلم العرب وعاداتهم وأخلاقهم ، متسامحا ، يحترم جميع الأديان ؛ كما كان بلاطه موئلا للعلماء من المسلمين والمسيحيين على السواء . كذلك كان على علاقة طيبة بالحكام العرب ، وعلى رأسهم الكامل محمد سلطان مصر الايوبى الذى عقد معه سنة ١٢٢٩ معاهدة سلمية تنازل له فيها السلطان عن مدينة بيت المقدس دون حرب أو قتال . واستمرت تلك العلاقة =

كما كانت فى عهد كل من كونراد الثانى(١) وهنرى الثالث(٢) . وفيما عدا ذلك ، لم تكن هناك إطلاقا فكرة أخرى عن الامبراطورية أما خارج المانيا فقد كان تقبل تلك الفكرة ليس عن طريق الاقتناع . وإنما عن طريق قبول الأمر الواقع « de facto » . وقد صمدت الامبراطـــورية دون أى تحديات لسنوات قلائل فى أواسط القرن الحادى عشر . وتمتعت بفترة من الاستقرار لمدة لا تزيد عن جيل واحد . ثم وقفت موقف الدفاع عن نفسها خلال قرنين من الزمان دون انقطاع تقريبا ، مع اتخاذ مخـــرج تكتيكى وهجوم عنيف مضاد ؛ ولكن دون أن تتخطى فى الواقـــع الأسلوب الذى اتبعته.ولم تكن الامبراطورية ـ حسبما قيل فعلا ـ « من القوة بمثل ماظهرت به » . فقد اختل مركزها عندما تطورت الظروف السياسية وتغير ميزان القوى فى أوروبا . ولم يعد بوسعها فى نهاية الأمر المحافظة على كيانها إلا بعد بذل جهد مضاعف فى مواجهة معارضـــة البابوية والدول المتضامنة أو المتحالفة معها ، والتى لم تعترف إطلاقا بنفوذ الامبراطورية وسلطانها .

= الطيبة أيام الصالح نجم الدين أيوب . انظر ا . باركر : الحـــروب الصليبية (١٩٦٠) ، ص ١٤٢ وما بعدها ؛ جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين ، ص ٨١—٨٢ والحواشي . راجع ايضا La Monte, op. cit., 417—9, 476—7, 503—5; Baldwin, op. cit., 89—90, 106—7; C. H. Haskins, Studies in Mediaeval Culture (1929), ch. VI. 124—47 — المترجم .

(١) انظر ص ١٨١ ح ١ من هذا الكتاب ـ المترجم .

(٢) انظر ص ٢٢٤ ح ١ من هذا الكتاب ـ المترجم .

وجدير بالملاحظة أن البابوية فى عهد أسرة اوتو لم تقم بأى دور فى تشكيل الافكار والآراء المتعلقة بالامبراطورية وتطويرها ، وذلك باستثناء فترة بابوية سيلفستر الثانى فقط (١). وكانت وجهة نظر البابوية عن الامبراطورية، المبنية فى جوهرها فى عهد نيقولا الأول(٢)، قد كفت — كما رأينا — عن أن تحسب متى وقع الكرسى البابوى تحت سيطرة « السلطة العلمانية » الرومانية . كما فتح إصلاح البلاط البابوى وإحيائه بفضل الأباطرة الألمان فى القرن الحادى عشر ، الباب لإمكانيات جديدة . وانتقل عنصر المبادأة فى غضون سنوات قلائل إلى أيدى البابوات . وكان ذلك منذ وفاة هنرى الثالث . وبوسعنا أن نعتبر الهجوم المضاد التالى فى عهد جريجورى السابع(٣)

(١) شغل البابا سيلفستر الثانى الكرسى البابوى فى الفترة من سنة ٩٩٩ إلى سنة ١٠٠٣ - المترجم .

(٢) انظر ص ٢١٤ ح ١ من هذا الكتاب — المترجم .

(٣) ظل البابا جريجورى السابع فى الكرسى البابوى من سنة ١٠٧٣ إلى سنة ١٠٨٥ . كان راهبا من أصل توسكانى اسمه هيلدبراند . وكان طموحا عريض الآمال حتى لقد اتهمه اعداؤه بحب السيطرة والسيادة . وفى عهده بدأ الكفاح العنيف بين البابوية الامبراطورية على الأمور الدنيوية . وكان يجلس على العرش الامبراطورى وقتذاك صبي صغير هو هنرى الرابع . فانتهز جريجورى السابع الفرصة لإعلاء شأن البابوية على منافستها الامبراطورية ، تمشيا مع السياسة التى كان قد رسمها جريجورى الكبير فى القرن السادس فيما يتعلق باستقلال البابوية دينيا وسياسيا على حساب الحكام والأمراء العلمانيين فى الغرب . وفعلا قام النزاع سافرا بين جريجورى وهنرى سنة ١٠٧٥ عندما خلع أتباع هنرى البابا جريجورى وعينوا بابا مناهضا له . بينما رد البابا =

بمثابة رد فعل لما تعرضنا له من موضوعات.ونعني بذلك ثبات الحدود واستقرارها ، وانتظام التعاقب على العرش فى المنصب الامبراطورى ،الأمر الذى حرم البابا من بسط نفوذه الفعال على شخص الامبراطور ، مثلما كان يمارسه فى القرن التاسع وكان ذلك أيضا نتيجة لتطورات جوهرية فى عالم السياسة . وكان تدهور الامبراطورية الرومانية فى الشرق بعد وفاة بازيل الثانى(١) يعنى أن البابا أصبح بوسعه ، بعدأن زال التهديد من هذه الناحية ، أن يتخذ موقفا أكثر استقلالا فى معاملاته للامبراطور فى الغرب. كما كان ظهور النورمان فى البحر الابيض المتوسط عاملا آخر فى نفس

= بحرمان هنرى وأتباعه . وأعقب ذلك نشوب الحرب بين عاهلى المسيحية ، التى انتهت بانتصار البابوية وإذلال الامبراطورية فى حادثة كانوسا الشهيرة فى تاريخ الكنيسة والبابوية خاصة ، وفى تاريخ اوروبا الوسيط بصفة عامة . ويقال إن البابا جريجورى السابع كان قد فكر جديا فى فترة بابويته فى إرسال حملة صليبية من مسيحيي الغرب إلى الشرق بحجة الدفاع عن بيزنطة ضد السلاجقة ، لولا النزاع الذى قام بينه وبين الامبراطور الألمانى ، مما حال دون تحقيق هذا المشروع الذى ترك لخلفه البابا اربان الثانى أمر إخراجه إلى حيز التنفيذ . انظر عن ذلك جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين، ص ١٤٩ - ١٥٠ ؛ و« الدافع الشخصى فى قيام الحركة الصليبية » (١٩٦٣) ، ص ٢٠١ ؛ فشر : نفس المرجع ، ج ١ ، ص ١٤٤ وما بعدها ؛ وكذلك **Runciman, A Hist. of the Crusades, I, 198—9; Daniel—Rops, L'église de la Cathédrale et la Crois. (1952), 541—2; Baldwin, op. cit., 36—41.** — المترجم .

(١) انظر ص ٢٢٠ ح ٢ من هذا الكتاب ـ المترجم .

الاتجاه . ويعتبر الانشقاق الديني بين الشرق والغرب عام ١٠٥٤ (١) بمثابة نقطة تحول فيما نحن بصدده .

وبعد ذلك بسنوات قلائل استخدم جريجوري السابع ضد أباطرة الغرب

---

(١) يعتبر الانشقاق الديني الكبير سنة ١٠٥٤ بين الكنيستين الشرقية والغربية من الأحداث الخطيرة التي كان لها أكبر الأثر في التاريخ البيزنطي، وفي تاريخ العلاقات بين العالمين اللاتيني والاغريقي ، وفي تاريخ المسيحية كلها . وقد أشار الى هذه القطيعة المؤرخ ستيفن رنسيمان باعتبارها وصمة عار في جبين المسيحية . وسببها أن بطريق القسطنطينية وقتذاك وهوميخائيل كيرولاريوس Michael Cerularius ، كان يسعى أن يكون امبراطورا وبطريقا تشبها ببابا روما . واختار أواخر أيام الامبراطور البيزنطي قسطنطين التاسع للقيام بحركته الانفصالية . ذلك عندما أعلن أن البابوية أصبحت أداة مسخرة في يد الدولة النورمانية الجديده ؛ وأنها تحاول إزالة سيادة بيزنطة عن جنوب ايطاليا بتأييدها لأطماع النورمان في هذه المنطقة وأنه ضمانا لمصلحة بيزنطة يحسن أن تكون كنيستها مستقلة بشئونها . وفي سنة ١٠٥٣ أرسل البطريق البيزنطي إلى أساقفته خطابا يهاجم فيه بابوية روما وتقاليدها ؛ واعتبرهذا بمثابة إعلان الحرب على البابوية . وكان يجلس على الكرسي البابوي وقتذاك البابا ليو التاسع الذي كان يهدف إلى إعلاء النفوذ البابوي ، وتقوية مركز البابوية والكنيسة اللاتينية في الغرب ليكون لها دور فعال في توجيه السياسة الأوروبية وفي السيطرة على الغرب باسم الدين . ولما كانت مسألة انفصال الكنيسة البيزنطية عن بابوية روما فيها تحد صريح لنظرية عالمية البابوية وسيادتها على باقي الكنائس المسيحية ، والمعروفة بنظرية « السيادة البطرسية » ، فقد بادر ليو التاسع بارسال خطاب يعلن فيه أحقية سيادة الكنيسة الغربية على الكنيسة الشرقية . واستطاع البابا الروماني القضاء على حركة البطريق البيزنطي ، =

الأسلحة التى ابتدعها ليو التاسع . (١) وليس هناك داع لترديد الحديث حول ما يطلق عليه الصراع العلمانى . ويكفى القــول بأن هذا الصراع قد ســجل نهضة قامت على أسس مادية أقوى بكثير من النظرية البابوية عن الامبراطورية. ويرى جريجورى السابع أن الامبراطورية هى ذراع الــكنيسة العلمـانى ؛ وهذه النظرية لا تقل فاعليتها عما سبق ، بسبب تأثيرها الشديد على ســلسلة الوقائع والأحداث التاريخية التي تتبعناها بكاملها . ولا يقل رد الفعل الذى أثاره الهجوم البابوى عن ذلك فى مغزاه ودلالته . وكانت النتيجة هى الضغط على الامبراطور للبحث عن أسس جديدة يواجه بها هـذا الهجوم العنيف ، عوضا عن الأسانيد التى كان يرتكز عليها . فلجأ إلى وسائل دفاع أخرى ، وتشبث بأسلحة جديدة يواجه بها البابوية . وكان القانون الرومانى هو السلاح الأول من بين تلك الأسلحـــة . ولم يتأخر هنرى الرابع (٢) فى

= عندما نجح فى استمالة الامبراطور البيزنطى إلى جانبه فى دعواه . ولكن العمر لم يمتد بليو التاسع ، فتوفى سنة ١٠٥٤ ؛ وخلا مركز البابوية لمدة ســنة . فانتهز ميخائيل كيرولاريوس هذه الفرصة ، ونجح فى اجتذاب كبار رجال الكنيسة الشرقية ، ولا سيما انطاكية إلى جانبه . واضطر الامبراطور البيزنطى إلى الخضوع لآرائه . وأعلن رسميا فى مايو سنة ١٠٥٤ بكنيسة سانت صوفيا بالقسطنطينية أن الكنيسة الشرقية أصبحت مستقلة بشئونها استقلالا تاما عن الكنيسة اللاتينية فى روما . انظر عن ذلك : Ostrogorsky, op. cit., 296 ff ; Runciman, Byzantine Civilisation, 124; Baldwin, op. cit., 96 – 8 ـ المترجم .

(١) جلس البابا ليو التاسع ، المعروف باسم البابا الرحالة ، على الكرسي البابوى فيما بين عامى ١٠٤٩ و ١٠٥٤ . أنظر الحاشية السابقة ــ المترجم .

(٢) هنرى الرابع من الأباطرة الساليين ، وقد حكم من سنة ١٠٥٦ إلى سنة ١١٠٦ . وكان عمره ٦ سنوات عندما أصبح امبراطورا . وكانت الوصية =

إقامة علاقات مع بطرس كراسوس (١) Peter Crassus وغيره من المتخصصين فى « مدرسة » رافنا . وترتب على ذلك ظهور فكرة جديدة أكثر سموا وحماسا عن الامبراطورية ومعناها . وإن هذه الفكرة التى ترجع أصولها إلى عهد جستنيان مع الاستعانة بكل ما هو نافع ومفيد من موسوعة القانون الرومانى (٢) ، إنما تمثل إحدى القوى التي تقف وراء الواجهة الرائعة

= عليه فى فترة قصوره هى أمه اجنس اوف بواتو Agnes of Poitou. وانتهز كبار العلمانيين والدينيين هذه الفرصة ، فانتزعوا لأنفسهم حقوقا فى السيادة دون أن يكون هناك من يكبح جماحهم . واعتبرت هذه بمثابة ضربة قوية موجهة للملكية الألمانية . وفى سنة ١٠٦٢ اختطف انو رئيس أساقفة كولونيا الامبراطور الصغير ، واشترك مع ادالبرت رئيس أساقفة هامبورج — بريمن فى الحكم باسمه ، واقتسما الأديرة فيما بينهما . وفى سنة ١٠٦٦ تحرر هنرى من ادالبرت ، وكان هذا بداية حكومته الشخصية . وقد عرف عن هنرى أنه رجل موهوب ذكى متهور . وقامت سياسته على نفس الأسس التى وضعها اوتو من حيث استغلال الكنيسة كمصدر للدخل . كذلك أخذ فى استعادة الاراضى الملكية وتنظيمها ، وخاصة فى سكسونيا ؛ وعمل جاهدا على تقوية الملكية فى المانيا . وجدير بالذكر أنه قام فى عهده النزاع المعروف فى تاريخ العصور الوسطى بين البابوية والامبراطورية حول مسألة التقليد العلمانى ، والذى انتهى باذلال البابا جريجورى السابع للامبراطور الألمانى فى حادثة كانوسا الشهيرة . أنظر La Monte, op. cit., 256 — 60 - المترجم .

(١) فيما يتعلق ببطرس كراسوس وآرائه ، أنظر Lewis, Med. Political Ideas, I. 141, II. 512 - المترجم .

(٢) استقر عزم جستنيان على إعادة تنظيم وتنسيق القوانين الرومانية ، =

التي نطلق عليها « امبريالية هوهنشتاوفن » . وهذا يفسر لنا مر تبنى فردريك الاول (١) فى عام ١١٥٧ للقب المقــدس epithet Sacrum التـالى ، وهو «الامبراطورية المقدسة » وتم استخدام العبارات القديمة التى تتميز بجلالها لأهميتها فى الدعاية للامبراطورية فى نضالها ضد الكنيسة . ومن ثم أصبحت الامبراطورية

= وعمل حصر شامل لها بما يتلائم والظروف الجديدة . فشكل عـددا من اللجان برئاسة مشرعه تريبونيان للقيام بهذه المهمة . وأثمر عمل اللجنـة عن إصدار مجموعة القوانين المدنية عام ٥٢٩ التى عرفت باسم «Corpus Juris Civilis Justiniani » وهى تعتبر من الأعمال الخـالدة التي تمت فى عهد جستنيان ، ومن أهم آثاره وأبقاها . وقد وضعت هذه المجموعة على أسـاس تشريعات جرجوريانوس وهيرموجينيانوس وثيودوسيوس فضلا عن قوانين الأباطرة المتأخرين ومؤلفات كبار المشرعين القدامى . وهكذا حفظ جستنيان للاجيال التالية آراء الثقات التى تدور حول المبادىء القانونية التى قامت على أساسها الدولة الرومانية القديمة . وتنقسم المجموعة المذكورة إلى ثلاثة أقسام: الأول ويتضمن الأحكام الامبراطورية والمراسيم والقرارات والاستفتاءات القانونية الصادرة عن مجلس السناتو « Senatus consulta » . والثانى ويعرف باسم « Institutes » وهو كتاب مختصر فى أصول التشريع الرومانى ؛ والقسم الثالث ويعرف باسم شرح القوانين أو الديجست « Digest » ، ويتضمن القوانين المدنية بأكملها وعليها شروح الشراح والمفسرين . وظهرت فى هذه المجموعة الأخيرة أصالة جستنيان الحقيقية . إذ تعتبر أكبر الوثائق التشريعية التي تمخض عنها حكمه . كما أنها تعتبر حجة فاصلة فيما يتعلق بكافة المسائل القانونية . ونشر جستنيان قبل موته بعامين مجموعـة أخرى عرفت باسم القوانين الجديدة « Novellae » وهى عبارة عن ترجمة مختصرة لقوانين جستنيان باليونانية . وتظهر فى هذه المجموعـة الأخيرة إدماج الروح المســيحية فى التشريعات الرومانية الوثنية القديمة . أنظر عن ذلك Runciman, op. cit., 74—5; Barker, op., cit., 75-6; Ostrogorsky, op. cit., 51—2, 69—70 . المترجم.

(١) فردريك باربار وسا هو امبراطور الدولة الرومانية الغربية المقدسة. حكم من سنة ١١٥٢ إلى ســنة ١١٩٠ . وفيما يتعلق بأعماله وتاريخ حياته ، أنظر فشر : نفس المرجع ، ج ١ ، ص ١٩٣ ، وما بعدها وكذلك La Monte op. cit., 267—74; Cantor, op. cit., 242-8; Machiavelli, op. cit., 22—4 ـ المترجم .

هى «الامبراطورية المقدسة» sacrum imperium ، حتى يتسنى لها الوقوف على قدم المساواة مع الكنيسة المقدسة Sancta ecclesia .

ويجب عدم المبالغة فى أهمية مثل هذه البدع والأمور المستجدة المستحدثة . كما يجب الا نفترض أن بلاغة رينالد اوف داسل (١) Rainald of Dassel أو أشعار اركبويت (٢) Archpoet المبالغ فيها ، تعكس المبادىء التي كانت على أساسها تساس الامبراطورية ، بأكثر مما ينبغى أن نفترض أن القانون الرومانى كان المصدر الوحيد أو الرئيسي فيما يتعلق بأفكار آل هوهنشتاوفن عن الامبراطورية . وتعتبر الامبراطورية الرومانية الشرقية تحت حكم أسرة كومنين (٣) مثالا له أهميته الكبرى . وبالمثل كان شأن آراء

---

(١) كان رينالد اوف داسل اعتبارا من سنة ١١٥٦ وزيرا ومستشارا للامبراطور فردريك باربروسا . وقد شغل منصب رئيس أساقفة كولونيا فى الفترة من ١١٥٩ إلى ١١٦٧ . وكان يعتبر اليد اليمني للامبراطور الألمانى. أنظر Heer, Med. World , 154; Shorter Camb Med. Hist., I. 564, 566, 569 f. - المترجم .

(٢) أركبويت هو أحد الشعراء الجاليارديين فى العصور الوسطى . وكل ما نعرفه عنه أنه عاش حوالى سنة ١١٦٠ ، وكان من رجال الدين بكولونيا . ومما يذكر عن الشعراء الجاليارديين أنهم كانوا يتمدحون فى اغانيهم الخمر والنساء والرياضة وحياة اللهو والترف . كما هاجموا رجال الدين من البابا حتي أصغر كاهن . أنظر عن ذلك La Monte, op. cit., 557 — المترجم.

(٣) جاءت أسرة كومنين بعد أسرة دوكاس . وقد حكمت بيزنطة من سنة ١٠٨١ إلى سنة ١١٨٥ . ومن أشهر اباطرتها مؤسسها الكسيس الأول كومنين الذى قامت فى عهده الحملة الصليبية الأولى ، والذى سجلت ابنته انا تاريخ حياته وأهم أحداث عصره فى كتاب باليونانية يعرف باسم الالكسياد Alexiadis ، نسبة الى الكسيس - المترجم.

الفرنجة التقليدية التي بنيت على أساسها الحقوق الامبراطورية ، ليس باعتبارها منحـــة أو هبـــة من البـــابا أو الشعب الرومانى ، بل على أساس الفتـــح والغزو (١) . وقد وجه فردريك الأول خطـــابه إلى ممثـــلى مجلس الشيوخ الرومانى قائلا : « لقد استولى أسلافنا على مدينتكم وعلى الأراضي الايطالية من الاغريق واللمبارديين ، وأدخلوها ضمن حدود الفرنجة . ولم يكن ذلك بمثابة هبة من أيد أجنبية، وإنما يعتبر غنيمة حصلوا عليها بمجهودهم الخاص ». وعندما سئل فردريك ممن حصل على امبراطوريته ، إن لم يكن من البـــابا نفسه ، أجاب بقوله المأثور : « من الله وحده ! » .

وبعد سنوات قلائل ، وجد هذا الموقف الذى اتخذه فردريك باربروسا أوضح تعبير له فى الحديث القانونى المشهور الذى عبر عنه المشرع الـكنسي هوجاشيو (٢) Hugaccio ، وتلميذه جوهانس زيميكه o hannes Zemeke فيما يلى « إن الامبراطور الفعلى هو من يقع عليه الاختيار عن طريق انتخاب الأمراء وحدهم ، حتى قبل تثبيته على يد البابا ». وتعكس هذه الفكرة بوضوح العمل الحقيقى للتطور التاريخى منذ عهد كونراد الثانى وهنرى الثالث حتى أيام

---

(١) أنظر كلمة المترجم ، ص ٣١-٣٢ و ٢١٦ من هذا الكتاب - المترجم .

(٢) يعتبر هوجاشيو من أبرز المشرعين الكنسيين فى العصـــر الوسيط ، شأنه شأن جراشيان . وقد ترك أعمق الأثر على الفكر والقانون الـكنسى فى زمنه . وتوفى سنة ١٢١٠ . أنظر عن ذلك Crump & Jacob , op. cit., 327, 337, 352,353, 356 ; Lewis, Med. Political Ideas, II. 390,526 المترجم .

فردريك نفسه. وتمتاز المناقشات الجديدة المنبثقة عن القانون الرومانى بأهميتها . ولكنها لا تسهم مساهمة إيجابية فى صالح القضية الامبراطورية . إنها فى حد ذاتها الرد على موقف البابوية . بل هى أكثر من ذلك

وتتشابه النظريات البابوية فى طابعها . وردا على المحامين الرومان، أخذ البابوات يطبقون النظرية الارستطالية الجديدة(١) لدحض النظرية القديمة عن الكنيسة والدولة . وقاموا بخلق نظرية أخرى أفضل من ذلك ، تتفق مع مطالبهم وادعاءاتهم الخاصة . وتعتبر مراسيم انوسنت الثالث ، حسبما أسلفنا، تجربة لنظرية الوحدة التي نادت بها الارستطالية الجديدة بقصد دحض نظرية « السلطتين » (٢) "The two powers" التى سيطرت على الفكر الوسيط حتى عهد البابا انوسنت ؛ ومفادها أن الامبراطورية ترتبط بالبابوية ارتباطا وثيقا لا سبيل إلى انفكاك منه . وطالب انوسنت الثالث بإخفاء الحقائق التاريخية وطمس معالمها . ولكن لم يكن بوسع انوسنت نفسه زعزعة الاعتقاد العام فى مذهب سلطتين متعادلتين مستقلتين . ولهذا السبب وحده فشلت نظرياته فى كسب الثقة والاحترام ، اللهم إلا فى مجال الآراء والأفكار الفلسفية البعيدة الجدباء .

وتمتاز تصريحات البابا وردود فردريك الثانى التي ضمنها التهديد والوعيد بأهميتها من الناحية النظرية ، أكثر مما لها من الأهمية من الوجهة العملية.

---

(١) عن النهضة الارستطالية الجديدة ، انظر عبد الرحمن بدوى : فلسفة العصور الوسطى ، ص ٨٧ - ٩٢ — المترجم .

(٢) فيما يتعلق بنظرية السلطتين ونظرية الوحدة ، وآراء انوسنت الثالث انظر كلمة المترجم ص ٤٢ و٤٧-٤٨ من هذا الكتاب — المترجم .

وفردريك الثانى هوالذىاستخدم أساحة انوسنت الثالث ليوجهها ضدالبابوية. ولقد دوت أصداؤها عبر الأجيال . ولكن النتائج الحقيقية كانت مغايرة تماما : لقد اهتم انوسنت الثالث ، أولا وقبل كل شيء ، بالمسائل العملية ، مثل اتحاد الامبراطورية وصقلية وبعض الاراضى الاقليمية فى وسط ايطاليا. ولم تشكل نظريته عن الامبراطورية طبقا لأصول ومبادىء كونية عاليا ؛ وإنما صيغت كسلاح عملى لتعزيز سياسته فى تلك المجالات . فضلا عن أنه لم يكن هناك أمل يرتجى فى نجاح نظريته . وسرعان ما سجل والتر Walther احتجاجه فى قوله المأثور ، وهو أن البابوات كانوا يرغبون فى أن يكونوا دائما على حق . ولم تختف قط الركائز التى استندت عليها الامبراطورية، وهى التى تم تأكيدها بفخار فى كل من تصريح سباير (١) Decleration of Speyer ، واحتجاج الهال(٢)Halle protest ، اللذين صدرا فى عامى ١١٩٩ و ١٢٠٢ ؛ والتى قررها مرة ثانية أيكه فون ربجاو Eike von Repgow فى مجموعة من الوثائق القانونية المعروفة باسم Sachsenspiegel (٣) . وتم الأخذ بهذه النظرية مرة أخرى فى مجلس رينس Diet of Rhens عام ١٣٣٨ ، وكانت السبب فى تسوية المشكلة الامبراطورية التى أثارها

---

(١) فيما يتعلق بتصريح سباير، انظر Cambridge Medieval History, VI, 53, 57 - المترجم .

(٢) وللمزيد من المعلومات عن احتجاج الهال ، انظر Cam. Med. Hist., VI,59,62 — المترجم؟

(٣) للمزيد من التفاصيل عن مذهب أيكه أوف ربجاو الذى وضعه قبل سنة ١٢٥ بقليل، أنظر Cam. Med. Hist., VI ,110 ,115 ,436-المترجم؟

شارل الرابع (١) فى عامى ١٣٥٥ و ١٣٥٦ .

ولم يكن نجاح البابوية فى المجال العملى لأن نظريتها عن الإمبراطورية قد صادفت قبولا ، بل لقدرتها على القيام بمساعدة الممالك القومية خارج نطاق الإمبراطورية ، وفى مقدمتها فرنسا . وقد جعل اتحاد ألمانيا وإيطاليا وبرجنديا ، من الامبراطورية الكتلة الإقليمية صاحبة السيادة فى غربى أوروبا ووسطها . أما الممالك الوطنية ، التي كانت قد وطدت مركزها فى القرن الثاني عشر ، فقد قاومت السيادة الألمانية فى بادىء الأمر ، ثم أخذت تتحداها فيما بعد . ولم تقم تلك السيادة على أية مطالب معينة للسلطة الامبراطورية ، بل على مركز الامبراطورية القيادى فى شئون السياسة الدولية . وحتى ترجح كفتها في ميزان القوى بين الطرفين ، فقد استغلت الصراع بين الامبراطورية والبابوية ، الأمر الذى أضر بكليهما . وغدت سياسة تلك الممالك هى العامل الحقيقى الحاسم بعد عام ١١٩٧ ، أكثر من الأثر الذى تركته النظريات التى قامت حول الصراع بين البابوات والأباطرة ، واستمرت كذلك حتى بعد عام ١٢٥٠ .

---

(١) الامبراطور شارل الرابع من أسرة لوكسمبورج . حكم من سنة ١٣٤٦ إلى سنة ١٣٧٨ . وركز جهوده فى تقدم حكم أسرته فى سيليزيا والبلاتينات ولوسانيا وبراندنبورج ، وكذلك فى سبيل تقدم بوهيميا . وأصبحت براج من أهم المدن الامبراطورية فى عهده ، وأنشئت جامعتها سنة ١٣٤٨ . وفى عهده أيضا انتشر الوباء الأسود (١٣٤٨—١٣٤٩) ، كما استمر العمل فى وضع دستور رسمي للإمبراطورية . أنظر لانجر : نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٨١٤ - المترجم .

وتبلور رد الفعل ضد السيادة الألمانية بعد ضعف الامبراطورية. وتغير ميزان القوى أثناء فترة النزاع العلمانى . ولقد أثارت الامبريالية الجديدة فى عهود آل هوهنشتاوفن ، وامبريالية كل من رينالد أوف داسل وأركبويت، رد فعل عدائى فى البلاد المجاورة. ولو أنها كانت فى حد ذاتها ردا على مطالب بابوية هيلد براند (١) الكنسية ويبدو أن رينالد عندما أطلق على ملوك أوروبا باستخفاف وعدم مبالاة لفظ « الملوك الصغار » reguli ، إنما كان يعنى التلميح إلى أنهم دون الامبراطورية مكانة وتصدى فى الرد عليه جون أوف ساليسبورى (٢) قائلا بلهجة لاذعة : «إذن فمن الذى جعل الألمان قضاة على الأمم ؟» وكان هناك إصرار على أن سلطة الملوك والأباطرة

---

(١) نسبة إلى جريجورى السابع ، إذ كان إسمه الأصلى قبل جلوسه على الكرسى البابوى هو هيلد براند . أنظر أيضا ص ٢٣١ ح ٣ من هذا الكتاب . المترجم .

(٢) إذا تحدثنا عن جون أوف ساليسبورى أسقف شارتر ، يجب أن نشير إلى مدرسة شارتر التى كانت أعظم مركز لتدريس العلوم الإنسانية فى القرن الثانى عشر ففيها وصلت الدراسات الإنسانية ذروتها فى شخص جون المذكور (حوالى ١١١٥ – ١١٨٠) . وهو من أشهر تلامذة الفيلسوف بطرس ابيلارد . وكانت ثقافته الكلاسيكية ومعرفته بالكتاب اللاتين القدامى تسمح له بالاقتباس منهم والإفادة من إنتاجهم . وليس هناك من هو أحق من جون من علماء ذلك العصر بحمل لقب «عالم فى الدراسات الإنسانية». وقد أنهى حياته باعتباره أسقفا على شارتر حيث تلقى تعليمه ودراسته . وترك عددا من المؤلفات منها كتابه عن رجل الدولة الذى ميز فيه بين الملك الصالح والطاغية المستبد وكان جون من كبار المدافعين عن السيادة البابوية وعن نظرية « السيفين » . ومع ذلك فقد وجه نقداً مريراً إلى مفاسد

قد انبثقت من نفس المصدر ، وهو أن« الملك امبراطور فى مملكته » . والواقع أن هذا كان أمرا بديهيا أوليا . ذلك أن اللقب الإمبراطورى لم يدل قط على مطالبة بالسيادة . إلا أنه كان فى الوقت نفسه دفاعا ضروريا ضد النظريات الجديدة المسعورة المؤيدة للامبراطورية ، والتى كان المحامون الرومان يروجون لها . ويلوح أنها كانت ترمز إلى مطالب جديدة هامة .

وقد اثارت سياسة هنرى السادس (١) القلقة المغامرة مزيدا من الانزعاج فيما بعد . ولم تكن تلك السياسة ، حسبما قيل مرارا ، مجرد محاولة وهمية

= الكنيسة ومباذلها . أنظر عن ذلك يوسف كرم: الفلسفة الأوربية فى العصر الوسيط، ص٩٥ - ٩٦ ، ا . باركر : تمراث الاسلام ، ج ١ (١٩٣٦) ، ص ٢٣٥ . راجع أيضا La Monte, op. cit., 558–9, 565, 577; R. A. Browne (ed.), British Latin Selections (1954), 57-9; Lewis, op. cit., I. 147, 169, 170—2, 197 f., 225, 246 f., 249, 276 f., II. 521 f.; Figgis, Political Thought, 193; Heer, op. cit., 78—9, 90—2 — المترجم :

(١) هنرى السادس ابن الامبراطور فردريك باربروسا من أباطرة أسرة هوهنشتاوفن الألمان حكم من سنة ١١٩٠ إلى سنة ١١٩٧ .وتزوج من كونستانس ، وتم تتويجه سنة ١١٩١ . وبلغت الإمبراطورية فى عهده أوجها من ناحية اتساع رقعتها . كان جنديا عالما بالحروب ، مثقفا ، عمليا ، وسياسيا ماهرا ، يمتاز بالشدة والصرامة والقسوة ، فضلا عن عقليته الجبارة . وقد أمضي الشطر الأكبر من حكمه فى حروب تكاد أن تكون مستمرة ضد =

لتحقيق فكرة تهدف إلى إقامة « امبراطورية عالمية » universal empire ، أو « دولة عالمية » world-dominion ؛ ولكنها طبقت لتثير ردود فعل معادية إذ يبدو أن الغرض منها كان تعكير صفو الأمن فى كافة البلدان المجاورة ولم تكن النتيجة الأساسية هى « المساواة » "equality" بين الملوك والأباطرة ، وإنما كانت إدعاء البابوية بحقها فى منح التاج للأباطرة ، هذا الادعاء الذى لم يقم سوى بدور عابر فى مجال الشئون السياسية . ذلك أن البابوية لم تمتلك إطلاقا سلطة حقيقية فعالة تعزز مطالبها وادعاءاتها وإن ما كان موضع خلاف أصبح بصفة أساسية الصلة التى تمت فى القرن الحادى عشر بين الملكية regnum والإمبراطورية imperium ، والتي على أساسها قامت الإمبراطورية بوصفها حقيقة تاريخية . وكان الهجوم موجها ضد هذا المبدأ باعتباره المدخل الرئيسي إلى الكيان الامبراطورى وغدا التساؤل بعد عام ١٢٥٠ هو إن كانت هذه الرابطة يرجى دوامها ، أم أنها سوف تنقطع . وأصبح هذا التساؤل طيلة قرن من الزمان هو موضوع الساعة فى مجال السياسة الأوروبية .

وأعقب ذلك سلسلة كاملة من المشروعات المتناقضة فى تتابع متصل سريع . وكان فى المقدمة أولئك الذين طالبوا « بنقل »

= الجولفيين الذين تزعمهم هنرى الأسد فى ألمانيا ، وفى سبيل إقرار النظام فى صقلية ، ومحاولة توحيد التاجين الألمانى والصقلى . وتوفى هنرى فجأة سنة ١١٩٧ . وأعقب ذلك موجة من المرارة ضد الامبراطورية فى إيطاليا . فضلا عن قيام حرب أهلية فى ألمانيا استمرت ١٤ سنة . أنظر لانجر : نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٥٧٨ — ٥٧٩ - المترجم .

الامبراطورية (١)، أى بفصلها عن ألمانيا وتثبيتها على أقوى سلطة فى القارة الأوروبية؛ونعنى بذلك ملك فرنسا . وهذا يعني ، من الوجهة العملية ، دعوة موجهة إلى تعاقب ملوك فرنسا فى حكم إيطاليا وبرجنديا واللورين. أما من الوجهة النظرية ، فإنه يعنى إحياء الفكرة القديمة عن الإمبراطورية بوصفها تعبيرا عن الحكم والسيادة . ويعتبر بطرس ديبوا (٢) أشهر مؤيد لهذه الفكرة عن الامبراطورية .

---

(١) أنظر ص١٩٤ ح٣ من هذا الكتاب - المترجم.

(٢) بطرس ديبوا فرنسي ولد في نورماندیا فيما بين عامي ١٢٥٠ و ١٢٦٠ . درس فى جامعة باريس ، واستمع إلى محاضرات فى اللاهوت والسياسة وفى عام ١٣٠٠ عالج قضايا عديدة لكل من فيليب الرابع ملك فرنسا وادوارد الأول ملك انجلترا وتوفى حوالى سنة ١٣٢١ ووضع ديبوا فى أوقات فراغه مذكرات عديدة رفع معظمها الى مليكه فيليب الجميل ، بخصوص إصلاحات فى النواحي الاجتماعية والحربية والمالية والكنسية وبالرغم من أنه لم يكن من كبار الموظفين فى الحكومة ، إلا أنه كان محبوبا من الملك الفرنسي الذى كان يستمع إليه ويقبل مشورته . ولقد كان ديبوا مؤيدا قويا للملكية الفرنسية . كما كان يأمل فى أن ينتخب ملك فرنسا امبراطورا ، وأن تؤسس سلطته العالمية ليس على الغرب فقط،ولكن على الشرق أيضا . وكان هذا من الدوافع التي حولت انتباهه الى مشروع حملة صليبية جديدة بقصد الاستيلاء على الأراضى المقدسة . ولعل أهم ما خلفه لنا فى هذا الصدد مقالته التى وضعها باللاتينية باسم « استرجاع الاراضى المقدسة » recuperatione " Terre Sancte" . وهى تعتبر وثيقة هامة طالب فيها ديبوا القيام باصلاحات عامة فى كل فرع من فروع المجتمع فى ذلك العصر . انظر عن ذلك ا . باركر : الحروب الصليبية (١٩٦٠) ص ١٧٣ ، =

وهناك كذلك المدافعون عن فكرة « إلغاء » الامبراطورية ، التي كانت تعني من الوجهة العملية أن تتخذ كل من المانيا وبرجنديا وإيطاليا طريقها الخاص تحت حكم ملوك منفردين واستغل بعض الحكام الألمان وقتذاك تلك الفكرة ، وبخاصة آل هابسبورج . وانتشرت انتشارا واسعا بفضل روبرت صاحب نابلي (١) الذى كان يأمل ، بهذه الوسيلة ، أن يترك حرا كي يبسط نفوذه وسلطانه على ايطاليا . ولم توضع أي خطة من تلك الخطط موضع التنفيذ . وكان للصراع من أجل المصالح الخاصة ، كما كان للخطر الكامن وراء قيام سلطة أكبر ، أهميتها البالغة بالنسبة لأى اقتراح جامد يظل

= كولتون : عالم العصور الوسطى ، ص ٢٢٦ و ٢٢٨ ، راجع أيضا
A. S. Atiya, The Crusade in the Later Middle Ages (1938), 47-52; idem, Crusade, Commerce, and Culture (1962), 97 f.
أنظر أيضا ص ٥٠ من هذا الكتاب ـ المترجم .

(١) يعرف روبرت الأول ملك نابلي باسم روبرت العاقل . خلف أباه شارل الثاني في حكم نابلي ، مع مطالبته بحكم هنغاريا عن طريق زوجته يولاند صاحبة أراجون . وقد حكم من سنة ١٣٠٩ إلى سنة ١٣٤٣ . وكان شخصية بارزة في السياسة الايطالية لسنوات عديدة . وتزعم حزب الجلفيين بالمدينة في مواجهة قوات الجبلين المعارضة . واكتسب شهرة كبيرة بوصفه زعيم المعارضة ، عندما قام كل من هنرى السابع ولويس البافاري بالحملة على ايطاليا . ومات ابنه شارل صاحب كالابريا في حياة أبيه تاركا ابنتين فقط دون أن يعقب ابنا ذكرا . ورغبة من روبرت في الابقاء على وراثة العرش في أسرته ، فقد رتب زواج حفيدته جوانا إلى ابن عمها اندراوس بن شارل روبرت ملك هنغاريا . أنظر **La Monte, op. cit., 437, 438, 693, 723** ـ المترجم .

قائما بعد المعارضة بين الأطراف المعنية التي كانت مضطرة إلى إثارتها ومن ثم ، وضعت المسألة الامبراطورية،آخر الأمر، على الرف بدلا من العمل على تسويتها .

وفى تلك الأثناء كانت الدعاية الخبيثة المضادة للامبراطورية قد أثارت رد فعل مزدوج . كان رد الفعل الأول ، هو قيام اتحاد بين كافة القوى المحافظة فى المانيا . وقد صادف ذلك قبولا فى مجلس رينس ويتمثل رد الفعل الثانى فى ظهور أصحاب النظريات المؤيدة للامبراطورية والمعارضة لها ، مثل اسكندر أوف روس(١) Alexander of Roes فى المانيا ، ودانتي (٢) فى ايطاليا . وبقدر ما بقيت النظرية الامبراطورية كقوة سياسية، وهى التي لم يجد أحد ضرورة للتعبير عنها فى نصوص محددة ، فقد آبت فجأة

---

(١) عن اسكندر أوف روس وآرائه ، أنظر Lewis, Med. Political Ideas, II. 440, 446—8, 620 f. n. 20 - المترجم .

(٢) دانتي اليجيرى شاعر فلورنسى؛ ولد سنة ١٢٦٥ وتوفى فى ١٣٢١ عن ٥٦ سنة . وفيما يتعلق بتاريخ حياته وعصره وإنتاجه الأدبى ، أنظر كولتون : نفس المرجع ، ص ١٩ - ٢٠ ح ١ ، وكذلك J. Burckhadt , The Civilization of the Renaissance (1944), 49 — 50; D. Hay, The Italian Renaissance in its Historical Background (1961), 55 - 7 , 74 — 7; Cantor, op. cit., 303—9 . ومن أهم ما دعا إليه دانتي فى ميدان السياسة هو الفصل بين السلطتين الزمنية والدينية . فالقيصر فى نظره هو القيصر ، والبابا هو البابا . ولذلك طالب بأن يكون الجهاز الكنسى قائما على رعاية أرواح أتباعه فحسب ، بينما يكون الامبراطور مكلفا بالمحافظة على الأمن والعدالة وحفظ النظام . كذلك نادى بفكرة الامبراطورية العالمية =

إلى نفسها . وقد حصلنا على فيض من المعاهدات والمقالات التي كان بعضها من وحي مثالية أصيلة ، والقليل منها لا شأن له بهذا الموضوع. وعن طريقها تشكلت وجهات نظرنا عن الامبراطورية فى العصور الوسطى . ولا شأن لأصحاب النظريات بما كانت عليه الامبراطورية . فقد اختص بعضهم بالدعاية التي يقوم بها الساسة المحترفون، مستلهمين فى ذلك مشروعات للسلطات

= universal empire . لقد وجد أن الحل الوحيد لوضع حد للصراع والتطاحن والمنافسات بين الدول فى عصره ، هو العمل على إزالة الفوارق قدر الاستطاعة بين الأمم والشعوب . وكان يرى فى شخص الامبراطور هنرى السابع فكرة تحقيق تلك الامبراطورية العالمية . وكان هنرى هذا أميرا على لكسمبورج ، ثم اختير ملكا على المانيا وامبراطورا على الدولة الرومانية المقدسة سنة ١٣٠٨ . وكتب إليه دانتي يدعوه لتحقيق وحدة العالم حسبما كان يراها هو . ومن أشهر مؤلفاته « الكوميديا الالهية » التى تتألف من ثلاثة أجزاء : هى الجحيم والمطهر والفردوس . وقد قام الدكتور حسن عثمان الذى توفر على دراسة دانتي وأدبه وانتاجه سنوات طويلة بترجمة الجزئين الأول والثانى من هذا العمل العظيم ترجمة دقيقة محققة مصحوبة بالشروح والحواشي القيمة . ومن مؤلفات دانتي كذلك كتابه المعروف « عن الملكية » De Monarchia الذى أوضح فيه فكرته السياسية الخاصة بضرورة توحيد العالم على يد الامبراطور ، وفصل السلطتين الدينية والزمنية عن بعضهما . وفيه أيضا هاجم نظرية السيادة البابوية هجوما صريحا مكشوفا . وحاول هنرى تحقيق هذه الفكرة ، ولكن الوقت لم يكن ملائما لذلك . فقد كان هذا العصر هو عصر نمو الوطنيات المستقلة والقوميات المحلية . أنظر ; Figgis , op. cit., 32 — 3; Lewis, op. cit., I. 153, 157, II. 430, 441—5, 447, 453 f., 465 f., 486—95, 538—40, 555, 591—4; Ullmann, op. cit., 258 ff.; Heer, op. cit., 302-4; Taylor, Med. Mind, II. 307 , 565

المترجم .

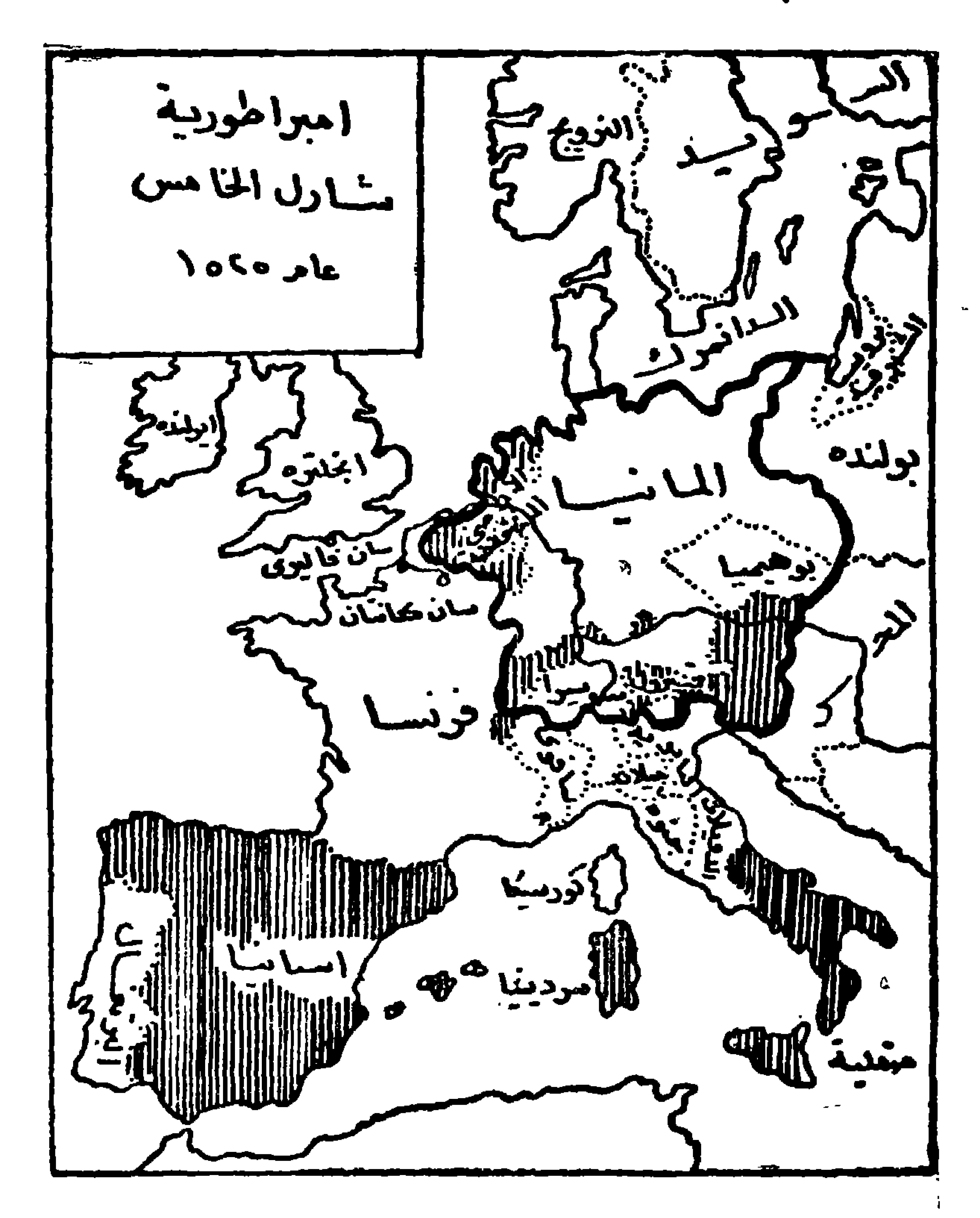
السياسية فى كلمات معسولة ناعمة يصاحبها رنين معنوى خداع ويعكس البعض الآخر الحيرالتامة للرجال المخلصين الذى استولى عليهم الذهول من جراء التلون السياسى الجديد؛ والذين أمعنوا النظر طويلا فى ماض خيالى قديم ، ووجدوا فى امبراطورية وهمية كافة الصفات التي لم تحظ بها أو تتطلع إليها إطلاقا الامبراطورية الحقيقية

وفى تلك الاثناء ، لم يتم أى شيء لتسوية المسألة على الصعيد الدولى ، إذ جردت الامبراطورية فى الواقع من أراضيها ، فتفتت الاتحاد الذى يضم المانيا وايطاليا وبرجنديا ، والذى قامت الامبراطورية على أساسه . إذ تخلصت الواحدة منها تلو الأخرى من فاعلية النفوذ الألمانى . ولم يكن هناك امبراطور خلال قرن من الزمان بعد وفاة فردريك الثانى ، وذلك باستثناء فترة عام واحد يقع فيما بين عامى ١٣١٢و١٣١٣ . والواقع أنه فيما بين عامى ١٢٥٠و١٨٠٦ لم يتم سوى تتويج خمسة أباطرة على يد البابا . وهؤلاء الأباطرة هم : هنرى السابع ، وشارل الرابع ، وسيجسموند ، وفردريك الثالث ، وشارل الخامس . (١) وكان سيجسموند ، الذى خطا خطوات واسعة فى طريق المصالحة ، لا يزال يستخدم المظاهر الامبراطورية . ولكن من الذى تبلغ به الجرأة للجدال فى أن سيجسموند أو فردريك الثالث ، وهما الحاكمان اللذان حظيا باللقب الامبراطورى خلال القرن الخامس عشر كله ، لم يكن لهما من الوظيفة الامبراطورية سوى الاسم ومظاهر الزينة والأبهة ؟ وبعد عام ١٣٥٦ تحددت أملاك الامبراطور بموجب

---

(١) الامبراطور هنرى السابع من أسرة لكسمبورج ، وقد حكم من سنة ١٣٠٨ إلى سنة ١٣١٣ . وحكم سيجسموند من سنة ١٤١٠ إلى سنة ١٤٣٧ ، بينما امتد حكم فردريك الثالث ، وهو من آل هابسبورج ، من سنة ١٤٤٠ إلى سنة ١٤٩٣ . أما شارل الخامس فقد امتد حكمه من سنة ١٥١٩ إلى سنة ١٥٥٦ ، وتوفى سنة ١٥٥٩ — المترجم .

خريطة رقم (١٢)



حدود الامبراطورية — الاراضي التي ورثها شارل الخامس

تعهدات دقيقة لألمانيا . (١) وليس هناك مايمكن تمييزه عن حكم ملك ألمانى من حيث المجال والغرض :

ودارت عجلة الزمن دورتها كاملة . أما الامبراطورية التي كانت في عام ٨١٢ مجرد لقب ، فقد انتهت أيضا بوصفها شيئا لا يزيد عن لقب فحسب. وكانت الامبراطورية بعد عام ١٣٥٦ تفتقر تماما إلى المعنى والغاية والمضمون: هذا إن لم تكن قد افتقرت إليها منذ عام ١٢٥٠ مباشرة . ومن ثم لم تبق امبراطورية العصور الوسطى :

(١) وقد انعكس ذلك في ظهور اللقب الجديد في عهد فردريك الثالث ، وهـــو « **Sacrum Romanum imperium nationis Germanicae,,** » أى « الامبراطورية الرومانية المقدسة للوطن الألمانى » . وهو يدل ـ حسبما أبدى تسويمر **Zeumer** ـ على تحديد سلطات الامبراطور الاقليمية على الأراضي الألمانية .

بعض المراجع للفصل الثالث

Allshorn, L., Stupor mundi: The Life and Times of Frederick II. London, 1912.

Balzani, U., The Popes and the Hohenstaufen. London, 1888.

Below, G. v.,

1 — Der deutsche Staat des Mittelalters: ein Grundriss der deutschen Verfassungsgeschichte. Leipzig, 1914.

2 — Die italieneische Kaiserpolitik des deutschen Mittelalters, mit besonderer Hinblick auf die Politik Friedrich Barbarossas. Munich, 1927.

Bernhardi, W., Konrad III 2 vols. Leipzig, 1883.

Biehringer, F. J., Kaiser Friedrich II. Berlin, 1912.

Brackman, A. (ed.), Papsttum und Kaisertum. Munich, 1926.

Bresslau, H., Jahrbücher des deutschen Reichs unter Konrad II. 2 vols. Leipzig, 1879—84.

Brischar, J. N., Papst Innozenz III und seine Zeit. Freiburg, 1883.

Bühler, J.,

1— Die sächsischen und salischen Kaiser. Leipzig, 1924.

2— Die Hohenstaufen. Nach zeitgenossischen Quellen. Leipzig, 1925

Calmette, J., La diplomatie carolingienne du traité de Verdun à la morte de Charles le Chauve, 843—77 Paris, 1901.

Garlyle, R. W. and Garlyle, A. J., A History of Medieval Political Theory in the West. 5 vols. Edinburgh and London, 1903—28

وهو يعتبر العمدة فى هذا الموضوع.

Cartellieri, A., Heinrich VI und der Höhepunkt der staufischen Kaiserpolitik. Leipzig, 1914.

Coleman, C. B., Constantine the Great and Christianity : Three Phases : The Historical, the Legendary, and the Spurious. New York, 1914.

Crivellucci, A., Le origini dello stato della chiesa : storia documentata. Paris, 1909.

Dahn, F., Die Könige der Germanen. 13 vols. Munich, 1861—1911.

Deslandres, P., Innocent IV et la chute des Hohenstaufen. Paris, 1907.

Duchesne, L., Les premiers temps de l'état pontifical. Paris, 1904. (English Trans. by A. H. Mathew, as "The Beginnings of the Temporal Sovereignty of the Popes, 754—1073, " London, 1908).

Dungern, O. D., War Deutschland ein Wahlreich? Leipzig, 1913.

Dunning, W. A., A History of Political Theories, Ancient and Mediaeval. New York, 1902.

Emerton, E., Beginnings of Modern Europe (1250—1450). Boston, 1917.

Feierabend, H., Die politische Stellung der deutschen Reichsabteien während des Investiturstreites. Breslau, 1913.

Figgis, J. N., Political Thought from Gerosn to Grotius, 1414—1625. New York, 1960.

Fliche, A., Etudes sur la polémique religieuse à l'époque de Grégoire VII : les prégrégoriens. Paris, 1916.

Floto, H., Kaiser Heinrich der Vierte und sein Zeitalter. 2 vols. Stuttgart, 1855—56.

Frantz, T., Der grosse Kampf zwischen Kaisertum und Papstum zur Zeit des Hohenstaufen Friedrich II. Berlin, 1903.

Friedberg, E.,

1— Die Grenzen zwischen Staat und Kirche. Tübingen, 1872.

2— Die mittelalterlichen Lehren über das Verhältniss von Staat und Kirche. Part I. Leipzig, 1874.

Gerdes, H., Geschichte des deutschen Volkes und seiner Kultur im Mittelalter. 3 vols. (to 1250) . Leipzig, 1891—1908.

Gierke, O., Das deutsche Genossenschaftsrecht. 4 vols. Berlin, 1868—1914. (Part of vol. III trans. by F. W. Maitland, as "political Theories in the Middle Ages," London, 1900.)

Graefe, F., Die Publizistik in der letzten Epoche Kaiser Friedrichs II, 1239—1250. Heidelberg, 1909.

Greenwood, A. D., The Empire and the Papacy in the Middle Ages. London, 1901.

Gumplowicz, L., Geschichte der Staatstheorien. Innsbruck, 1905.

Gundlach, W., Die Entstehung des Kirchenstaates und der kuriale Begriff der "res publica Romanorum." Breslau, 1899.

Hampe, K. L.,

1— Deutsche Kaisergeschichte in der Zeit der Salier und Staufer. Leipzig, 1916.

2— Mittelalterliche Geschichte. Gotha, 1922.

3— Kaiser Friedrich II. in der Auffasung der Nachwelt. Berlin and Leipzig, 1925.

Hartmann, L. M, Die ottonische Herrschaft. Gotha, 1915.

Henderson, E. F., A History of Germany in the Middle Ages. London, 1894.

Heusler, A., Deutsche Verfassungsgeschichte, Leipzig, 1905.

Hirsch, S., Jahrbücher des deutschen Reiches unter Heinrich II. 3 vols. Leipzig, 1862—74.

Hofmann, A., Politische Geschichte der Deutschen. 4 vols. Stuttgart, 1921—25.

Höhne E., Kaiser Heinrich IV: sein Leben und seine Kämpfe, 1050 -1106, nach dem Urteile seiner deutschen Zeitgenossen. Gütersloh, 1905.

Huillard—Bréholles, J. L. A., Historia diplomatica Friderici Secundi. 7 vols. in 12. Paris, 1852—61.

Hurter, F., Histoire du Pape Innocent III. French trans. by A. de Saint—Chéron and J. B. Haiber. 3 vols. Paris, 1855.

Jacob, L., Le royaume de Bourgonde sous les empereurs franconiens. Paris, 1906.

Janet, P., Histoire de la science politique dans ses rapports avec la morale. 2 vols. Paris, 1887.

Jarrett, B., Social Theories of the Middle Ages, 1200—1500. London, 1926.

Jastrow, I. and Winter, G., Deutsche Geschichte im Zeitalter der Hohenstaufen, 1125—1273. 2 vols. Berlin, 1893-1901.

Kantorowicz, E., Kaiser Friedrich der Zweite. Berlin, 1927.

Keutgen, F., Der deutsche Staat des Mittelalters. Jena, 1918.

Kington, T. L., History of Frederick II. 2 vols. London, 1862.

Kleinclausz, A., L'empire carolingien: ses origines et ses transformations, Paris, 1902.

Knonau, G. M. v., Jahrbücher des deutschen Reichs unter Heinrich IV und Heinrich V. 2 vols. Leipzig, 1890-1909.

Knöpp, F., Die Stellung Friedrichs II. und siener beiden Söhne zu den deutschen Städten. Berlin, 1928.

Köpke, R. and Dümmler, E., Jahrbücher Kaiser Otto der Grosse. Leipzig, 1876.

Laehr, G., Die Konstantinische Schenkung in der abend— ländischen Literatur des Mittelalters bis zu Mitte des XIV Jahrhunderts. Berlin, 1926.

Leroux, A., Les conflits entre la France et l'empire pendant le moyen âge. Paris, 1902.

Lewis, E., Medieval Political Ideas 2 vols. London, 1945.

Lindner, T.,

1— Kaiser Heinrich IV. Berlin, 1881.

2— Die deutschen Königswahlen, und Die Entstehuug des Kurfürstenthums. Leipzig, 1893.

Lodge, R., The Close of the Middle Ages, 1273—1494. London, 1922.

Loserth, J., Geschichte des späteren Mittelalters von 1197 bis 1492. Munich, 1903.

Lot, F. and Halphen, L., Annales de l'histoire de France à l'époque carolingienne : le règne de Charles le Chauve (840—877). Paris, 1909.

Luchaire, A., Innocent III. 6 vols. Paris, 1905—08.

Manitius, M., Deutsche Geschichte unter den sächsischen und salischen Kaisern, 911—1125. Stuttgart, 1889.

Mathew, A.H., The Life and Times of Hildebrand, pope Gregory VII. London, 1910.

Meister, A , Deutsche Verfassungsgeschichte, von den Anfängen bis ins 15 Jahrhundert. Leipzig, 1907.

Mirbt, C., Die Publizistik im Zeitalter Gregors VII Leipzig, 1894.

Mühlbacher, E., Deutsche Geschichte unter den Karolingern. Stuttgart, 1896.

Müller—Mann, G., Die auswärtige Politik Ottos II. Lörrach, 1898.

Niehues, B., Geschichte des Verhältnisses zwischen Kaiserthum und Papstthum im Mittelalter. 2 vols. Münster, 1877—87.

Nitzsch, K. W., Geschichte des deutschen Volkes bis zum Augsburger Religionsfrieden. Nach dessen hinterlassenen Papieren und Vorlesungen. 3 vols. Leipzig, 1892.

Poiser, G., Der deutsche Investiturstreit unter Kaiser

Heinrich V bis zu dem päpstlichen Privileg von 13 April, 1111. Berlin, 1883.

Pfaff, V., Kaiser Heinrichs VI, höchstes Angebot an die römische Kurie (1196). Heidelberg, 1927.

Pfleiderer, O., Das deutsche Nationalbewusstsein in Vergangenheit und Gegenwart. Berlin, 1896.

Pflugk—Harttung, J. v.,

1— Untersuchungen zur Geschichte Kaiser Konrads II. Stuttgart, 1890.

2— Die Papstwahlen und Kaisertum, 1046—1328. Gotha, 1908.

Pinton, P., Le donazioni barbariche ai papi. Rome, 1890.

Pouzet, T., La succession de Charlemagne et le traité de Verdun. Paris, 1890.

Raumer, F. von, Geschichte der Hohenstaufen und ihrer Zeit. Leipzig, 1878.

Resenstock, E., Könighaus und Stämme in Deutschland zwischen 911 und 1250. Leipzig, 1914.

Richter, G. and Kohl, H.,

1— Annalen der deutschen Geschichte im Mittelalter von

der Gründung des fränkischen Reichs bis zum Untergang der Hohenstaufen. 4 vols. Halle, 1873-98.

2— Annalen des fränkischen Reichs im Zeitalter der Karolinger. 2 vols. Halle, 1885—87.

Sallet, L., Les réordinations: étude sur le sacrement de l'ordre. Paris, 1907.

Scaduto, L., Stato e chiesa negli scritti politici dalla fine della lotta per le investiture sino alle morte di Ludovico il Bavaro (1122—1347). Florence, 1882.

Scharnagl, A., der Begriff der Investitur in den Quellen und der Literatur des Investiturstreits. Stuttgart, 1908.

Schirrmacher, F. W., Die letzten Hohenstaufen. Göttingen, 1871.

Schmeidler, B., Hamburg—Bremen und Nordost—Europa vom 9. bis 11. Jahrhundert. Leipzig, 1918.

Schneider, F., Beiträge zur Geschichte Friedrichs II und Manfreds Rome, 1912.

Schnürer, G., Die Entstehung des Kirchen—staates. Cologne, 1894.

Schramm, P. E., Die deutschen Kaiser und Könige in Bildern Ihrer Zeit, 751—1152. Leipzig, 1928.

Schröder, R., Lehrbuch der deutschen Rechtsgeschichte. Berlin and Leipzig, 1922.

Schumann, O., Die päpstlichen Legaten in Deutschland zur Zeit Heinrichs IV und Heinrichs V (1056—1125). Marburg, 1912.

Simonsfeld, H., Jahrbücher des deutschen Reichs unter Friedrich I. Vol. I (1152—1158) Leipzig, 1908.

Solmi, A., Stato e chiesa secondo gli scritti politici da Carlomagno fino al Concordato di Worms. Modena, 1901.

Stefano, A. de, L'idea imperiale di Federico II. Florence, 1927.

Steindorf, E., Jahrbücher des deutschen Reichs unter Heinrich III. 2 vols. Leipzig, 1874—81.

Sútterlin, B, Die Politik Kaiser Friedrichs II. und die römischen Kardinäle in den Jahren 1239-1250. Heidelberg, 1929.

Thompson, J. W., The Decline of the Missi Dominici in Frankish Gaul. Chicago, 1903.

Uhlriz, K., Jahrbücher des deutschen Reiches unter Otto II und Otto III. Vol. I, Otto II. Leipzig, 1902.

Vehse, O., Die amtliche Propaganda in der Staatskunst Kaiser Friedrichs II. Munich, 1929.

Vogel, W., Die Normannen und das fränkische Reich. Heidelberg, 1906.

Waitz, G., Deutsche Verfassungsgeschichte. 6 vols. Berlin, 1880--96.

يمتد هذا المرجع حتى القرن الثانى عشر .

Wilmans, R., Jahrbücher des deutschen Reiches unter Otto III. Berlin, 1940.

Zeller, J.,

1— Fondation de l'empire germanique: Otton le Grand et les Ottonides. Paris, 1873.

2—L'empire germanique sous les Hohenstaufen Pairs, 1881.

Zimmermann, B. F. W., Geschichte der Hohenstaufen. Stuttgart, 1865.



الفصل الرابع

آل هابسبورج وهوهنزولرن

لقد كان من الممكن إضفاء غاية ومعنى جديدين على هذا اللقب الأجوف، كما كان الحال فى القرون الوسطى ، وذلك بمجرد أن تستحوذ عليه سلطة ترى فيه تقليدا جديرا بالذكر . وهذا ما حدث . إذ تلقت الامبراطورية المحتضرة بعد قرن ونصف درسا قويا فى المسائل الأيديولوجية ، ثم تركت للمحافظة على كيانها :

وبعد ذلك عمل آل هابسبورج على إحيائها لصالح الهابسبورج ،وحتى ترتكز تلك الأسرة على فكرة ايديولوجية تحظى بموافقة أوروبا عليها ،الأمر الذى يمكنها من المطالبة بحقها الخاص : وفى عام ١٥٢٦ ولدت الامبراطورية الرومانية المقدسة من جديد فوق منطقة موهاكس (١) . ومع ذلك ، ليس هناك وجه شبه بين الامبراطورية الجديدة وامبراطورية العصور الوسطى من ناحية المضمون والغاية والطابع والتناسق . فهى ليست وريثتها ،ولا هي شبحها. ولكنها أشبه ما تكون بلقيطة مهجورة ألقى بها عند حافة قبرها . إذ انتهى أمر الاتحاد مع روما ، وهو ما يميز الامبراطورية الوسيطة منذ عام ٨٢٣ حتى تاريخ صدور « المرسوم الذهبى » (٢) Golden Bull . فلم يتوج أحد من

(١) تقع موهاكس فى المجر على نهر الدانوب بالقرب من الحدود اليوغوسلافية . وفيها انتصر لويس الثانى دوق اللورين على الاتراك - المترجم.

(٢) يوجد مرسومان بهذا الاسم : الأول أصدره الامبراطور فردريك الثانى فى ١٢ يوليو سنة ١٢١٣ ليضمن استمرار تعضيد البابوية له ، وهو =

آل هابسبورج منذ أيام مكسيميليان حتى عهد فرنسيس الثانى(١) فى روما؛ وفيما عدا شارل الخامس ، لم يكن هناك امبراطور على الرغم من مطالبتهم جميعا بالمنصب الامبراطورى ، كما لو كانوا قد توجوا وتم انتخابهم؛

= يعرف باسم «مرسوم إجر الذهبى» The Golden Bull of Eger. وأكد فيه الوعود التى سبق أن بذلها للبابا انوسنت الثالث . وبعد ذلك أعيد تتويج فردريك بموافقة البابا والبارونات ملكا على المانيا بمدينة اكس لا شابل سنة ١٢١٥ . وكان هذا نصرا للبابا فى المانيا ، بعد أن تعهد فردريك بأن تصبح الكنيسة الألمانية مستقلة بشئونها عن السلطة العلمانية ، وأن تكون تحت إشراف البابا مباشرة . ولم يكن كل من انوسنت أو فردريك ليتنبأ بتلك السنوات الطويلة من الكفاح التى جاءت كنتيجة لأحداث سنة ١٢١٥ آنفة الذكر . هذا عن المرسوم الأول ، أما الثانى - وهو الذى يهمنا - فقد أصدره شارل الرابع (١٣٤٧ - ١٢٧٨) ملك بوهيميا سنة ١٣٥٦ : ويعتبر شارل هذا من أعظم ملوك بوهيميا التى فضلها عن أى مكان آخر فى الامبراطورية . ولكنه أهمل التزاماته باعتباره امبراطورا المانيا ، حتى لقد أطلق عليه الامبراطور مكسيميليان فيما بعد اللقب المشهور « ابو بوهيميا والزوج الثانى للامبراطورية» The Father of Bohemia and the step father of the empire - ولهذا اللقب مغزاه ودلالته. فقد كان مكسيميليان على حق ، لأن شارل اهتم أساسا بكيان مملكته الشرقية . إذ أدى انشغاله فى بوهيميا إلى أن يعلن فى المانيا المرسوم الذهبى سالف الذكر ، الذى حول الامبراطورية من نظام الحكم الفردى إلى اتحاد ارستقراطى ، تجنبا لمساوىء الانتخابات المختلف عليها . وهكذا جعل من المانيا دولة مستقلة عن الامبراطورية . أنظر La Monte, op. cit., 419. 694—5; Waugh, op. cit., 99,326; Downs, op. cit., 174—8 - المترجم.

(١) فرنسيس الثانى هو ابن هنرى الثانى وكاترين دى مديتشي. وقد حكم من سنة ١٩٥٥ إلى سنة ١٥٦٠ - المترجم .

لقد تميزت « الامبراطورية » التى كانوا حكاما عليها بطابعها الخاص الذى هو من نتاج سياسة عصر النهضة وحركة الاصلاح الدينى المضادة كما أنها كانت ثمرة للتحالف بين فيينا والكنيسة الكاثوليكية . وكانت قصتها اعتبارا من عام ١٥٢٦ حتى عام ١٨٠٦ نهاية ضرورية وحتمية ، مثلما كانت قصة شارل العظيم من عام ٨٠٠ حتى عام ٨١٢ مقدمة ضرورية : ذلك أن آل هابسبورج قد وضعوا أيديهم على امبراطورية العصور الوسطى ، وأعادوا تنظيمها طبقا للقالب الذى اختاروه هم لأنفسهم .

وآل هابسبورج هم الذين خلقوا فعلا أسطورة « الامبراطورية الرومانية المقدسة » . إذ اتشح شارل العظيم بأردية جديدة بوصفه سابقا لكل من شارل الخامس وشارل السادس . (١) وأعيد تكوين امبراطورية اوتو كأنموذج يتفق مع الوضع الذى اختاره آل هابسبورج « لامبراطوريتهم » ، بحيث تبدو حصنا للدفاع عن أوروبا المسيحية ضد الهراطقة ؛ أو مثل كومنولث يشمل العديد من الأوطان فى ظل هداية المبادىء المسيحية . ذلك أن الفكرة الامبراطورية باعتبارها قوة «عالمية» تصاحبها وظائف ومسئوليات « عالمية » ضخمة تعمل على أن تهيىء رباطا من الوحدة بين القوميات المختلفة ، كانت أمرا جوهريا بالنسبة لكيان النمسا السياسى . وهذا ما شاع أمره فى حينه . وتعتبر فكرة بعثة « mission » امبراطورية ، التى عبث بها مؤرخو الامبراطورية فى العصور الوسطى على هذا النحو ، مرحلة أخرى متميزة من مراحل السيادة الهابسبورجية .

وهكذا يمكن أن نتبين أول تحول كبير فى امبراطورية العصور

---

(١) توفى شارل السادس سنة ١٧٤٦ — المترجم :

الوسطى إلى شكل يتناسب مع مطالب العصر ومقتضياته السياسية ، أكثر مما فعلت الحقيقة التاريخية . وكان هذا فقط هو التحول الأول : وعندما تلاشت الامبراطورية « المقدسة » فى القرن التاسع عشر ، كانت الامبراطورية تتلهف شوقا إلى قومية ألمانية رومانسية. وبعد مجلس الفاتيكان ، أضفت الديانة الكاثوليكية تفسيرا من لدنها لا يقل عن ذلك غرابة ، إن لم يكن أكثر خداعا وتضليلا . وعندما تلاشت امبراطورية أسرة هوهنزولرن (١)

(١) فى أوائل القرن الخامس عشر كانت الولايات الألمانية كثيرة متعددة : فإلى جانب النمسا ، كانت هناك براندنبورج وسكسونيا وبلغاريا وفورتنبورج . وفى عام ١٤١٥ منح الامبراطور سيجسموند إمارة براندنبورج إلى فردريك اوف هوهنزولرن . وكانت أسرة هوهنزولرن تسيطر على انحاء متفرقة من الأملاك فى المانيا . وفى سنة ١٥٢٥ استولى البرت أحد أفراد تلك الأسرة والرئيس الأعظم لجماعة الفرسان الداوية على دوقية بروسيا ، وكانت وقتذاك تحت سيادة ملك بولندا : ومنذ ذلك التاريخ تولى حكم براندنبورج مع بروسيا عدد من الأمراء . وفى عام ١٧٠٠ تولى فردريك الثالث حكم الامارتين معا ، وقد تسمى باسم الملك فردريك الأول بعد أن منحه الامبراطور ليوبولد لقب ملك بروسيا . وهكذا كونت تلك الأسرة ملكية قوية فى بروسيا . وعلى يدها تم توحيد ألمانيا كلها سنة ١٨٧٠ . وكان ذلك بفضل خطط بسمارك ومجهوداته . وفى سنة ١٨٧١ تم تتويج الملك البروسي إمبراطورا على الدولة الألمانية الموحدة. وظل الوضع هكذا حتى سقطت أسرة هوهنزولرن فى أعقاب الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨ إثر انهيار المانيا فيها . أنظر عن ذلك المراجع التالية :
Brett, op. cit., 239 f.; Lodge, op. cit., 223; P. Myers, Medieval and Modern History, (1923), 412. Cf. also Waugh, op. cit., 321, 326, 328, 334; A E R. Boak and others, The Growth of Western Civilization (1951), II . 504, 632 - المترجم.

فى القـــرن العشـرين ، أعيـد تنظيم الامبراطـورية مرة أخـرى: ولكن هذه المرة بوصفها فكرة ايديولوجية ترمز إلى « النظام الجديد » الذى أوجده هتلر (١) ، وذلك عن طريق المؤرخين الذين كان ايمانهم واقتناعهم السياسى أقوى من نزاهتهم العلمية .

لقد كانت خاتمة امبراطورية العصور الوسطى ، تلك الخـرافة والاسطورة ، من بعض الوجـــوه ، أعظم أهميـــة من تـاريخ الامبراطورية نفسها .

---

(١) نجد مثلا واضحا لذلك فى كتاب H. Aubin, Das erste deutsche Reich als Versuch einer europäischen Staatsgestaltung, Breslau, 1941 – وقد يجد القارىء المعنى بتاريخ المانيا فيما بين عامى ١٩٣٣ و ١٩٤٥ مجموعة حقيقية لأحاسيس وألقاب مماثلة ، وذلك فى الطبعـة السادسة التى ظهرت خلال الحرب (١٩٤٣) لكتاب F. Schneider, Die neueren Anschauung der deutschen Historiker über die Kaiserpolitik des Mittelalters (1943).

بعض المراجع للفصل الرابع

Bachmann, A., Deutsche Reichsgeschichte im Zeitalter Friedrichs III und Maximilian I. Vols. I & II (1461-1486). Leipzig, 1884—94.

Beard, C. A., Robinson, J. H and Smith, D. V., History of Civilization: Our Own Age. New York, 1945.

Berner, E. (ed.), Quellen und Untersuchungen zur Geschichte des Hauses Hohenzollern. 1901.

Boak, A. E. R., Hyma, A. and Slosson, P., The Growth of Western Civilization. 2 vols. New York, 1951.

Brett, S. R, Europe since the Renaissance. 2 parts (1494—1914). London, 1956

Gisi, W., Der Ursprung der Häuser Zähringen und Habsburg. 1888.

Hare, C., Maximilian the Dreamer, Holy Roman Emperor, 1459— 1519. London, 1913.

Heller, J., Deutschland und Frankreich in ihern politischen

Beziehungen vom Ende des Interregnums bis zum Tode Rudolfs von Habsburg. Göttingen. 1874.

Herrgott, M., Genealogia diplomatica augustae gentis Habsburgicae. Vienna, 1737—38.

Hintze, O., Die Hohenzollern und ihr Werk. 1915.

Höfner, J., Die Hohenzollern und das Reich 1918.

Kaser, K., Deutsche Geschichte zur Zeit Maximilians I, 1486—1519. Berlin, 1912.

Koser, R., Geschichte der brandenburgischen Politik bis zum westfälischen Frieden. 1913.

Koser, R., Naudé, A and Hintze, O. (eds.), Forschungen zur brandenburgischen und preussischen Geschichte. 1888.

Kraus, V. v., Deutsche Geschichte im Ausgange des Mittelalters, 1438—1517. 2 vols. Stuttgart. 1888—1905.

Längl, Die Habsburg und die denkwürdigen Stätten ihrer Umgebung. Vienna, 1895.

Lichnowsky, E. M. F. von, Geschichte des Hauses Habsburg. Vienna, 1836—44.

Liebenau, T. von, Die Anfänge des Hauses Habsburg. Vienna, 1883.

Lindner, T., Deutsche Geschichte unter den Habsburgern uud Luxemburgern, 1273—1437. 2 vols. Stuttgart, 1888—93.

Loserth, J., Geschichte des späteren Mittelalters von 1197 bis 1492. Munich, 1903.

Ludwig, E., Wilhelm der Zweite. 1925. (English trans by E. C. Mayne, as "William II", 1926).

Merz, W., Die Habsburg. Aarau, 1896.

Michael, E., Geschichte des deutschen Völkes vom dreizehnten Jahrhundert bis zum Ausgang des Mittelalters. 6 vols. Freiburg, 1897—1915.

Otto, H., Die Beziehungen Rudolfs von Habsburg zu Papst Gregor X. Innsbruck, 1894.

Pierson, W., Preussische Geschichte. 1911.

Prutz, H., Preussische Geschichte. 4 vols. Suttgart, 1899—1902.

Ranke, L. v, Zwölf Bücher preussischer Geschichte. 5 vols. in 3. Leipzig. 1874.

Redlich, O., Rudolf von Habsburg. Innsbruck, 1903.

Rogge, B., Fünf Jahrhundert Hohenzollernherrschaft. 1915.

Roo, G. de, Annales rerum ab Austriacis Habsburgicae gentis principibus a Rudolpho I. usque ad Carolum V. gestarum. Innsbruck, 1592.

Schalk, K., Aus der Zeit des österreichischen Faustrechts, 1440—1463. Vienna, 1919.

Schultz, A.,

1— Geschichte der Habsburger in den ersten drei Jahrhunderten. Innsbruck, 1887.

2— Deutsches Leben im 14 und 15 Jahrhundert. Leipzig, 1892.

Schuster, G., Aus der Geschichte des Hauses Hohenzollern. 1915.

Schwartz, P., 1415—1915 Brandenburg—Preussen und das deutsche Reich unter den Hohenzollern. 1915.

Seidel (ed.), Hohenzollern. Jahrbuch, Forschungen und Abbildungen zur Geschichte der Hohenzollern in Brandenburg Preussen. Leipzig, 1897—1903.

Stillfried, R. von and Märker, T. (eds.), Monumenta Zollerana. 1852—90.

Tuttle, H., History of Prussia. 4 Vols. Boston, 1884—96.

Waugh, W. T., A History of Europe from 1378 to 1494. London, 1932.

Weibrich, F., Stammtafel zur Geschichte des Hauses Habsburg. Vienna. 189[illegible].

Wostry, W., König Albrecht II (1437—1439). 2 parts. Prague, 1906—07.

خاتمة

الامبراطورية بين الفكرة والحقيقة

يواجه المؤرخ الذى يتجه اليوم ببصره إلى إمبراطورية العصور الوسطى، أولا بالعمل الرومانسى العظيم من القرن التاسع عشر الذى كتبه شلوس نويشفنشتاين Schloss Neuschwanstein فى اسلوب الفنان فاجنر . وإذا صرفنا النظر عما تقدم ، سوف نواجه الكيان المشوش لنظام الحكم النمساوى لكل من شارل السادس وماريا تريزا .(١) ونأتى بعد ذلك إلى البنيان القوطى الدقيق الذى صاغه دانتى ومعاصروه . وتعتبر تلك الامبراطوريات جميعها ، على اختلاف أنواعها ، واجهات عظيمة الروعة ؛ وقد انهارت كل هذه الأنظمة قبل أن نصل إلى الامبراطورية كما كانت باعتبارها قالبا عاديا خلوا من الادعاء لبنيان رومانسى بدائى بسيط يمارس عمله كل يوم ؛ وذلك بالمقارنة بهذا البنيان الشامخ الذى زينت به الأجيال المتأخرة الامبراطورية وأحاطته بها.

لقد حاولنا عرض الامبراطورية كما كانت ، حتى نمدكم بصورة دقيقة لكيانها الأصلى ، الذى يمكن قياسه بالنسبة للأعمال الضخمة المتأخرة ولنا أن نتساءل : ما هو المرجع المناسب الذى يمكن للمؤرخ

---

(١) هى ماريا تريزا النمساوية ابنة شارل السادس المتوفى سنة ١٧٤٠.
أنظر Brett, op. cit., I. 256—269 — المترجم.

غير المتخصص فى تاريخ القرون الوسطى الاعتماد عليه فى هـذا الصـدد ؟ وأعتقد أن الجواب الشافى هو أن إعادة كتابة تاريخ الامبراطورية سوف يؤدى إلى تعديل تلك النظرة الأعم لسير مجرى الحضارة، بما فى ذلك حضارة القرون الوسطى . فضـلا عن تأثيره فى الآراء التي تتناول العـلاقة بين الحضارات التى نجد أنفسنا جميعا . نحن الذين نطالب بأن نكون مؤرخين، مضطرين إلى صياغتها ، إما فى شكل رأى علمي افتراضى، أو فى قالب يجب أن يتمشى مع مجالات دراساتنا المحـددة . وترتبط مفـاهيمنا عن طبيعة المجتمع السياسى فى العصور الوسطى فى الغرب بوجهة نظرنا الخـاصة بطابع الامبراطورية وغايتها ، تلك الامبراطورية التى اعتبرت دائما محـورا لهذا المجتمع .

ومن الواضح أن مفهومنا عن عصر النهضة ومكانه من التسلسل التاريخى بين القرون الوسطى والأزمنة الحديثة ، متأثر إلى حـد بعيد بالأفكار التى كوناها عن المبادىء الرائدة والخصائص الأساسية للقـرون السابقة . وأما المفارقات العديدة التى أوضحها المؤرخون وغيرهم حول الآراء والأنظمة السياسية فى كل من العصور الوسطى والعصور الحديثة ، فانها مشتقة إلى حد بعيد من وجهة النظر القائلة بأن المجتمع الوسيط كان يحكمه مبدأ «العالمية» universalism ويخضع « لمملكة عالمية » universal monarchy ، كان من شأنها أن أبقت على التقاليد الخاص « بالحكم العالمى » وكذلك « حقوق روما الذاتية التى لا يجوز بطلانهـا » . وإذا كان هـذا التفسير لامبراطورية العصور الوسطى بوصفها « مملكة عالمية » قد جاوز الحد، فمن الواضح أن مثل تلك التعميمات مع استدلالاتها واستنتاجاتهـا البعيـدة فى حاجة هى

الأخرى إلى المراجعة . وينطبق نفس الشيء على العلاقة بين المجتمعين الكنسي والسياسي ، التي يفترض أنها ميزت القرون الوسطي ، والتي زالت فى فترة الاصلاح الديني .

ويرى برايس أن « الكنيسة الرومانية المقدسة والامبراطورية الرومانية المقدسة » كانتا « شيئا واحدا بل ونفس الشيء ، وإن كان ينظر اليهما من زاويتين مختلفتين » وكان أحد المبادىء الاساسية لإمبراطورية العصور الوسطي » هو « التوافق الحقيقي فيما يختص بحدود الدولة المقدسة ... مع حدود ... الكنيسة المقدسة » . ويرى برايس « أن من حق الإمبراطور أن يفرض الطاعة على العالم المسيحى » ؛ وكان « ارتباط الإمبراطورية بالدين » هو الطابع « الأكثر وضوحا » ولسنا بحاجة لبيان أن مثل هذه التعميمات — إن صحت — لكانت لها أهميتها القصوى فى تحديد وجهة نظرنا الكاملة فيما يتعلق بمجرى تاريخ الحضارة الغربية وطابعها . ولنفس هذا السبب لا يمكن تناولها على أنها آراء تعسفية ؛ وإنما يتعين اختبارها مرارا وتكرارا فى ضوء المعرفة الواسعة ، مع تطبيق وسائل النقد العلمى السليم .

وتتعارض وجهة نظرنا الخاصة بالإمبراطورية فى العصور الوسطى مع وجهة نظر برايس ، فيما يتعلق بالمسائل التى تناولناها . فضلا عن كثير غيرها من نقاط الخلاف الجوهرية وقد نشأت أوجه الخلاف هذه — من حيث النية على الأقل — من تقدير فاتر واقعي لسير مجرى الأحداث ، باحثة عن أفكار ترويها عن مجموعة الوقائع التاريخية التي اجتذبتها إليها . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فقد عمل برايس على

« التقلقل » من شأن الامبراطورية ومكانها فى المجتمع الوسيط الذى استمد منه اصطلاح « المبدأ الرائد لأساطير القرون الوسطى ، والارتبــاط التـام بين الأرض والسماء » · وفى رأى برايس أيضاً أن الامبراطورية كانت وحدة على مستوى عال . ولكنها كانت من وجهة نظرنا نظاما سياسيا جامدا محددا من حيث الزمان والمكان . وليس معنى ذلك أن الأفكار والمثل العليـا التى اعتقد برايس أنه توصل إليها وهى تكييف مصير الامبراطورية ، لم تكن قائمة أو موجودة ، أو أنه لاقيمة لها فى تاريخ الحضارة الأوروبية . إن ذلك غير صحيح ، بحيث لا تختلف عن الاساطير والخرافات التى أحاطت بتاريخ الامبراطورية ، والتى لاقيمة لها هى الاخرى . وربما كانت أوروبا تدين ، سواء فى السراء أو الضراء ، لاسطورة شارلمان الممثلة فى ذروتها فى أغنيــة رولان (١) ، أكثر مما هى مدينة لشارل نفسه كما عرفه التاريخ .

---

(١) تعتبر اسطورة حج شارلمان إلى الاراضى المقدسة ، وانشودة رولان التى خلدت الحملة التى قام بها الامبراطور الالمانى تجاه الاندلس سنة ٧٧٨ ، من أشهر الاساطير المعروفة فى الادب الشعبى فى المجتمع الغربى الوسيط . ونظرا لما تحويه كل منهما من آراء تدعو إلى القتال . فقد استغلتــا زمن الحروب الصليبية لتحقيق أغراضها العدائيــة فى رقعــة الشرق العربى . وللمزيد من التفاصيل عن الاسطورتين ، أنظر جوزيف نسيم يوسف : الدافع الشخصي فى قيام الحركة الصليبية، ص١٨٥ - ١٨٨ والحواشى، والعرب والروم واللاتين ص ٤١ - ٤٢ و ٥١ - ٥٢ والحواشى ، ديفــز : أوربا فى العصور الوسطى ، ص ٥٦ ، وشارلمان ص ٢٨٥ - ٢٨٨ انظر أيضا G. Paris, Med French Literature (1903), 38-42: H Pirenne, G. Cohen and H. Focillon, la civilisation occidentale au moyen âge (1941), 211-6; Cantor, op. cit., 235-7 — المترجم.

هذا،ويتعين علينا أن نعني بوضع كل من الاساطير والمثل العليا فى مكانها الحقيقي فى موكب التطور التاريخى ، وألا نربطهما بأنظمة لا تمت إليهما بصلة . ولقد كانت الفكرة المسيحية عن الامبراطورية، أى فكرة امبراطورية مسيحية imperium Christianum أو كومنولث مسيحى Christian commonwealth ، قوة عظيمة فى القرون الوسطى ، لها نفوذها وتأثيرها فى أذهان وأعمال كثير من الملوك والأباطرة ، نذكر من بينهم شارل العظيم وأوتو الثالث وهنرى الثالث . وليس بوسعنا فصلها عن الصورة التى رسمناها لها . غير أننا ، بكل بساطة ، سنزيد الامر تعقيدا إذا حاولنا إثباتها بمضاهاتها بالامبراطورية الغربية كما كانت فى التاريخ.أو فى الواقع بمقارنتها مع أية امبراطورية أخرى فى هذا العالم . ولم تكن الامبراطورية باعتبارها حدثا تاريخيا ، سواء من حيث القصد والنية ، أم من حيث الحقيقة والواقع ، تنظيما لمملكة الله على الأرض . لقد كانت دولة بين غيرها من الدول . ولا تتمتع بحقوق تزيد عن تلك التي يتمتع بها جيرانها فقد وصف دانتي – حسبما قال برايس – « الكومنولث المسيحى العالمى فى صورة مثالية لا يمكن للجنس البشرى أن ينساها على الإطلاق » . ولم يكن هذا الكومنولث الذى بدا كعلاج لعيوب القرن الرابع عشر هو « الامبراطورية الرومانية المقدسة » كما عرفها التاريخ.

ولا افترض وجود ثغرة بين الفكرة والحقيقة فى تاريخ الامبراطورية ، أو فى الواقع فى أى مكان آخر من التاريخ وتتميز « فكرة » الامبراطورية عن غيرها من الأفكار والمثل التي ذاعت وانتشرت حول الامبراطورية

بفضل الجهود الفردية للكتاب والمفكرين ، ومن بينهم أولئك الذين أيدوا سلطان البابوية ونفوذها . ولم تستقر هذه الفكرة غير لحظة فى القرن الحادى عشر . ثم لم تلبث أن تعرضت للهجوم عليها ، هذا الهجوم الذى تطور وتشكل ليطابق الدوافع الخارجية الخاصة ، وبخاصة مجموعة الأحداث الوقتية . ويعتبر ما ترتب على ذلك من نتائج وآثار ، شيئا لم يخططه إنسان قط ، وربما لم يرغب فيه أحد .

وتستهدف محاولتنا هذه تتبع العلاقة المتبادلة والتفاعل المشترك بين الفكرة والحقيقة فى مضمونها التاريخى . وتختلف الصورة الناتجة - حسبما تكشفت لنا - عن تلك التي رسمها المؤرخ السياسي الذى يتجه إلى تصوير الحقائق التي لا قيمة لها . كما أنها تختلف عن الصورة التي يعرضها السياسي الفيلسوف ومؤرخ الفكر الذى بوسعه تناول القيم التي لا أساس لها من الصحة . وتخلو مثل هذه الصورة من أية لمحة معقولة من الجمال الذى أدمجناه مع الصورة الأخرى : كما أنها فى حد ذاتها ليست أخاذة فى عموميانها . ولكن كم يكون الثمن تافها إذا جعلتنا أكثر قربا لما كانت عليه الامبراطورية فعلا ، حسبما تصورها رانك(١)

(١) ل. ف. رانك من مؤرخي القرن التاسع عشر . له عدة مؤلفات بالألمانية منها موسوعته المعروفة عن تاريخ العالم فى تسعة أجزاء وهى : L. von Ranke, Weltgeschichte, 9 vols , Leipzig, 1896 — 98 ; cf. also idem, Zwölf Bücher Preussischer Geschichte, 5 vols. in 3 , Leipzig. 1878—79; idem, Savonarola und die florentinische Republik gegen Ende des 15 Jahrhunderts, Leipzig. 1877. المترجم .

Ranke . فمن هـذه النقطة وحدها فقط ، نستطيع أن نخطو مطمئنين خطوة أخرى إلى الأمام . فنعمل على تقدير أثرها القوى على المجتمع الأوروبي، ومغزاها بالنسبة لقصة الحضارة الأوروبية : ولكن هذا موضوع آخر ليس بوسعنا التعرض له هنا .

المراجع التى اعتمد عليها المترجم

فى

المقدمة والحواشي

---

١ - المراجع العربية

ابراهيم احمد العدوى (الدكتور) :

١ - الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية - القاهرة ١٩٥١ ؛

٢ - المجتمع الاوروبى فى العصور الوسطى - القاهرة ١٩٦١ .

السيد الباز العريني (الدكتور) :

١ - الدولة البيزنطية (٣٢٣ - ١٠٨١ م) - القاهرة ١٩٦٠ ؛

٢ - مؤرخو الحروب الصليبية — القاهرة ١٩٦٢ .

جوزيف نسيم يوسف (الدكتور) :

١ - العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى - الاسكندرية ١٩٦٣ .

٢ - « الدافع الشخصي فى قيام الحركة الصليبية » - مجلة كلية الآداب - جامعة الاسكندرية — العدد السادس عشر — السنة ٦٢ - ١٩٦٣ . الاسكندرية ١٩٦٣ (ص ١٨٣ — ٢١١) .

سعيد عبد الفتاح عاشور (الدكتور) : اوربا العصور الوسطى — جزءان — القاهرة ١٩٥٨ — ١٦٥٩ .

سعيد عبد الفتاح عاشور (الدكتور) ومحمد انيس (الدكتور) : النهضات الاوربية فى العصور الوسطى وبداية الحديثة — القاهرة ١٩٦٠ .

عبد الرحمن بدوى (الدكتور) : فلسفة العصور الوسطى — القاهرة ١٩٦٢ء

لطفى عبد الوهاب يحيى (الدكتور) : مقدمة فى نظم الحكم عند اليونان والرومان - دراسة فى حضارة البحر الأبيض - الاسكندرية ١٩٥٨ :

محمد صقر خفاجه (الدكتور) : هوميروس — القاهرة ١٩٥٦ .

محمد عبد المعز نصر (الدكتور) : الدولة والمواطن - بحث فى نظرية السيادة - الاسكندرية ١٩٥٢ .

نظير حسان سعداوى (الدكتور) : تاريخ انجلترا وحضارتها فى العصور القديمة والوسطي — القاهرة ١٩٥٨ .

وهيب ابراهيم سمعان (الدكتور) : الثقافة والتربية فى العصور الوسطى — القاهرة ١٩٦٢ .

يوسف كرم :

١ — تاريخ الفلسفة اليونانية — القاهرة ١٩٥٣ .

٢ — تاريخ الفلسفة الاوربية فى العصر الوسيط - القاهرة ١٩٥٧ .

٢ - المراجع المعربة

ارسطوطاليس : السياسة — نقله من الفرنسية إلى العربية احمد لطفى السيد - القاهرة ١٩٤٧ :

اومان (شارل) : الامبراطورية البيزنطية — تعريب الدكتور مصطفى طه بدر — القاهرة ١٩٥٣ .

باركر (ارنست) : الحروب الصليبية — ترجمة الدكتور السيد الباز العريني — القاهرة ١٩٦٠ .

باركر (ا) وآخرون : تراث الاسلام — جزءان — ترجمة علي احمد عيسي وآخرون — القاهرة ١٩٣٦ .

بينز (نورمان) : الامبراطورية البيزنطية — تعريب الدكتور حسين مؤنس ومحمد يوسف زايد — القاهرة ١٩٥٠ .

تشارلزوورث (م . ب) : الامبراطورية الرومانية — ترجمة رمزى عبده جرجس — مراجعة الدكتور محمد صقر خفاجة — القاهرة ١٩٦١ .

توينبي (ارنولد) : تاريخ الحضارة الهلينية — ترجمة رمزى عبده جرجس — مراجعة الدكتور محمد صقر خفاجة — القاهرة ١٩٦٣ .

ديفز (هـ . و . كارلس) :

١ — اوربا فى العصور الوسطى — ترجمة الدكتور عبد الحميد حمدى محمود — الاسكندرية ١٩٥٨ .

٢ — شارلمان — نقله الى العربية الدكتور السيد الباز العرينى — القاهرة ١٩٥٩ .

ديل (شارل) : البندقية جمهورية ارستقراطية — تعريب الدكتور احمد عزت عبد الكريم وتوفيق اسكندر — القاهرة ١٩٤٨ .

راوس (ا . ل) : التاريخ الانجليزى — نقله الى العربيـــة الدكتورمحمد مصطفى زيادة — القاهرة ١٩٤٦.

رنسيمان (ستيفن) : الحضارة البيزنطية — ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد - مراجعة زكى على — القاهرة ١٩٦١ .

سباين (ج) : تطور الفكر السياسي — جزءان — ترجمـة حسن جلال العروسى - القاهرة ١٩٦٣—١٩٦٤.

فازيليف (ا . أ) : العرب والروم — ترجمة الدكتور محمـــد عبد الهادى شعيره — مراجعـــة الدكتور فـــؤاد حسنين على — القـاهرة [بدون تاريخ].

فشر (هـ . ا . ل) : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى — جزءان — ترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة والدكتور السيد الباز العرينى والدكتـور ابراهيم احمد العدوى — القاهرة ١٩٥٠ و ١٩٥٧.

كوبلاند (ج . و) و فينوجـرادوف (ب) الاقطاع والعصور الوسطي فى غرب اوربا — ترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة - القاهرة ١٩٤٨ .

كولتون (ج.ج) : عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة — ترجمـة الدكتور جوزيف نسيم يوسف — الاسكندرية ١٩٦٤ .

لانجر (و) : موسوعة تاريخ العالم — ٤ أجزاء — أشرف على الترجمـة الدكتور محمد مصطفي زيادة — القاهرة ١٩٥٩ — ١٩٦٢.

لوبيز (ر س) وآخرون : بحوث فى التاريخ الاقتصادى - خمس مقالات قام بترجمتها توفيق اسكندر — القاهرة ١٩٦١.

٣ - المراجع الاجنبية

Aristotle, Politics. Trans. by E. Barker Oxford, 1961.

Atiya, A. S.,

1— The Crusade in the Later Middle Ages. London, 1938.

2— Crusade, Commerce and Culture. Bloomington, 1962.

Atiyah, E., The Arabs. Edinburgh, 1958.

Baldwin, M. W., The Mediaeval Church. New York, 1953.

Barker, E. (ed.), Social and Political Thought in Byzantium from Justinian I to the Last Palaeologus. Oxford, 1957.

Barrow, R. H., The Romans London, 1955.

Baynes, N. H.,

1— The Byzantine Empire. London, 1939.

2— Byzantine Studies and Other Essays. London, 1960.

3— "The Political Ideas of St. Augustine's De Civitate Dei," London, 1962. Pub. in The Historical Association, Pamphlet No. 104.

Baynes, N. H. and Moss, H. St. L. B. (eds.), Byzantium. Oxford. 1953.

Blakeney, E. H. (ed.), A Smaller Classical Dictionary. London, 1949.

Bloy, L., Constantinople et Byzance. Paris, 1917.

Boak, A. E. R. & others, The Growth of Western Civilization. Vol. II. New York, 1951.

Brett, S. R., Europe since the Renaissance. 2 parts. London, 1956.

Browne, R. A. (ed.), British Latin Selections, A. D. 500—1400. Oxford, 1954.

Burckhardt, J., The Civilization of the Renaissance. Trans. by S. G. C. Middlemore. London, 1944.

Burgh, W. G. de, The Legacy of the Ancient World. 2 vols. London, 1955.

Bury, J. B.,

1— A History of the Roman Empire from its Foundation to the Death of Marcus Aurelius (27 B. C. — 180 A. D.) London, 1913.

2— A History of Greece. London, 1951.

Cambridge Ancient History, ed. by J. B. Bury and others. 10 vols. Cambridge, 1928—34.

Cambridge Medieval History, ed. by H. M. Gwatkin and others. 8 vols. Cambridge, 1929—36.

Cahen, C., La Syrie du Nord a l'époque des Croisades. Paris, 1940.

Cantor, N. F. (ed.), The Medieval World, 300—1300. New York, 1963.

Cary, M., A History of Rome down to the Reign of Constantine. London, 1938.

Cheney, C. R. and Semple, W. H. (eds.), Selected Letters of Pope Innocent III concerning England (1198—1216). London, 1953.

Coulborn, R. (ed.), Feudalism in History. Princeton, 1956.

Coulton, G. G.,

1— Medieval Panorama. New York, 1955.

2— Medieval Village, Manor, and Monastery. New York, 1960.

Cross, F. L., The Early Christian Fathers London, 1960.

Crump, C. G. and Jacob, E. F. (eds), The Legacy of the Middle Ages. Oxford, 1951.

وقد ظهر أخيرا الجزء الأول من الترجمة العربية للكتاب المذكور تحت اسم « تراث العصور الوسطى » . وقام بمراجعة الترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة والدكتور محمد بدران (طبع القاهرة ١٩٦٥).

Daniel—Rops, L'église de la cathédrale et de la croisade. Paris, 1952.

Diehl, Ch.,

1— Byzance : grandeur et décadence. Paris, 1919.

2— Histoire de l'empire byzantin. Paris, 1920.

Dill, S., Romon Society in the Last Century of the Western Empire. New York, 1958.

Downs, N. (ed.), Basic Documents in Medieval History. Princeton, 1959.

Figgis, J. N., Political Thought from Gerson to Grotius, 1414—1625. New York, 1960.

Finley, M. I., The Ancient Greeks. London, 1963.

Fisher, H. A. L., A History of Europe. 2 vols. Collins. 1960—61.

Fowler, W. W., Rome. Revised by M. P. Charlesworth. London, 1957.

Gewirth, A., Marsilius of Padua, the Defender of Peace. 2 vols. New York, 1956.

Glover, T. R., The Ancient World. London, 1953.

Hammod, N. G. L., A History of Greece to 322 B. C. Oxford, 1959.

Haskins, C. H.,

1— Studies in Mediaeval Culture. New York, 1929.

2— The Normans in European History. New York, 1959.

3— Norman Institutions. New York, 1960.

Hay, D., The Italian Renaissance in its Historical Background. Cambridge 1961.

Heer, F., The Medieval World: Europe 1100—1350. London, 1961.

Homo, L., Roman Political Institutions from City to State. London, 1929.

Hussey, J. M., The Byzantine World. London, 1957.

Jones, A. H. M.,

1— Constantine and the Conversion of Europe. London, 1961.

2— The Later Roman Empire. 3 vols, & maps. Oxford, 1964.

Katz, S., The Decline of Rome and the Rise of Mediaeval Europe. New York, 1960.

Ker, W. P., The Dark Ages. London, 1955.

Kitto, H. D., The Greeks. London, 1954.

Laistner, M. L. W., Thought and Letters in Western Europe, A. D. 500 to 900. London, 1957.

Lamb, H., The Crusades. London, 1931.

La Monte, J. L., The World of the Middle Ages. New York, 1949.

Lewis, E., Medieval Political Ideas. 2 vols. London, 1954.

Lodge, R., A History of Modern Europe. London, 1885.

Machiavelli, N., Florence and the Affairs of Italy to the Death of Lorenzo the Magnificent. New York, 1960.

Mathews, S., Select Mediaeval Documents and Other Material Illustrating the History of Church and Empire. New York, 1900.

McKilliam, A. E., A Chronicle of the Popes from St. Peter te Pius X. London, 1912.

McKisack, M., The Fourteenth Century, 1307-1399. Oxford, 1959.

Michaud, M., Bibliographie d s croisades. 2 vols. Paris, 1822.

Mommsen, T. E., Medieval and Renaissance Studies. Ed. by E. F. Rice. New York, 1959.

Moss, H. St.L.B., The Birth of the Middle Ages, 395-814. London, 1937.

Myers, P., Mediaeval and Modern History. Boston, 1923.

Oman, C. W. C., The Art of War in the Middle Ages, A. D. 378—1515. New York, 1960.

Ostrogorsky, G., History of the Byzantine State. Trans. by J. Hussey. Oxford, 1956.

Paetow, L. J., A Guide to the Study of Medieval History. London, 1931.

Paris, G., Mediaeval French Literature. Trans. from the French by H. Lynch. London, 1903.

Parker, H. M. D., A History of the Roman World from A. D. 138 to 337. Revised with additional Notes by B. H. Warmington. London, 1958.

Pirenne, H , Medieval Cities. Trans. from the French by F. D. Halsey. New York, 1948.

Pirenne, H., Cohen, G and Focillon, H., La civilisation occidentale au moyen âge du XIe au milieu du XVe siècle. Paris, 1941.

Powêr, E., Medieval People. London, 1954.

Previté—Orton, C. W. (ed.), The Shorter Cambridge Medieval History. 2 vols. Cambridge, 1952.

Ridgeway, W., The Early Age of Greece. 2 vols. Cambridge, 1931.

Rostovtzeff, M., Rome. Trans. from Russian by J. D. Duff. New York, 1960.

Runciman, S.,

1— Byzantine Civilisation. London, 1948.

2— A History of the Crusades. 3 vols. Cambridge, 1954—55.

Stephenson, C., Mediaeval Feudalism. New York, 1942.

Stubbs, W.,

1— Germany in the Early Middle Ages, 476—1250. Ed. by A. Hassall. London, 1908.

2— Germany in the Later Middle Ages, 1200—1500. Ed. by A. Hassall. London, 1908.

Sullivan, R. E., Heris of the Roman Empire. New York, 1960.

Taylor, A. J. P., The Course of German History. London, 1961.

Taylor, H. O.,

1— The Classical Heritage of the Middle Ages. New York, 1957.

2— The Mediaeval Mind. 2 vols. Cambridge, 1959.

Thomson, D., World History from 1914 to 1950. London, 1958.

Tout, T. F., The Empire and the Papacy: European History, 918—1273. London, 1909.

Toynbee, A. J., Hellenism : The History of a Civilization. London, 1959.

Trevelyan, G. M., A Shortened History of England. Aylesbury, 1960.

Ullmann, W., Principles of Government and Politics in the Middle Ages. London, 1961.

Ure, P. N., Justinian and his Age. London, 1951.

Vasiliev, A. A., History of the Byzantine Empire. 2 vols. Madison, 1961.

Waugh, W. T., A History of Europe from 1378 to 1494. London, 1932.

Westermann, W. L., The Slave Systems of Greek and Roman Antiquity. Philadelphia, 1955.

Whitelock, D., The Beginnings of English Society : The Anglo—Saxon Period. London, 1954.

Woodward, E. L., History of England. London, 1957.

قائمة الخرائط

فهرس عام

(ب)

(ت)

(ص)

(ض)

(ط)

(ل)

محتويات الكتاب

صفحة

تصويب

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٣	١	والاقصادية	والاقتصادية
١٠	١٣	Runciman, cit.,	Runciman, op. cit.,
١١	١٠	للتنطيم	للتنظيم
١٢	٢١	ثيودرريك	ثيو دوريك
١٣	١٥	اللمبارديق	اللمبارديين
١٣	١٧	قاد مم	قادهم
١٥	٧	البيرقراطية	البيروقراطية
٢٣	١٢	وجه	وجهة
٢٩	١١	الرمانية	الرومانية
٤١	٤	انوست	انوسنت
٥٢	١٦	إب از	إبراز
٥٢	٢٠	د ن	دون
٦٧	١١	إل	إلى
٧٤	١٩	خاتمة	خاتمته
٧٥	١٢	الهينية	الهلينية
١١١	١	الرحيدة	الوحيدة
١١٣	١	فترت	فترات
١٢١	٢١	طل	ظل
١٢٥	١٩	in	im
١٤١	٦	البيونطية	البيزنطية
١٤٣	٢	بيرنطة	بيزنطة

تصويب

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢٢٧	١٨	تتعاق	تتعلق
٢٣٨	١١	o hannes	Johannes
٢٣٩	٢٠	السلتطين	السلطتين
٢٤٢	٧	الامبراطورية	الامبراطور
٢٤٩	٢	الحير	الحيرة
٢٥٨	١٥	Entstehuug	Entstehung
٢٦٠	٨	Znr	Zur
٢٦٦	٢٥	١٩٥٥	١٥٥٩
٢٧٢	٤	uud	und
٣١٤	١	طراودة	طرؤادة



٢/١١/٠١/٠٢٢ ٧٧٠٠م

ملتزم الطبع والنشر دار المعارف — ١١١٩ كورنيش النيل
فرع الاسكندرية ٤٢ شارع سعد زغلول — ٢ سيدان التحرير (المنشية)